اسمي زيزفون

سوسن جميل حسن

رواية

منشورات الربيع

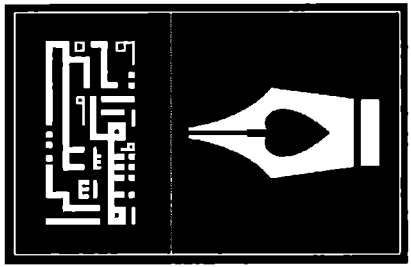
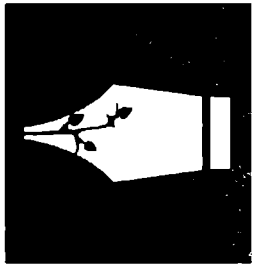

اسمي زيزفون،

رواية
جميل حسن، سوسن

منشورات الربيع، القاهرة
الطبعة الأولى يناير 2022

رقم الإيداع 29920/ 2021
ردمك 978-977-6765-45-0

الغلاف والتصميم الداخلي
scriptus.abimam.com

صورة الغلاف
Tatiana Pavlova

منشورات الربيع

المحرر العام
أحمد سعيد عبد المنعم

alrabiepublications.com
info@alrabiepublications.com
+2 0100 7552 598

كافة الحقوق محفوظة للناشر ©
لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقةٍ، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابيّ مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببضع فقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

اسمي زيزفون

سوسن جميل حسن

منشورات الريس

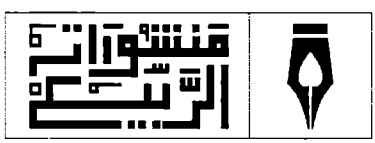

1

"ماتت زيزفون، بسلامة راسكم"... هكذا وصل الخبر كومضة برق إلى كل المعنيين بموتي، أو من شُبّه لهم بأن موتي يعنيهم. هذا ما علمت به لاحقًا عندما أخذوا يخبرونني بما حدث وكيف كان وقع الخبر عليهم مظهرين فائضًا من الحزن والتعاطف. كانوا يؤكدون لي أنني غالية عليهم، وأقسموا أن الخبر كان كالصاعقة.

فتحت عيني ورأيت تلك الأشباح السوداء والوجوه الواجمة التي تغص بها الغرفة في بيت أخي برهوم، كنت ممددة على تلك الصوفا التي أجلس عليها وحيدة في معظم مساءاتي التي تتمادى حتى الليل أو ربما حتى بواكير الفجر. أعارك النوم فيتمنَّع كلما طلبتُه، ثم يُغافلني عندما أستسلم لأرَقِيْ.

في الحقيقة أنا لم أمت. كل ما في الأمر أنه أغمي عليّ ودخلت في غيبوبة لا أدري كم استمرت، فعندما فتحت عيني وبدأت باسترداد وعيي وعرفت أنني ممدّدة على الصوفا في بيت أخي برهوم، كانت الوجوه التي تتوجّه أنظارها نحوي وجوهًا، لا أستطيع القول إنها غريبة، لكنها ليست المألوفة التي عرفتها. كانت وجوهًا ميتة، لم أشعر تجاهها بعاطفة، لم يكن يعنيني لحظتها أن أفهم ما الذي تخفي هذه الوجوه خلف عيونها التي تبدو كفوهات كهوف مظلمة تكاد تبتلع الغرفة كلها. لو كنت لحظتها قادرة على الضحك لقهقهت من منظر الوجوه التي كانت ترمقني، من مغارات عيونها،

وأنوفها تتمطى بكسل فوق رأسي وتزداد فتحاتها اتساعًا.

فتحت عينيّ، ثم أغمضتهما مرة أخرى وأنا أحاول أن أزيح ذلك المشهد من خلدي، لم أكن أشعر لحظتها بأنني أرغب في إجهاد تفكيري باستقراءات واستنتاجات، فلقد انتابتني حالة من الارتياب فقرّرت، على ما أظن، بأنني يجب ألا أفكّر، وألا أضحك أيضًا علمًا بأن كبت الضحك كان من الأمور الصعبة عليّ سابقًا، منذ طفولتي حتى اللحظات الأخيرة التي أذكرها قبل انزلاقي في سرداب الموت ورجوعي من دون أن أشاهده، أو أشاهد ملاكه المتخصص في خطف الأرواح. مع هذا أنا لست عاتبة عليه، فأنا أعرف كم هو منشغل هذه الفترة، لأن السماء مزدحمة بالأرواح الصاعدة، أتخيلها تُحدث ضجيجًا وفوضى وهي تتدافع على أبواب السماء كل منها يريد أن يكون السبّاق إلى احتلال المقاعد الأولى في الجنة، خاصة تلك الموعودة بها بعقد مبرم سابق الدفع بينها وبين الإله...

الأمر الوحيد الذي أوجعني ونبهني حينها، مثل قرصة مؤلمة على خدّ ي، كان صوت الدكتور وهو يقول: الحمد لله على سلامتك يا جهيدة... جهيدة؟ كنت أظن أنني دفنت الاسم منذ سنين عندما فرضتُ على كل الذين يعرفونني أو يتعرفون عليّ أن ينادوني باسمي الذي أحبّ، زيزفون، كان الأمر يغيظني وألوم نفسي كل مرة لأنني لم أعمل على تصحيحه في دائرة النفوس، فقد كان التأجيل دائمًا يجعل الأمر حاضرًا في بالي كنيّة أنوي القيام بها لكن ليس الآن، حتى نسيت، بالأخصّ بعدما لم يعد لدي الكثير مما يضطرني إلى مراجعة الدوائر الحكومية. لكن هذا الغشي اللعين الذي ألمّ

بي للمرة الأولى في حياتي كان السبب في أن جهيدة استفاقت مرة أخرى، جهيدة التي لا أحبها لكنها مقيمة في أعماقي لا تريد أن تفكني منها، كانت تطلّ برأسها دائمًا كلما واجهت موقفًا يحفّز في داخلي رغبة في التحطيم أو التكسير أو الحرق أو أي نزعة أخرى تجاه العالم المسلّح بأشواك تخدشني وتدميني. كانت تقول لي هيّا، ألم تدفعيني إلى حرق أبو طاقة؟ لماذا تخافين الآن أن تقومي بالتكسير كما كانت جهيدة تفعل؟ استثار الاسم عواطفي فألمّت بي مشاعر غامضة لكنها تشبه استدعاء لماضٍ قد يكون بالنسبة لي وهمًا مطَمْئنًا يجعلني متمسكة بالحياة التي بدت عزيزة مع أنني كنت دائمًا أسأل نفسي عندما أشعر بلا جدوى الأشياء: وماذا بعد؟ هذا السؤال كان مثل ملل وشعور بأن حياة خاوية وخالية من أي مُتعة ليست جديرة بأن تُعاش.

أغمضت عينيّ، ورحت أستعيد الصوت في بالي" الحمد لله على سلامتك يا جهيدة". نهض الاسم في كياني كله دفعة واحدة "جهيدة". الاسم الذي ظننت أنه مات مع انقضاء تلك الفترة من عمري عاد مع صوته يجرجر خلفه عمري كله، بل يفتح الأبواب على مخابئ نفسي، ها هو صوت الطبيب يؤكد لي أن جهيدة لم "تمت".

أمي كرهت الاسم الذي أصرّ والدي على إلصاقه بي، أنا المولودة الأولى لديهما، ربما كان أبي ينتظر أن تنجب له "عبلا" أمي ولدًا يسميه "جهاد". لكن جهاد لم يأتِ وجئت أنا بدلًا منه فأصرّ والدي على تسميتي "جهيدة"، أما أمي فلم تقرّ بالهزيمة بالرغم

من أن والدي هزمها بجدارة، إذ لم تكن تلك الهزيمة الأولى لها، ونزل إلى جبلة بعد ولادتي بأيام قليلة وقيدني في سجلات النفوس باسم جهيدة، كان هذا في يوم ربيعي من العام 1958، يوم السابع عشر من نيسان، يوم عيد الجلاء وكنت أشعر بسعادة عارمة في هذا اليوم، ليس لأنه عيد ميلادي فلم يكن أحد يتذكر مناسبات من هذا النوع في ضيعتنا، لكن لأنه يوم عطلة رسمية لا أذهب فيه إلى المدرسة، بل كنت أذهب مع الذاهبين إلى عيد الرابع الذي يصادف في اليوم نفسه أيضًا، وكان الناس ينتظرون هذا العيد كل عام ويجتمعون في منطقة وارفة الخضرة وفيها مياه، يعقدون حلقات الدبكة والفرح فيها، وتوقد النار في مواقد تحضّر لحظتها وتوضع الحلل الكبيرة عليها لطبخ البرغل واللحم، وتنصب أخرى لأجل الشواء وأحيانًا يقومون بتلوين البيض المسلوق، وكان بعض الأشخاص يأتون من مدينة جبلة ويشاركون في الاحتفال أو في بيع بعض السلع اللازمة، ما زلت أذكر كيف كانت الصبايا يلبسن الفساتين الزاهية وكنّ يتوهّجن بفتنة آسرة، بينما الشباب كانوا يحضرون بكامل أناقتهم، وكانت قصص الحبّ غالبًا ما تبدأ من هناك، أو تنتهي في تلك الاحتفالية بأن يقرّر الشاب الزواج من حبيبته فيذهب إلى أهلها ويطلب يدها. بقيت أمي تذكّرني بأنني حرمتُها من الذهاب إلى الرابع يوم ولادتي، وأن أبي قاسي القلب ذهب وتركها وحيدة كي لا يفوّت تلك الفرحة والاجتماع بالناس الوافدين من القرى المحيطة ممتلئين بالحماس والعزيمة، خصوصًا أنه كان شابًّا حينها، وأن الصبايا يلوّنّ الساحات في تلك المناسبة، يغوين الشباب ويوقظن ما غاب منه لدى الرجال الذين

انزلقوا إلى خريف العمر، وربما إلى شتائه، كانت تردّد كلّما اختلفا "أصلًا أنت ما بتحبّ غير نفسك ومفكّر حالك عنتر زمانك، وكل الصبايا والنسوان ميتات فيك، وعامل حالك آغا. بس أنا بعرف البير وغطاه". كانت تذكّره دائمًا، بل تُعيّره بأن ما قام به كان ارتكابًا أخلاقيًّا، "لو كان عندك شرف ما تركت مرتك تولد لوحدها وأنت رايح ورا هواك، تلحق الصبايا وترقص معهن". وكان غالبًا ما ينهرها بصوت مرتفع، أو يقهقه هازئًا.

لم يكن اسمي شائعًا كثيرًا بين الفلاحين الذين يسكنون في محيط المنطقة التي يقبع فيها بيتنا الطيني المكون من غرف ثلاث، إحداها كانت كبيرة بما يكفي لتستقبل عابرين يتوقّفون على الطريق القديم بين اللاذقية والشام، عندما كانت السيّارة أو باصات الهوب هوب تقطعه بسبع ساعات أو أكثر. كان بيتنا يشبه النُزُل، لكنه لم يكن نُزلًا، كان محطّةً لا أكثر، ولا أدري كيف تحوَّل إلى محطّةٍ للمارين ومغارةٍ للحكايات. كان الفلاحون وسكّان الريف يمرُّون به في أثناء عودتهم من المدينة في سيّارة اللاندروفر الوحيدة إلى جانب الباص اللذين كانا يقومان برحلة كل يوم يحملان المسافرين من القرى المتناثرة حول الطريق، من الجبل مرورًا بالسهل، يقضون حاجاتهم في جبلة ويعودون مُحمَّلين بالأغراض التي اشتروها. كان يُفرحهم ويُثير دهشتهم كل ما يُحضرونه من المدينة. لم تكن جبلة بعيدة عن بيتنا، عن النقطة التي يسمونها "المقصّ"، والتي صار اسم بيتنا الوحيد فيها "دكانة أم جهيدة"، الاسم الذي لم ترضَ عنه أمي، ولبسها كما لو أن هناك تواطؤًا سرّيًا بين أبي وبين أولئك الغرباء الذين يعبرون

من دون حتى أن يعلق في ذاكرتهم ذرة من غبار المكان، فقد كانت تنهر الأشخاص الذين ينادونها به إذا كانوا من الضيعة أو الضيع المحيطة وهم كانوا يغيظونها ويتناسون هذا الأمر، فيعودون إلى مناداتها بهذا اللقب كنوع من الدعابة والمزاح. أما العابرون الذين يلتقطون الاسم من أحد الموجودين فكانت تصحح لهم: أنا أم زيزفون يا خيّي. واحدة فقط من بين أولئك المارين، لم تكن عابرة إنما كانت تتردد إلى دكاننا كل حين وكانت أمّي تفتقدها عندما يطول غيابها لأكثر من شهر، كانت تناديها باسمها المجرد من أي لقب، بل باسمها "عبلا"، إنها الحاجة هيلانة، المرأة الغريبة التي لا تشبه نساء القرية ولا حتى نساء المدينة حينها، كان لها طابعها المختلف بشعرها الأجعد الكثيف الذي يلمع من بعيد بلونه الفضي، لم تكن تضع عليه الحناء ولا أي نوع من صباغ الشعر، تصل وهي تميل إلى جنبها الأيسر بسبب قصر ساقها، تحمل كيسًا منتفخًا فيه أغراض كثيرة تفردها أمام أمّي، وكانت بعض نساء القرية يجتمعن عند أمّي في اليوم المتوقّع أن تصل فيه الحاجّة هيلانة كي يتفرّجن على كيس السحر ذاك، الحاجّة هيلانة التي لديها من الفطنة والذكاء ما يجعلها تفهم كل الأحاديث وتشارك النسوة بها بلغتها العربية الركيكة، وأكثر ما كان يضحكني عدم تمييزها بين الضمائر، كانت تخاطب النساء بضمير المذكر، وتحكي عن نفسها بصيغة الغائب. كان انتظار النساء لها عند أمّي، وجلوسهن الطويل أمام البيت على الكراسي المنخفضة أو على الرعش الذي يسوّر البيت يسبّب الدهشة التي تحضر مع الحاجّة هيلانة، الدهشة المختبئة في صرّتها أو الكيس المنتفخ بالأسرار، أسرار ذلك العالم البعيد،

الشاسع المليء بالحكايات والأعاجيب، تصل الحاجة هيلانة في وقتها هي وليس في أوقاتهن، فالساعات كانت تحسب بحسب مزاج الشمس، ومزاج الدجاجات التي توقوق أو حمار ينهق في البعيد، ومزاج المغيب أو الضوء عندما ينكمش وتكرّر الأفواه جملة وحيدة كانت بمثابة إقرار بالوقت "لمّ الضو"، عندما كانت الحاجّة هيلانة تصل تبدأ التهليلات، "يعطيك العافية يا حجّة هيلانة، الله يصبحك بالخير يا حجّة هيلانة، الله يديمك ويستر آخرتك يا حجّة هيلانة"، والحاجّة هيلانة تهرع إلى أقرب كرسي إليها بعد أن تكون النساء جميعهن قد نهضن ودعتها كل واحدة للجلوس في مكانها، "تفضّلي هون يا حجّة، لا. هون أحسن"، وتتبارى النساء بالأيمان، لكن الحجة هيلانة التي يكون قد أخذ منها التعب ما أخذ تهوي فوق أقرب كرسي صامتة تلهث، تلتفت إلى أمي وتناديها: "عبلا، أنا عطشان بدو يشرب أوّل شي، بعدين بيعمل أنتَ شاي وبيشوف أنا الشغلات بالشنتة". فتشتعل الحلقة بالضحك مثلما لو كانت جملتها هي الأعجوبة التي تستهلّ بها سلسلة أعاجيبها المكنوزة. الحاجّة هيلانة التي عرفتُ لاحقًا أنها من تركيا ولقد هربت من المجازر التي ارتكبت بحق شعبها الأرمن، مع من بقوا من قريتها هناك، وكانت حينها صبية مراهقة، آلمني رحيلها، وعادت إليّ صورتها تتحرّش بي في السنوات الأخيرة وأنا أشاهد صور السوريين الهاربين من القصف والموت وأتخيل السوريّات جميعهن الحاجّة هيلانة.

أقعد والدي المرض منذ إصابته تلك، وتغلغل اسم زيزفون في كياني مثل وشم لم يكن ليلوّن أعماقي لولا ما رافقه من ألم، وكان

الألم بدأ يختلط مع أحزان مراهقة تفور في داخلي، كلما استطابت أحزانها ازدادت جموحًا، وكان قد صار لي أخان اثنان وأخت وحيدة، بعد أن كان قد ترك لأمّي قبلها مصير أن تصبح صاحبة دكان ولقبًا حاربت كثيرًا كي تتخلّص منه، لكن الآخرين حاصروها به ولم تملك وسيلة تصحح معها اللقب.

عاد صوته يتردّد في رأسي مرة أخرى: جهيدة، هيا انهضي، ما بك شيء، كل الموضوع أن ضغطك كان قد انخفض بسرعة، كان ينقصك بعض الأملاح وأنت الآن بخير وقلبك متل الحديد. في الحقيقة لم أكن أشعر بأنني في خطر، بل شعرت أنني قادمة من مكان بعيد لكنني لا أملك أي ذاكرة عنه، الذاكرة الوحيدة كانت في صحوة الاسم في أعماقي واحتلاله كياني بصورة مباغتة، لم أفكّر بالموت لحظتها، الموت الذي طالما طلبته، ليس يأسًا، إنما مللًا، يبدو أنه اقترب ولم تكن غيبوبتي غير إنذار منه لكنني لم أفكر به. ما ألطفه، جاء ينذرني قبل أن يخطفني في رحلته البعيدة، أشعر به وبأنه قريب يتخفّى في مكان ما بنوايا طيبة، هذا الإحساس به لازمني بعد أن صحوت من موتي الغشّاش ذاك وبعد أن واجهتني جهيدة وجهًا لوجه واحتلت ساحة وعيي وتشبّثت بماض بعيد كنت أوشكت على نسيانه، بل صرت على يقين من قرب ساعتي، هذا ما ينبئني به حدسي، بالرغم من أنني لا أشعر بأنني مريضة أو أن هناك خللًا ما في كياني، لكنني لم أملك سوى الصمت أمامهم وهم الذين كانوا ينتظرون موتي، أعرف هذا الأمر، بل أكاد أجزم بأنهم ينتظرون موتي منذ مدة ليست بالقصيرة. فليكن، ما همّني؟ أصلًا أنا لا أنتظر لا منهم ولا من الحياة شيئًا، وهذا لا يعني أنني

أكره الحياة أو كرهتها فيما مضى مع أنني كنت أتمنى أحيانًا أن أكرهها، لا لشيء إنما نكاية بنفسي التي لم تكن تعرف تحديد موقفها بالضبط. بودي أن أعتذر منهم على تأخّري في ذلك، فأنا ألمح التذمر في عيونهم وأسمعه في زفراتهم ونبرات أصواتهم، لكن ما أشعر به أعقد من الشرح، لن أستطيع إيصاله إليهم، كما أنني لست قادرة على سماع نفاقهم وهم يتمنون لي طول العمر، ويردّدون كلمات وجملًا كالببغاء، لا أحبّ أن أسمع تلك الجملة الغبية المنافقة: بعيد الشر عنك يا زيزفون، بَعدك صبية، بكّير عليكِ. صبية يا ولاد الخايبة؟ نعم، أنا صبية بنظر نفسي، أمّا بنظركم فأرى سنين عمري مرصوفة متل رعش الحجر ورا التنور الذي كانت أمي تخبز عليه وهي بين نارين، نار التنور ونار صدرها. صرتم حريصين على حياتي؟ أنا أعفيكم من هذه المشاعر النبيلة، وأتمنى أن أريحكم من ثقلها. لم أقل شيئًا، نظرت في عيونهم، في حقل العيون اليابسة المحيط بي وأغمضت عيني.

لقد ملّوا، أعذرهم. أو ربما تعبوا من القلق الذي يسكنهم ويلاحق نبضات قلوبهم، حياتهم صارت كلُّها ترقّب وخوف من الغد، وأنا في المحصّلة لست أكثر من عمة لهذا أو خالة لتلك، أو ابنة حمِ ذاك أو تلك.

عندما كان الدكتور يلمّ أغراضه وأدوات الفحص الطبي مع رشقات من الوصايا، كانت الطائرات الحربية قريبة جدًا، وأصوات محرّكاتها تصمّ الآذان، لمحتها من النافذة وأنا ممدّدة على فراشي، كانت قريبة من الأرض، تستعدّ للهبوط فوق مدرّجات المطار

القريب، مطار حميميم، لو كنت في بيتي هناك، دكانة أم جهيدة، أم زيزفون، لرأيتها وهي تهبط إلى الأرض بهديرها الرهيب، لكن شاء حظي أن يُغشى عليّ وأنا هنا، في بيت أخي برهوم أزور أولاده في إجازتهم.

الغيبوبة التي أخبروني بعد أن صحوت بأنها دامت أكثر من ساعتين، وأنهم تأخروا حتى أتوا بالطبيب لأنهم كانوا على يقين بأنني ميتة، إلى أن صرخ مُتيّم، ابن أخي برهوم، "ما ماتت، شوفوا عم تتنفس"، هي السبب في انزلاقي نحو ذلك الزمن البعيد. قالوا لي كنا قد غطينا وجهك بقطعة من الشاش وانشغلنا بإخبار البقية بالأمر، لكنك عندما صرت تتنفسين وينسحب الشاش إلى الداخل كان متيّم يراقبك وهو أول من انتبه إلى ذلك. هو لم يكن يراقبني، كان يراقب الموت، أو يبحث عنه في جسدي الممدّد على الصوفا بكامل حجمه وصورته، لقد حكى لي فيما بعد عن ذلك الموقف وعن شعوره عندما انتبه إلى تنفّسي كيف جفل بعد أن كان غارقًا في تأمّل الموت على وجهي والأسئلة تطارده وينهشه الخوف معها، سألته عندما حكى لي: ولك عكروت ما زعلت عليّ؟ ما كنت شايف فيني غير الموت والتفكير فيه؟ أكّد لي أنه كان حزينًا لفقدي لكنه كان يريد أن يعرف الموت باكرًا، يمكن لو متّ عن جدّ يا عمتي كنت وقتها بقدر أعرف قديش أنا زعلان عليك. ثم ضحك.

كان الامتعاض واضحًا على وجه بدريّة زوجة أخي برهوم لكنها كانت تداريه أمام البقيّة الذين ملأوا البيت، بل أكثر من ذلك كانت تجهد نفسها كي تظهر شهامتها أمامهم، اقتربت مني ومسّدت

شعري، شعرت أنها ليست يدًا تلك التي تلامس شعري إنما قطعة خشب باردة، قالت لي: يلا جلّسي قعدتك بين ما أعمل لك فنجان قهوة بعدها بتصحي وبيتعدل مزاجك، ما بصير ترجعي وأنت تعبانة لعند عمي، الله يكون بعونه ويتلطّف فيه هو الآخر، والله يا جماعة ما بيستاهل هذا الزلمة إلا كل خير، بس هيك صاير فيه الله يساعده.

صار أبي هيكلًا عظميًا مطويًا على نفسه، أمضى أكثر من ثلاثين سنة يتمنى الموت والموت لا يأتي، وكان عليّ أن أحتال على الأمر بكل الطرق التي أستطيع الوصول إليها، آخذ إجازات من شغلي، ألجأ إلى الاستراحات المرضية، وكنت في كل مرّة أحصل على استراحة مرضية وأنا لست مريضة أقع تحت تأنيب الضمير وأصغر أمام نفسي، لكن صوتًا متواطئًا يحاول تهدئتي يقنعني بأنني لست الوحيدة، ولن يغيّر في الأمر شيئًا التزامي بالقيم والإخلاص للعمل لأن الواقع فاسد لدرجة كبيرة، ونظافتك يا خانم لن تزيل سواده المتراكم بل ستذوب فيه. وعندما لا أستطيع أطلب من مُنيّر المجيء إليه، في الواقع لم أكن أطلب كثيرًا لأن مُنيّر كان يأتي من دون طلب، فهو لا شغل لديه غير العراك مع أمه طول النهار، مُرَيْمة التي أخمّن أنها لم تبتسم مرة واحدة في حياتها، أو قد يكون وجهها فُصّل بهذه الطريقة التي لا يلائمها الابتسام منذ أول صرخة صرَختْها عندما قذفتها أمها نايفة من بطنها وأسلمت الروح، وكانت الكلمات التي تستعملها في حياتها يمكن عدّها وعدّ الجمل التي تصوغها منها، لكن أكثر جملة كانت تردّدها طالما هي مستيقظة، واشحّار جمّتكْ يا مُرَيْمة، الله يلعن أبو هالعيشة إذا ما

عيشة الكليب أحسن منها. كان بيت مُرَيْمة أقرب البيوت إلينا، تلك البيوت الطينية أو الأخرى المبنية بطريقة أكثر حداثة، من الحجر، في طابق وحيد، الصامتة اليوم صمت الجنازات والقبور بين الأبنية الطابقية التي أخذت تلتهم المكان وتقضم بساتين الليمون وكروم الزيتون والتين وأشجار الدلب والصفصاف والبطم والزعرور، بعد أن توسعت مدينة جبلة ودخلت هذه المنطقة في المخطط العمراني الجديد، بيوت لا تستطيع الالتقاء فكل واحد منعزل في صمته ووحدته متروك للوحشة أو لصفير الريح بعد أن هجره أصحابه ولبّوا نداء المدن، أو ينتظر دوره لأن يُسوّى بالأرض عندما تحين الفرصة ويستطيع مَن بقي مِن سكّانه إشادة بناء كبير محلّه، أو عندما يحظى بالمشتري المأمول. جيء بمُرَيْمة عروسًا منذ أكثر من خمسين عامًا، أذكر ذلك اليوم، كان عمرها ستة عشر عامًا، إلى بيت بو عيسى، كان أهلها يسكنون في الجبل الذي يسمّونه الشعرا، كانت الشعرا تعني أبعد مكان وأكثر نقطة ارتفاعًا، بل كانت تعني أنها آخر الدنيا، وكان أبو عيسى رجلًا قويّ البنية، لديه قطعة أرض صغيرة قريبة من الساقية مزروعة بالزيتون وفيها حاكورة يزرع فيها بعض الخضار، بقي بوعيسى يعمل في الأرض آملًا أن يساعده أولاده الشباب بعد أن يكبروا، لكن الشباب لم تقنعهم الأرض ولم يهتمّوا بالعمل فيها، كانوا يهزؤون من والدهم مردّدين: تريدنا أن نكون مثلك؟ نفلح الأرض خلف الفدّان والصمد ونشوى تحت الشمس حتى نجلب في آخر السنة كم تنكة زيتون؟ والله ما حزرت يا بوعيسى. وترك أولاده الأرض والضيعة وراحوا يشتغلون عمالًا في معمل الكونسروة والغزل والألمونيوم، المعامل التي أنشئت

في السهل على مشارف جبلة وقريبًا من الضيعة والتهمت أراضي زراعية شاسعة قبل أن تجثم كالوحوش في ذلك الفضاء. أما عيسى الذي تزوج من مْريْمة فلم يطل به الوقت حتى راح يعمل في معمل المحركات بعد أن أنجبت مْرَيْمة وليدها الثالث.

كان مْنيّر الولد البكر لعيسى ومْريْمة وتتالت بعدها الولادات حتى صار البيت يعج بالأولاد، البيت المكون من ثلاث غرف مصطفة تساند بعضها البعض، ظهرها إلى الشرق ووجهها إلى الغرب، إحداها فقط مبنية من الحجر هي غرفة العرسان التي بناها بو عيسى من أجل زواج ابنه، أما الغرفتان الأخريان فكانتا غرفتي الطين اللتين تفتح إحداهما على الأخرى، بسقف من الجذوع المتراصّة والطين تتدلى منها شناكل كبيرة من الحديد لتعليق القنديل وتعليق سلّة الخبز وغيرها من الطعام المبيّت لليوم التالي، وكانت الأفاعي يطيب لها الالتفاف على تلك الجذوع والنوم في دفئها. لم تلتفت مْرَيْمة إلى بلادة بكرها مْنيّر إلاّ متأخّرة، كان قد أصبح لديها ثلاثة أطفال، بِنت بعده ثم صبي ثانٍ، فلم يكن لديها الوقت لتنعم بطفولة أولادها أو حتى الاهتمام، ولم يكن الطفل حدثًا خاصًا، بل هو حدث حتمي يقع بعد الزواج ترضعه أمه ثم تلقيه على الأرض فوق حرامٍ بالٍ، أو فوق قطعة من اللبّاد، وأحيانًا كثيرة فوق رماد الموقد المطفأ كي يبول عليه.

كبر مْنيّر وهو يطارد الأفاعي، يسرح في البريّة وينكش أوكارها، ويحيط العقارب بالنيران مستمتعًا برقصتها ضمن دائرة النار. لم يحتمل الذهاب إلى المدرسة تحت الضغط والوعيد والشتائم

والتصغير وأحيانًا الضرب، إلّا لغاية الصف الخامس الابتدائي بعد رسوبه في ثلاثة صفوف، وبعدها انطلق في البريّة متّخذًا قراره بحزم لا يُكسر، عجز عن ردعه أبوه وأخوته، خاصّة بعد أن ظهرت عليه علامات البلوغ باكرًا، وأصبح صوته يهز جدران الطين عندما يغضب، صار ينطلق منذ الصباح الباكر بيده رغيف ومعه قرص شنكليش أو رأس بصل يابس، وأحيانًا يدهنه بقليل من الزيت ويرش فوقه الملح ويغادر يلتهم الرغيف على الطريق، يدخل الأحراش ويختفي بين أدغال الديس أو البلّان أو النباتات الشوكية الشامخة، يعرف كيف يكتشف أوكار الأفاعي وكيف يستدرجها للخروج ثم تبدأ معركته معها، يفتح فمها وينتزع نابها الذي يحقن السم في جسم الفريسة، ثم يلفّها على عود ويراقب حركاتها المتموجة وهي تتلوّى على العود منتشيًا بمنظرها، وكان يضع فراخها أحيانًا في علبة معدنية تستخدم في العادة لحفظ التبغ المفروم وحمله من أجل الاستهلاك الشخصي، قبل أن يعتاد الناس على علب السجائر الجاهزة، كانوا يُسمّونها طبقة الدخان، وكان ينتشي من الفرح وهو يفاجئ الصبيان الآخرين بها، بعد أن يكون قدّم لهم العلبة كي يدرجوا لفافة تبغ منها، إذ يرى ردود أفعالهم وهم يجفلون ويرمون العلبة بعيدًا، ثم يبتعد عنهم مزهوًّا بتفوقه عليهم وهو يهزأ من جبنهم.

ما كان يريحني في تلك اللحظة، عندما ذكّرتني بدريّة بأبي المتروك وحيدًا في الضيعة، أنه لن يكون وحيدًا، فأنا أعرف تمامًا أن مْنيّر سيكون عنده، بل سيدخل عليه ويخرج عشرات المرات، لأنه لا يستطيع احتمال البقاء لمدة طوَيلة ضمن البيوت، مْنيّر ينتمي

إلى البريّة وكائناتها ومخلوقاتها، ولأنه ينتمي إليها فهو يعيش حبّه الأشياء أو الأشخاص من دون همّ التفكير. مهما خرج إلى البريّة سيبقى في ذاكرته شيء يجعله يعود ليتفقد أبي، فيه شيء من طبع الكلاب.

لم أمت. لكن الموت حضر أخيرًا إلى وعيي وصرت أفكّر فيه، حضوره دفعني إلى السؤال الذي تأخّرت في طرحه على نفسي، تأخّرت كثيرًا على ما أخمّن، ماذا أريد من الحياة؟ ليس ما أريد الآن وأنا زيزفون التي تخطّت عتبة الستين، بل من الحياة بالمطلق. هل تأخّرت بالسؤال وبات صعبًا عليّ تحديد الأمر؟ قدحت في بالي فكرة بينما الآخرون كانوا يملؤون البيت من حولي مرتبكين أمام هذا الحدث الغريب، غير المفرح بالتأكيد، حدث عودتي إلى الحياة من جديد وهم الذين كانوا يستعجلون موتي ويهرعون إلى ترتيب ما يلزم هذا الموت من دموع مؤجّلة لتلك اللحظة وطقوس دفن سريعة عملًا بمبدأ إكرام الميت في دفنه. فكرة كالتماعة أنارت زاوية عميقة في خلدي وأخرى في صدري، قرّرت أن أدوّن كل ما تجود به الذاكرة من الآن فصاعدًا، وكانت ذاكرتي في تلك اللحظة تومض مثل الزيز المختبئ بين الأغصان ليلًا، ذاك الذي كنا نسمّيه "بصبوص الليل" لم أكن أعرف يومها أن هذا الضوء الذي كان جزءًا من طبق الجمال المفرود أمامنا في مساءات الصيف هو العضو التناسلي لهذا الكائن الصغير، ينادي على شريكه ضوئيًا من أجل وصالهما، ازداد إعجابي بعدها بهذا الكائن الليلي الذي يمنح الحبّ هذا الجمال.

قدحت الشرارة في بالي وعزمتُ على الكتابة، لا لشيء، وإنما للإمساك بالذاكرة قبل أن تذوي وتغور كما الماء في رمال العمر، ولأبحث عن سؤالي المؤجّل ربّما ألاقي جوابًا متأخّرًا له. المهم أن أكتب، ماذا أكتب أو عمّ سأكتب؟ لا يهمّني أريد أن أحكي الحكايات لنفسي فأبدّد وحشتي في هذه الأوقات المربكة والعصيبة، وأطلّ على حياتي الماضية كنوع من السلوى بعد أن فقدت السلوى ومات معها كل شيء جميل، فلا الزمن بقي زمنًا، ولا البلاد بقيت كالبلاد، لم يبقَ إلّا هذه الحياة العدمية تقضم الأيام وتبتلعها إلى جوف مظلم بانتظار لا شيء، نعم يا زيزفون، لا شيء أبدًا يختبئ في قادم الأيام، ولا حتى في حاضرها، ما أبشع هذا العدم.

*

من الدفتر

يا بغداد ثوري ثوري

كنت في الصف الثاني الابتدائي، وكنت خائفة وأعظم حلم يشغلني بلهفة، أن يأتي أبي ويأخذني إلى البيت بدلًا من التجمّع مع رفيقاتي ورفاقي في المدرسة ومع أطفال الضيعة والقرى المجاورة، الذين يتجمّعون في تلك الآليّة العجيبة التي يسمّونها "طرطيرة"، كانت شيئًا بين الدرّاجة والسيّارة، تسير على عجلات ثلاث واحدة أمامية واثنتان خلفيتان، وكان جزؤها الخلفي مثل صندوق معدٍّ لتحميل البضائع أو المواشي، وكنا نتجمع في ذاك الصندوق، نحن الأولاد، الذين يذهبون إلى المدارس في جبلة صباحًا، مضطرين للاستيقاظ مع صياح الديكة.

غربة ووحشة وخوف ومشاعر لا أفهمها ملأتني وكنت مفصولة إلى اثنتين، إحداهما كانت تردّد بحماس مع القطيع الهادر: يا بغداد ثوري ثوري خلّي عارف يلحق نوري. وكنت أشعر بالغيظ وأشتم عارف ونوري في قلبي. لم أكن أعرف من هما، ولا يعنيني أن أعرف أكثر من أنهما ارتبطا بخوفي وجعلا انتظاري والدي يطول، مثلما تأخّرت الطرطيرة أيضًا. وأخرى تلوذ بنفسها في مواجهة الخوف الذي تكوّر في قلبها ولا تعرف ماذا تفعل.

كانت الساحة أمام السراي مفروشة بالبشر وكأن جبلة مع ريفها اجتمعت هناك، وكان بعض الرجال يقفون في الأعلى، فوق المصطبة التي يلتقي عليها السلّمان الحجريان الصاعدان إلى مبنى السراي، وكان هناك شخص يتكلّم بحماس وبصوت عالٍ أشبه ما يكون بالصراخ المبحوح، لم أكن أفهم ما يقول، لا أعرف من هي الرجعية التي يشتمها ويتوعّد بالقضاء عليها، ولم أعرف أين توجد أذناب الاستعمار، وكانت الغصّة تخنقني ولا أعرف إن كان صوتي يخرج ويذوب في هدير الأصوات، وإن كنت أحثّ بغداد لأن تثور وتجعل "عارف" يلحق بنوري، أم كنت أصرخ على والدي علّه يأتي ويخطفني من هذا الرعب.

زاد بخوفي رؤية تلك المرأة البدينة الضخمة التي كانت تزاحم الجموع، وكان الأطفال يخافون منها، كان اسمها "حزامى" يقولون عنها "مجنونة"، وحزامى المجنونة كانت ثورية أكثر من الجميع، ولم تكن لتفوتها مناسبة إلّا وتكون نجمة المظاهرات التي راحت تزداد وتيرتها، بعد أن كبرتُ عرفتُ أنها مسيرات تخرج بأوامر

حزبية تشارك فيها كل مؤسّسات الدولة ودائمًا يجب أن يخرج التلامذة في كل المراحل الدراسية. وكانت حزامى مصدر رعب لنا نحن الأطفال، لكثرة القصص والحكايات التي كنا نسمعها من الكبار عنها وعن أي فرد مختلف، حتى إن حكاياتها كانت تصل إلى بيتنا في المقصّ وكانت من الطرائف التي يحملها العائدون من جبلة في جعبهم. كانت حزامى تصرخ بأعلى صوتها وتردّد الأغاني القومية، وترفع يديها عاليًا تلوّح باتجاه المنصّة وتنادي: أمين. أمين.. وتضحك تلك الضحكة البلهاء، بل كانت تغمز بعينها أيضًا وقد غرزت وردة حمراء في شعرها تبدو كما لو أن ألوانها قد انحلّت مع العرق الغزير السابح على وجهها وصبغته باللون الأحمر. كان أمين الحافظ رئيس البلاد، الذي ليس وحده من توهمت حزامى أنه مغرم بها وجاء ليخطبها، يقف على المنصة بجانبه عدة أشخاص، عرفت بعد أن كبرت أنهم كانوا أمين الشعبة الحزبية ورئيس البلدية ومدير المنطقة.

ماذا كنت أعرف حينها عن جبلة أكثر من ذاك المبنى الذي يُدعى السراي، أمامه الساحة التي تلتقي الجموع فيها أيام المظاهرات، ومدرستي الابتدائية التي كان اسمها مدرسة الأيّوبية؟ كم كنت أحب شجرتي الصنوبر في باحتها الأمامية إلى يمين المدخل، وارفتي الظل حيث كنا نجلس، نحن الصغيرات، تحتهما كلما سنحت لنا فرصة بين درسين، وكم كنت أخاف من همجية الصبيان في أثناء انصرافهم من المدرسة، عندما كنا نتبادل أوقات الدوام معهم. كان الصبيان ينفلتون من باب المدرسة كقطيع محبوس يتدافعون ويتضاربون ويتقاذفونْ بحقائبهم، يصرخون يشتمون

بعضهم بعضًا، يضحكون ويتضاحكون، ونحن الفتيات نلزم الحيطة والحذر ونتنحى جانبًا تملؤنا الرهبة من انفلاتهم الصاخب ذاك، وكانت أمّي وأمّهات رفيقاتي من الضيعة يحذّرننا باستمرار بأن نبتعد عن التجمعات وعن الصبيان، وألّا نقبل دعوة رفيقاتنا من بنات المدينة إلى بيوتهن، ولم نكن نعرف لماذا غير أن ذلك أمر يجب التقيّد به لأنه يخفي مخاطرة ما، بينما كانت مديحة لا تخاف شيئًا، وكانت تبهرني بجرأتها وشجاعتها اللتين كانتا بالنسبة إليّ حينها نوعًا من التهوّر يكاد يكون تخطيًا لكل الممنوعات التي كانت تتلى علينا. مديحة البنت الشقراء ذات العينين الزرقاوين لم تكن تخاف الصبيان، بل كانت تناديهم بأسمائهم وتصرخ بهم، وتدعوهم للّعب وتتحدّاهم بالجري، وكانت تصادق كل بنات الصف وتذهب معهن إلى بيوتهن مع أن لها أقارب في الضيعة لكنها ابنة المدينة، عاش والداها منذ زمن فيها، كنت أغبطها في سري وأحلم أن أمتلك بعضًا من شجاعتها. إضافة إلى مدرستي ومبنى السراي، كانت هناك مدرسة الصبيان الكبار بباحتها الكبيرة التي يشي باتساعها السور الطويل الذي يحيط بالمبنى الضخم المطل بواجهته على جهة السراي، يفصلهما مبنى البلدية وحديقته، تتدلى منه أغصان النباتات المتسلقة وأزهار متنوعة ألوانها كانت تخلب عقلي، خاصة نبتة المجنونة بلونها الصارخ. كان مدخل الثانوية واسعًا تعلو بابه الحديدي لافتة على شكل قوس مكتوب عليها "ثانوية بني جبلة".

لم يأتِ والدي في ذلك اليوم الهادر بالهتافات وتهديد الرجعية الجسورة التي بدا لي أنها لا تخاف، بل كانت تمدّ لسانها هازئة

بذاك الحماس المندفع كغازات محبوسة من فوهة ضيقة. انفرط الجمع وتبدّدت تلك الكتلة البشرية التي ظننت حينها أن الأرض خلت من سكانها في الأصقاع كلها، وتجمعوا في الساحة التي كنت أتعرق فيها وأحاول الابتعاد عن حزامي خائفة من حماسها، ومثانتي تؤلمني حتى أوشكت على التبول في سروالي وافتضاح أمري، وهي لم تكن تأبه بأحد، كان العالم كلّه لها، كانت تبدو كما لو أنها الوحيدة ترتفع فوق الجموع. ولحقتُ بالتلامذة الصغار حيث مشوا، كانت المعلمات يجمعننا نحن البنات، والمعلمون يجمعون الصبيان، كانوا يعزلوننا عن الصبيان، وبرغم قلقي وانتظاري اليائس من مجيء أبي، سجلت ذاكرتي تلك الإشارات الموارِبة التي كان المعلمون والمعلمات يتبادلونها.

بتتذكري يا بنت؟ كان أبي شحيحًا بعاطفته، لم أجرؤ على سؤاله مساء عندما رجعت بالطرطيرة مع باقي أولاد الضيعة الراجعين من المدارس، لماذا لم يأتِ ليأخذني؟ اكتفيت بالشكوى إلى أمّي. أمّي؟ لم تكن جاهزة في كل الأوقات لخوض جدال معه، إذ كانت تعرف أنها ستخسر في النهاية حتى لو اعترضت واحتجّت وعلا صوتها. أمّي كانت دائمة الخسارة، لكنني لا أعرف إن كان أبي دائم الربح.

بالحقيقة يا زيزفون، بعد كل السنين التي مرّت، وبعد أن صار في هذا العمر وتلك الهشاشة، لا تستطيعين الجزم بأنه بالفعل كان شحيحًا بعاطفته، أم إنه كان يريد منّا أن نواجه الحياة بمفردنا لنتعلم منها، فكثيرًا ما سمعته يتحدث إلى الساهرين

الذين اعتادوا أن يأتوا باكرًا كل يوم ليسهروا أمام البيت صيفًا أو في الغرفة الكبيرة شتاء، فيقول لهم إنّ على الإنسان أن يرمي نفسه في الحياة لأنه بذلك ينشغل عن التفكير بنفسه التي كلما غاص في التفكير بها تعمّق شعوره بالتعاسة، وهو لا يحب أن يكون تعيسًا، هكذا كان يضمن حصّته من السعادة كما كان يظن. لكنني الآن أخمّن أن أبي لم يكن سعيدًا، كما أنه لم يكن تعيسًا، كان يضمر فلسفة ما في نفسه، وكان حماسه للقضايا التي راهن عليها يضطّرم في صدره كما لو كان في قاع سحيق لا يشرك فيه أحدًا، لكنني أخمّن أن هناك امرأة واحدة ووحيدة كانت مخزن أسراره ومحراب عواطفه، ميمونة التي كان يلاقيها في الكرم أو في البرية، وكانت أمي تعرف أنها سبب هزيمتها الكبير.

ما زلت أذكر كيف انتهى ذلك اليوم، بعد وصولي إلى الضيعة وصمت هدير الغاضبين، عادت الكلمات تطرق رأسي من جديد، والمشاهد التي ظننت أنني لم ألاحظها بسبب خوفي وقلقي من تأخّر والدي أو تأخّر الطرطيرة، لكن تبيّن لي أن رأسي الصغير ذاك كان أمهر منه اليوم، بالرغم من كبره، في التقاط المشاهد والصور وكل المؤثرات ليحتفظ بها. أتذكّرها أكثر بعد أن عشت لأشهد على ما حدث لبغداد ودمشق.

ليس لديّ ورثة يعنيهم أن يعرفوا حكايتي، ولست معنيّة أيضًا بالاعتراف أمام أحد بعالمي السرّي الذي كان شأنًا خاصًّا، ليس لأنني حرصت طيلة عمري على الكتمان، بل لأن الحياة كانت تجرفهم جميعهم بعيدًا عنّي، حياة تحترف النداء، وكنت أتوغّل في

أدغال حياة أخرى ملبّية نداءً لا أدري إن كان وهمًا أم حقيقة، كنت أسمعه بمفردي؟ لذلك لن أقوم بكتابة مذكّراتي ووصيّتي الأخيرة بأن يحرقوا جثتي بعد وفاتي ويذروا الرماد على سهوب ضيعتنا، وحول البيت الذي أسكنه وبقربه ما بقي في ذاكرة من عاصروه وكان يسمّى "المقصّ"، أو دكانة أم جهيدة، كما فعلت ميريل ستريب في الفيلم الذي شاهدته ثلاث مرات "جسور مقاطعة ماديسون". فأنا لم أتزوّج ولم أنجب، لكنني عشت. نعم عشت وليست غيبوبتي التي دامت ساعتين سوى دعوة لي كي أستعيد الحياة التي عشتها وأدير سجالًا معها، وبما أنني لم أواجه نفسي بسؤال كهذا من قبل، ولا أعرف إن كنت على خصومة معها، قرّرت أن أذهب أنا إلى الماضي بدلًا من دعوته إليّ، سأسجّل حكاياتي، وبعد أن أنتهي منها سأحرق دفاتري وأذرو رمادها فوق ظلالها النائمة على الحجارة وشجرة الزنزلخت التي شاخت، وعلى تخوم الوادي الذي تتعرّج فيه الساقية التي صارت شحيحة اليوم حتى الضفادع هجرتها، بل صارت أرضًا جافة لا تشرب النباتات الحرجية فيها إلّا من ماء المطر، كما كلّ شيء حولي، حيث أشجار الدلب تمدّ أغصانها مثل مظلّة كانت تتواطأ معنا، أديب وأنا، فتسدل أوراقها ستارًا نختفي تحته ونسترق قبلة كانت أعظم إنجاز قمنا به في ذلك الوقت، مع قليل من المداعبات التي كانت ترمينا في نشوة مبهجة، وعلى ما بقي من الرعش الحجري الملتف على شكل قوس كان يحيط في ذلك الزمن البعيد بالتنّور الذي أمضت أمي كلّ عمرها تقف أمام لهيب فوهته، تلصق بيدها المختبئة في جوف الكارة، التي مدّت قرص العجين فوقها، الأرغفة على جدران جوفه وتمدّ

يدها إلى طاسة الماء على يمينها، تغرف حفنة ماء وترشّها في جوف التنور، وبعد قليل تلتقفها ناضجة، تفردها فوق مصطبة التنور الطينية، ثم ترتّبها في الميزر المفروش على طبق القش، تطويه فوقها لتغلّف الأرغفة به، وتخبّئها في النمليّة الموضوعة في عمق الغرفة الكبيرة، لتقدّم الخبز الملفوف بالزبدة والشنكليش مع كؤوس الشاي أو الزوفا للمسافرين الذين صاروا يتوقفون دائمًا أمام استراحة المقصّ ليأكلوا من عند أم جهيدة، جهيدة الاسم الذي تكرهه أمي. كنت أشعر بالتعاطف تجاه الكلبين شيّال وعنتر، وهما يقفان قريبًا يلوّحان بذيليهما بينما أمي تنهرهما بصوت عالٍ وتقذفهما بكلمات تصفهما بالنجاسة، كان ممنوعًا على الكلاب الاقتراب من أماكننا الخاصة، أو تخطّي عتبة البيت مع أن الكلاب كانت ضرورية في كل بيت، وكنت عند التنّور أغافل أمي وأرمي لهما رغيفًا أقسمه بالتساوي مع أن شيّال كان بدأ يشيخ وكنت أتعاطف معه.

ما أجمل تلك الأماسي، الآن بعد أن داعبني الموت انتعشت في خاطري مثل حبقات أمي التي كانت ترشرشها بكفّيها بعد أن تسقيها فتغرف بخفة حفنة من السطل وتنفض يدها فوق الحبقة وتداعبها فتفوح الرائحة لتختلط مع رائحة العبيتران والقرنفل والفلّ البلدي، ثم ترشرش الماء فوق الأرضية المتربة تحت العريشة وأمام البيت أو الدكان، دكان أم جهيدة، حيث كانوا يتوافدون مساء، ولم يكن لديهم مشكلة مع الزمن والوقت، يبدِأون سهراتهم باكرًا، بالنسبة إليهم يبدأ الليل عندما ينسحب الضوء، عندما يقولون: لمّ الضو، يعني أن النهار انتهى وانتهت

معه أعمالهم في الأرض وما تبقّى من اليوم صار للترويح عن أنفسهم وأجسادهم المتعبة، يبدّدون الكثير من الساعات يعيدون الحكايات نفسها، والأخبار ذاتها، ويسألون نفس الأسئلة متوقّعين كل مرة أن يتلقوا إجابات جديدة والإجابات تتكرّر ويتكرّر اقتناعهم بها. كانوا يصدّقون أي أمر، ويبهجهم سرد البطولات الخارقة مهما كانت المبالغة فيها تستخفّ بالعقول. وكان الصمت المتلهّف لسماع أي أخبار أو التقاط أي أمر غير مألوف يستبد بهم كلما توقف باص أو سيارة أمام الدكان ونزل منه المسافرون، عندما كانت أمي تنهض لتقوم بإعداد لفائف الزبدة والشنكليش، وأبي يهرع إلى إبريق الشاي الكبير المحطوط على المنقل، يجيش الماء فيه مصدرًا صوتًا رتيبًا كان يحشرنا في عالم النوم.

لكن، لماذا كلّ هذا الحنين يا زيزفون؟ أنتِ قلتِ إنك ستدوّنين كل ما تجود به الذاكرة من الآن فصاعدًا، أنسيتِ؟ لا، لم أنسَ، الحنين سيجرفني بعيدًا إلى دوامات قد أغرق فيها، وأنا لا أريد ذلك، أريد أن أفرد حياتي أمامي وألعب. سأقاومه قدر ما أستطيع ولو أني لست واثقة من مناعاتي أمامه في كل لحظة، إنه الماضي يا زيزفون، الماضي الذي يمسك بسنواتي الستين مهما حاولت الانفلات منه، سأحاول، أعد نفسي بهذا.

2

يقولون إن هناك إشارات تأتي دائمًا من عالم الغيب والشخص النبيه يلتقطها، لم أؤمن بهذه الأقوال، لكنني متأكدة من أن مناداة الطبيب لي جهيدة، في تلك المصادفة غير السعيدة، هو ما جعل الذاكرة تتدفق منهمرة كشلال، عدا أن الغيبوبة التي دخلتها وعودتي إلى الصحو بعدها كانت كإنذار أو دافع إلى التفكير بالموت مرّة أخرى، فأنا برغم مللي من الحياة أحيانًا، لم أكن أفكّر بالموت سوى كاستدعاء غرير ينشلني من الملل، إنما الموت كحالة مربكة وغامضة جديرة بالتفكير لم يكن من اهتماماتي. لكن الموت الغشّاش الذي اختطفني، وأربكت عودتي إلى الحياة بعده أولئك الأشخاص الذين تحلّقوا حولي وكانوا يضمرون رغبة سرّية في موتي، هو ما حفّز لديّ العزيمة على تسجيل ذكريات، لا لشيء إنما لإحساسي بأن إمساك تلك الذاكرة التي بدت جامحة أكثر من عادتها سوف يمدني بأدوات اللعبة التي عزمت على لعبها. اللعب مع "أنا" المتشكلة خلال عمري لأفهم الحياة حتى لو كان فهمها لن يفيدني بشيء وأنا في طريقي إلى الموت، لكن لا بأس، ربما تسلّيني هذه الذكريات بعد موتي فأنا لست واثقة من أن كل شيء يموت مع الموت أو ينتهي، فمن المحتمل أن تكون هناك استمرارية ما، كنت أسمع حكايات في السهرات المتكررة في بيتنا الذي كان فيه دكان أم جهيدة، عن التقمّص، عرفت فيما بعد أن تلك الحكايات التي يروونها مع الكثير من التشويق والغرابة والتسليم بأنها حقيقة

ويقولون عنها تجييل، هي عن التقمّص، خاصّة حكاية وجيه بن حمدان صقور الذي بدأ يحكي عن عالم آخر بمجرّد أن تعلّم النطق وتركيب الجمل، ثم اتضح لهم فيما بعد أنه يحكي عن حيفا وكيف قتل هناك ببندقية جندي إسرائيلي عندما راح مع جيش الإنقاذ ليدافع عن اغتصاب فلسطين، وكانوا يعيدون الحكاية ولا يملّون منها حتى حفظتها، كان أبي يصمت أحيانًا أمام بعضها ويبدو عليه الضيق من المبالغة وسرد الحكايات التي لا يمكن للعقل تصديقها مؤمنين بأنها حقائق، وأحيانًا كان يحاول إيصال فكرة ما إلى عقول السهّيرة، خاصة إذا كان من بينهم من يريد الفهم أو يطرح الأسئلة المستفزة، كان يقول: يا جماعة الموت هو باب يلج من خلاله الشخص إلى الحياة الأبدية، صحيح الجسد يتحلل تحت التراب وتأكله الديدان، لكن روحه تعبر برزخًا كان يفصلها عن الأبدية، حتى إن الإمام علي كان يقول أيها الناس إنّا خلقنا وإياكم للبقاء لا للفناء، لكنكم من دار إلى دار تُنقلون. وكنت أواجه هذه الحكايات في سرّي وأنا أسمعها بينما أكون مستلقية مع بقية إخوتي على الحصير المفروشة في الزاوية العميقة للغرفة الواسعة حيث تمتلئ بالساهرين كل يوم، أسمع الحكايات وأخزّنها في بالي على أمل أن أفهمها لاحقًا، كما كنت أتشوّق لسماع الحكايات وأغفو كل يوم فوق الحصير على وقعها.

وربما أيضًا أكتشف أمرًا أو لغزًا طالما استعصى علي وازداد غموضًا والتباسًا كلما تقدم بي العمر، ربما أكتشف لماذا تصبح الحياة بلا وعد عند محطّة ما من العمر؟ عندما اقتربت من الستين بات هذا الأمر يشغلني، ويحاصرني سؤال الماضي والبحث بين طيّاته عن

الوعد الذي كنت أسعى إليه فيما مضى. حقيقة لا أعرف إن كان موجودًا، لكنني أعرف أن الماضي كان متخمًا بالنسبة إليّ بالأحداث التي جعلتني أعيش في فضاءين أو عالمين، فضاء ملكي وليس ملكي، وآخر ليس ملكي لكنه أصبح لصيقًا بي، بينهما ربما كان وعد الحياة لي يتلطّى خلف أبواب كان فتحها شاقًا وما أفضت إليه لم يكن دائمًا، أو غالبًا، جديرًا بالعناء من أجله. لكن الحياة مشت، أو أنا سرت في أدغالها، أو إن عمري تراكم في ظلال الوعود.

بداية عزمت على ألّا أندم، فالندم بحد ذاته أمر عدمي ولن يقدّم لي أي فائدة، وهذه قناعة توصلت إليها باكرًا، قناعة أن ليس هناك لحظة يمكن أن تتكرّر حتى أنتظر فرصة تصحيح أخطاء قد لا تكون أخطاء، فمن يستطيع الجزم بوجود حدّ فاصل صارم بين الخطأ والصح؟ الحياة لا تُعاش بمنطق الرياضيات، لها منطقها ولها مزاجها الذي لا يعنيه إن كان يلائمني أم يعاكسني، ثم إن كان الزمن يحوّل الأخطاء إلى حجارة، كما قيل، يمكنني تحويل هذه الحجارة إلى منحوتات جميلة، فنحن لا ننتهي أبدًا من ارتكاب ما يسمّونها أخطاء طالما ما زلنا نعيش، لم أكن أحدّث أحدًا عمّا يجول في خاطري ولم أكن اطرح أسئلتي بعد حادث أبو طاقة إلّا أمام سعيد. عدا الندم الذي قررت إقصاءه عن نفسي، لم أشعر بأنني أخجل من ذاكرة كنت قد نسيتها واستفاقت نشطة فعالة، لكن ما الجدوى؟

لنقل ليس هناك من جدوى سوى اللّعب، فأمام هذا الجنون والحياة العابثة لا أملك أكثر من اللعب، أووووف... ما معنى كل

ما يجري؟ لو كنت عارفة أن الحياة في هذا البلد ستؤول إلى ما آلت إليه يمكن كنت سأبحث عن بدائل. لكن ما هي البدائل يا ست الحسن؟ ماذا كنت ستفعلين أكثر مما فعلته خلال عمرك الماضي، غير أن تعودي مثلما أنت الآن عائدة إلى بيتك الوحيد القابع مثل تائه يخاف من ترك مكانه كي لا يضيع أكثر، تعيدين الحكايات وتضحكين بدلًا من أن تبكي؟ أبكي؟ لا، لن أبكي. هذه الحياة بنت كلب ولن أجعلها تلمح دموعي سأعيد حكاياتي على كل النساء اللواتي يسكنّ في داخلي، على كل واحدة ظنوها تعيش خيبتها وهي التي كانت تضحك من خيباتهم. يا لطيف، أولئك الرجال ما أصغر عقولهم، وما أضعف مناعتهم، أصلًا هم يدارون هشاشتهم وانهيارهم أمام غرائزهم بكل ما أوتوا من قدرة على العنف والقتل وافتعال الحروب والعدوان. كلهم يا زيزفون نسخة طبق الأصل عن القاتل الأول بالتاريخ، القاتل الذي فتنته الملكية وظنّ نفسه الإله الوحيد الذي نزل إلى الأرض وبيده المقادير.

سأعود إلى البيت، سأركب السرافيس وأحشر نفسي بين من يُحشرون حتى لو تضمّخت بعرقهم وروائح أجسادهم، لولا هذه الحواجز اللعينة كنت سأصل أبكر، أريد أن أصل وأفتح دفتري وأعيد تدوين حكاياتي، سأبحث بينها عمّن منحني سببًا للعيش، أو عمّا منحني أسبابًا لتكون الحياة بنت الكلب هذه جديرة بالتحدي الذي لويتُ عنقها به، وسألوي عنق الموت، ما بقي من هذا العمر القصير مهما طال سيبقى من حقي، ولتذهب الحرب إلى الجحيم هي الأخرى، إنها حكايتي، حتى لو لم يبق زمن إلّا للحكايات الكبرى. لا أبحث عن أدوار مهمّة أو غيرُ مهمّة، ولا يهمّني أن يكون لي

دور في تغيير العالم بمروري في الحياة، أريد حياتي وحدي حتى لو وجودي وعدمه هما الشيء نفسه، فمن قال إني أبحث عن بريق أو نجومية؟ يكفي أنني غصت في الحياة حتى القاع ولمست ما لا يتمكن غير القليلين من لمسه، بلى، لقد لمست القاع وعرفت حرارته وخشونته وتضاريسه وكهوفه ومنزلقاته، وأهم شيء عرفت أسرارًا ظنّ أصحابها أنهم دفنوها ولن يستطيع جنيّ أن يكشفها أو يعرضها للضوء. أنا تلك الجنية، نعم، أنا زيزفون يا ولاد الخايبة.

أنا زيزفون التي خلعت عنها جلد جهيدة منذ ليلة الحريق وراحت تطارد سؤالًا كان يبدو مرّات صغيرًا ومرّات كبيرًا يبتلعها في دوّامته، نعم حرقت المزار أبو طاقة في تلك الليلة الخريفية التي فارقها ضوء القمر ولفّتها العتمة وكانت كل مخلوقاتها كأنها في سبات، لم يكن غيري وأشباح الليل ومزار أبو طاقة المحروس بجنيات الليل. عندما قدحتُ عود الكبريت وأشعلت طرف الرداء الأخضر الذي يجلّله، قدحتْ شرارة السؤال في قلبي قبل عقلي، فلم يكن لدي من الوقت ما يكفي للعقل أو التعقل، كنت أسابق الريح وألهث كما الجنيات اللواتي لم يلحقن بي مع أن وظيفتهن الوحيدة كانت حراسة المزار ولطش أي شخص يجرؤ على الاقتراب منه، كانوا يحلفون أيمانًا بعد كل حكاية يحكونها في سهراتهم، أو ثرثرات النساء على النبع وهنَّ ينتظرن دورهن، أيمانًا بأن فلانًا لطشته الجنيات لأنه مدّ يده إلى صندوق الزيارة فأصيب بالخرس والشلل وصار عاجزًا تلاحقه اللعنة إلى أبد الآبدين، وأخرى أجهضت وانقطع نسلها من بعد لأنها حلفت يمينًا كاذبًا على اسم المقبور فيها قدّس الله سرّه، وحكايات لم يكن أهل الضيعة ولا باقي الضيع

يملّون من تكرارها، ولم تنضب مخيلتهم مع السنين بل كانت رافدًا يزيد موسوعة مناقب وأسرار أبو طاقة، حكايات تقترب من الأساطير في رهبتها وقدسيّتها كانت تتراكم في ذاكرتي فتصيب مخيلتي بالقلق وصدري يسكنه الخوف، ولّدت في أعماقي شعورًا بأنني أُراكم الخطايا ولم أكن أعرف ما هي الخطيئة أو لم أكن أعرف شيئًا عنها سوى أنها أمر حتمي يقع الناس فيه ولا بدّ أنني وقعت فيها وانتهى الأمر، لازمني شعور دبق راح يلعب بوجداني ويحرق أحلامي ويزيدني توترًا أمام الأسئلة الكثيرة التي راحت تتناسل من بعضها بعضًا من دون إجابات. لكن سؤالي ليلتها كان أكبر من أن يفهمه أحد، كنت فقط أبحث عن الحرية، هذا ما عرفته مؤخّرًا بعد مشواري الطويل، لقد بحثت عنها قبل هؤلاء الناس الذين ملأوا الشوارع ضجيجًا وصراخًا يريدون الحرية، وأنا زيزفون، بنت الستين سنة، طاردتها قبلهم بأكثر من أربعين عامًا، بل خمسة وأربعين. كنت أريد فقط أن أكون أنا، لا ما يريدون مني أن أكون كنسخة من نسخهم المغشوشة، هذه هي الحرية بالنسبة لي، لا أعرف إن صرت تلك الأنا التي تشبثت بي أكثر ما تشبثت بها، لكنني أعترف بأنني كافحت من أجلها، ثورتي ابتدأت بتلك الشرارة التي ألهبت المزار وما حوله، وربما التهمت الجنيات أيضًا والدليل أنني عشت وأنا اليوم لدي فائض رغبة في الحكي.

*

من الدفتر

بيتنا، حلم السفر، الشام، الحرب

كان بيتنا الذي فيه الدكان آخر بيوت القرية، أو أوّلها، لا فرق، لكن يمكن القول إنه يقع على الحدّ الفاصل بين جبلة وقريتنا ومعها كل القرى التي تقع في شرقها وصولًا إلى الشعرا التي لم أكن أعرفها، لكن أمّي تقول إن أهلها كانوا يعيشون هناك قبل أن يشتروا أرضًا في الوطى ويعمّروا بيتًا فيها، وإن والدي عندما تزوّجها ذهب وأحضرها على الفرس إلى هذا البيت الذي لم تغادره إلّا إلى القبر، فلقد كان أهل والدي غير راضين عن زواجه منها لأنها من منطقة أخرى، لم أفهم ماذا كان يعني أنها من منطقة أخرى، لكنني فهمت لاحقًا، كانت عائلتها من عشيرة غير عشيرة والدي لذلك بقيت الغريبة بالنسبة إليهم، وبقيت عائلتها غريبة عن المنطقة، ولأن والدي كان يريدها ويريد أن يقطع الطريق على ذويه ويهرب من زيجة مدبّرة من إحدى فتيات الضيعة فقد اشترى الأرض والبيت الطيني فيها من أحد الرجال، وسكن مع أمّي فيه حتى يحميها من الشعور بالغربة ويرتاح من المشاكل والخلافات، فولدتُ وإخوتي وكبرنا في هذه المنطقة الحدودية، لم نكن ننتمي بالمطلق إلى الضيعة، ولم نكن كذلك ننتمي إلى المدينة. في هذا البيت تشكلت ذاكرتي، وعلى أرضه المتربة بدأت أحبو، ثم خطوت خطواتي الأولى وشكلت مفرداتي الأولى وبدأت باكتشاف العالم حولي وصرت أقيس المسافة بيني وبينه، وإليه عدت بعد مشوار طويل، ليس إليه بالتحديد، إنما إلى الحاكورة الخلفية حيث عمّرت بيتًا

لي من إسمنت وبلوك يتاخم البيت القديم المهجور الذي يقاتلني أخي شعبان بسببه، فهو يريد أن يهدمه وينهض ببناء من طوابق خمسة مكانه ومكان بيتي مع محلات تجارية، لأن العمران وصل إليه وصارت أرضنا جزءًا من المدينة، لكنه الآن منشغل عني وعن مناكفتي وعن المشروع برمّته بسبب الأوضاع التي تمرّ بها البلد. لولا الحدّ الأدنى من الخجل الذي برأيي لا يعرفه، إنما لسبب أجهله، لكان جاء بالبلدوزر وهدم البيت ورمى ردمه فوق رأسي، وهو قادر على فعله، لكن وجود أبي معي في بيتي، أقوم برعايته وحدي يجعله يحجم عن ذلك على ما أظن، فهو بسكوته يضمن ضميرًا مرتاحًا لأنه لم يزعج والده بهذا الأمر وقد صارت رجلُه في الحياة ورجلُه الأخرى في القبر كما يقولون، لذلك فإن شعبان يراهن على الوقت، يعرف أن أبي صار ضيفًا على الحياة، وإن لم يمت غدًا فسوف يموت بعد غد، أما سعر الأرض فإنه في ازدياد.

ازداد عدد الساهرين في بيتنا بعدما صار دكان أم جهيدة محطة للمسافرين، كانوا يتوافدون إلى البيت مساء ويبدؤون بسردياتهم التي حفظتها غيبًا، لا يملّون من تكرارها، وعندما يكون لدى أي رجل منهم خبر جديد فإنه ينتظر اللحظة المناسبة لطرحه بكامل زخمه وفرادته ويبدأ بإشهاره، وغالبًا ما تكون البداية بجملة سمعت أنّ. ليس هناك توثيق لأي خبر، ولا تأكيد لمصدره، وكانوا يتداولونه فيما بينهم بجدية تامة واندهاش كبير، ثم يبدؤون بالأسئلة التي تطعن بصدقيته كما لو أنهم يريدون تسخيف صاحب الخبر، كانت النسوة يأتين للسهر مع رجالهن أحيانًا، وتصبح السهرة أكثر حماسة وانشراحًا خاصة عندما كانت بهيّة تأتي مع زوجها

نايف، فقد كان جمالها الطاغي يحيل السهرة إلى جمرة متقدة بما يفعل حضورها في عروق الرجال الساهرين، وكنت أرقبها وأنا على الحصير أواكب السهرة إلى أن يغلبني النعاس، كانت رائعة في كل شيء حتى بدلالها على نايف الذي كان يتلقى خفة دمها وحيويتها بحبّ عارم، ولم يكن يعنيه أن يُقال عنه إن بهيّة متحكّمة به، وأنها صاحبة الرأي في بيته وحياته، كانوا يقولونها بطريقة تأخّرت حتى فهمت معناها، مراته راكبته، وفهمت بهذا التشبيه، وبغيره، الكثير من الصيغ الجاهزة التي يردّدها الناس كحكمة أو خلاصة خبرة متراكمة في الحياة، وهي بالتالي حقيقة راسخة بالرغم مما تحمل من دونية للمرأة ومن ضعف في خيال الحب والجنس، صرت أفتق الجمل لأصل إلى عمق المعنى وأقبض على هذا اللاوعي المختبئ بين طياته. أما اجتماع النساء نهارًا فكان له طابع مختلف عن اجتماع الرجال في السهرة، أكثر الأوقات ازدحامًا كان وقت مجيء الحاجّة هيلانة.

في هذا الجو المترع بالحكايات كنت أكبر ويتسع عالمي المتخيل، كل خبر كنت أسمعه أعيد تقليبه في رأسي، كنت أصدّق الكثير منها حتى الغامض أصدّقه، لكن الأسئلة كانت تتراكم في خلدي، وكانت صورة والدي تثير أسئلة أكثر كلما تكشّف الواقع عن أمر جديد لم أكن أعرفه. كان والدي رجلًا جميلًا، اكتشفت جماله بعدما كبرت ولم يكن لمناكفاته مع أمي أي تأثير في تشكيل تصوّري الخاص عنه، فأمي كانت دائمة التذمّر، ربما كانت بهذه الطريقة تعبّر عن غيرتها، فلقد كانت تغار بسبب فتوته وجماله وإقبال النساء عليه، فقد كنّ يلاطفنه ويمزحن معه وهو يعرف كيف

ينبش ما بصدورهن ويعرف سطوته عليهن، لكنه لم يكن يتمادى كثيرًا معهن، ليس إكرامًا لأمي وهي تعرف هذه الحقيقة تمامًا، إنّما لأن قلبه لم يكن يتسع لامرأة أخرى بجانب ميمونة.

بعد ذلك اليوم الذي خفتُ فيه من حماس الحشود أمام السراي، سألته ما هي الرجعية؟ أبي لم ينل الشهادة الإعدادية وطالما شعرت بأسفه لأنه لم يكمل تعليمه مثل بعض الشباب من جيله، فقد كان التعليم ونيل الشهادات حلمًا وغاية بالنسبة إلى معظم أهل الريف، لكن قسمًا كبيرًا منهم لم تكن لديه القدرة على تحمّل تكاليف دراسة أبنائهم، أو الاستغناء عن مجهودهم في الأرض التي يعيشون على إنتاجها، كان يريد أن يدرس في الجامعة لكن ظروفه لم تكن تسمح، لا أعرف ماهي تلك الظروف، لكنني أصدّق تمامًا أنه كان يحلم بالدراسة فهو كان نهمًا للكتب والمطالعة، حتى إن الغرفة الداخلية في البيت كان فيها صندوقان كبيران من الكتب التي اقتناها خلال حياته، وبعض المجلات كمجلة المعرفة، كذلك مجلة العربي الكويتية، طلب مني نقلها إلى بيتي الذي عمّرته بجانب البيت الطيني، بعد أن صار شبه مقعد بعد الحادثة المشؤومة تلك.

من الأمور التي كانت تشدّني إليه أنه بالرغم من تحفّظه في عواطفه لكنه كان يجيب على أسئلتنا، خاصة أسئلتي، أحيانًا كان يضحك بحب من السؤال حتى يتوهّج خدّاي، لكنني عندما سألته عن الرجعية زفر زفرة طويلة وصمت مطرقًا في الأرض، شعرت حينها أن في صدره همًّا ما وكأنه يشكوه إلى نفسه، أو إنه يدير

حديثًا معها. صمته جعلني أشعر بأنني دخلت منطقة محظورة وكان عليّ ألّا أسأل ذاك السؤال، فلولا أن الرجعية كائن مخيف مثل الغول لما كان ذلك الرجل هدّدها من على المنبر، ولما كان والدي زفر تلك الزفرة وبدا عليه الغمّ، لم يجبني على سؤالي يومها، لكنه أخبرني أنني عندما أكبر سوف أعرف بمفردي لأن الرجعية شيء لا يمكن شرحه إنما يعرفه الشخص كلّما تعلم أكثر وصار يفهم أكثر.

t.me/tea_sugar

كنت ما زلت في الصف الثاني الابتدائي، ولم يكن لدينا تلفزيون حينها ولم يكن أحد في الضيعة قد سمع به، إلّا أن الراديو كان ضرورة للدكان أيضًا بعدما صار يتوقّف عنده المسافرون أكثر من السابق، فاشترى مذياعًا كبيرًا بصندوق خشبي وواجهة مخرّمة تحمل مفتاحين بارزين واحد لتشغيل الراديو وآخر لتغيير إبرة المحطة، كان يضعه في مقدمة الغرفة الكبيرة فوق خزانة خشبية منخفضة كانت أمي تضع فيها علب البن والشاي والسكر، وكان يتنقل بين محطات قليلة، صوت العرب من القاهرة، وإذاعة دمشق، وأحيانًا كان يستمع إلى هيئة الإذاعة البريطانية، لكنه لم يكن يستمع إلى هذه المحطة إلّا إذا كان وحيدًا وليس هناك زوّار أو مسافرون. كانت جملة تتكرر في كل المحطات تأخذني إلى عالم الحلم والخيال، هنا القاهرة، هنا دمشق، هنا لندن، وأنا أرسم في خلدي شوارع وحارات وبيوتًا ومدنًا وأناسًا وأشرد في عوالمهم وحيواتهم التي أفترضها في مخيلتي، وأحلم بالسفر. وعندما يتوقف باص الهوب هوب الراجع من دمشق إلى اللاذقية أو جبلة أمام البيت وينزل منه بعض المسافرين أو السائق ومعاونه، فإنني

أهرع وأتخذ لي مكانًا قريبًا منهم وأجلس على الأرض لأستمع إلى أحاديثهم وألملم الأخبار التي يحكونها وكأنهم قادمون من بلاد العجائب.

في الصيف كان يزداد عدد المسافرين، حتى القادمون من دمشق وحمص كان يزداد عددهم، كانت هناك أسر تأتي إلى السباحة، يقولون إنهم استأجروا شاليه على البحر، لم أكن أفهم ما تعني هذه الكلمة، لكنني عندما كبرت وبدأت أشتغل وأذهب مع رفيقاتي في الصيف إلى المسابح صرت أعرف ما هي الشاليه، لقد كانت مسابح اللاذقية محاطة بالشاليهات التي تغصّ بالناس في موسم السباحة. كانت تتوقف أمام بيتنا سياراتهم المحمّلة بالكثير من الأشياء التي يحتاجونها في عطلتهم، وكانت في معظمها تحمل هيكلًا معدنيًا على سقفها تعلوه الحقائب والصرر المحزمة بحبال أو شرائط متينة إلى الهيكل الذي كانوا يسمونه شمسية، وكنت أنظر بعين الإعجاب لأطفالهم وأغبطهم على الفرح الذي يمتلئون به. حتى جاء ذلك اليوم البهيج ذات صيف إذ قرّر والدي أن يأخذنا إلى الشام لنزور المعرض، احتجّت أمي، قالت إنها لا تستطيع أن تترك البقرة والدجاجات والدكان، من سيطعمها؟ ومن سيحلب البقرة؟ إلى من ستعهد بالدكان؟ كانت أمي قد عمّرت سجنها بنفسها فصارت حياتها مرتبطة بالتنور الذي عليها أن تحضر الحطب أو الأغصان اليابسة من البرّية لأجله وتعجن العجين وتخبز الخبز في جوفه، والبقرة التي عليها أن تطعمها وتعتني بنظافتها وتحلبها، ثم تغلي الحليب وتخثّر اللبن وتخضّ جزءًا منه في جرّة الفخّار من أجل الزبدة، وتحضّر القريشة من أجل الشنكليش، والدجاجات

التي تحتاج إلى الماء في الجرن وذرّ الحبوب عند المغرب، ثم التأكّد من دخولها القنّ لإغلاقه عليها لأن الجقل دائمًا في الجوار ويترصد الدواجن ويغزو القن ليخطفها، كما كانت حريصة على القرقة وصيصانها وعلى أن تجمع البيض كل يوم من القنّ، كانت مرتبطة بوثاق متين وازداد متانة مع الوقت إلى تلك التفاصيل، عندما أتذكّر اليوم حجم الجهد الذي كانت تبذله والشقاء الذي تكابده في حياتها أصاب بالذهول، لذلك احتجّتْ ومانعتْ السفر إلى الشام. لم يكن السفر والرحلات يدخل في نمط الحياة وعادات الناس في القرى، لذلك كانت فكرة السفر إلى الشام من أجل زيارة المعرض غريبة بالنسبة إليها، وسخيفة ولا مبرّر لها، فوقعت المشكلة في البيت وصارت أمي لا تطيق الحديث مع والدي، لم تكن أختي عواطف قد وُلدت بعد، كنّا ثلاثتنا، برهوم الذي أكبره بأربعة أعوام وشعبان ذو الأعوام الثلاثة، لذلك أصرّت أمي عندما خسرت المعركة على أن يبقى شعبان معها ونذهب نحن الثلاثة.

كانت رحلتي الأولى في حياتي والسفر الأول، وكان كل شيء مدهشًا، لم أنم ليلتها بانتظار الصباح الباكر فقد أخبرنا والدي أن باص الهوب هوب سيتوقف عندنا ليأخذنا قبل شروق الشمس، كنت فرحة بالثياب الجديدة وبالرحلة التي ستنقلني مباشرة إلى عالم الأعاجيب، إلى آخر الدنيا، ولقد كان إحساسي في أثناء الطريق أن الشام بالفعل هي آخر الدنيا، فقد كان الطريق طويلًا. كان الباص يتوقف كثيرًا خاصة عند المفارق التي تؤدي إلى القرى الساحلية حيث يكون هناك ركّاب ينتظرون، وعندما امتلأ الباص صار بعض الأشخاص يصعدون إلى ظهره ويوصيهم السائق بأن

يتمسّكوا جيدًا، في داخل الباص جلس بعضهم على صندوق كبير يشبه التابوت على يمين السائق بقي لغزًا في بالي على طول الطريق حتى عرفت فيما بعد أنّه محرّك الباص. وفي الشام كانت دهشتي الكبرى، هالني اتساع شوارعها وساحاتها وحدائقها، كثرة الناس فيها، المحلات التجارية وواجهاتها المتنوعة، مطاعمها ومقاهيها، كان كل شيء جديدًا عليّ حدّ الرهبة، أخذنا أبي إلى فندق في مكان يعجّ بالناس والحركة، مكتوب على آرمته فندق الصباح، يستيقظ النزلاء فيه باكرًا على صوت الحركة في المدينة، وعند المغرب بعد تسكّع طويل في شوارع الشام وأزقتها أخذنا والدي إلى المعرض، مشينا من الفندق بمحاذاة النهر الذي تتلألأ الأضواء الملوّنة على صفحته، قال لي والدي إنه نهر بردى، إلى أن وصلنا إلى ساحة كبيرة تطلّ عليه، كانت ليلة صيفية جميلة بنسيمها المنعش والرذاذ الذي تنشره نوافير المياه في ساحات المعرض، وكان هناك محلات كبيرة تعرض أشياء غريبة، معلّق فوق مداخلها أسماء الأجنحة، قرأت أسماء دول كثيرة بعضها كنت أعرفه وبعضها لم أكن قد سمعت به، كان الازدحام شديدًا في ساحات المعرض وفي أروقته وأجنحته، وأصوات المكبّرات تصدح بالأغاني، وكانت إعلانات موزعة عن الحفلات التي ستقام ومنها حفلة فيروز تحتلّ الإعلان صورتها شامخة بفستان أزرق وشال أبيض يطير خافقًا حولها.

كنت متلهّفة للعودة والحديث عن تلك التجربة العارمة، لكن لمن أحكي؟ لم يكن لدي رفيقات بيوتهن قريبة في الضيعة، وكانت المدارس مغلقة في العطلة الصيفية، إنما لا بأس، سوف أحكي لأمي حتى لو لم يكن لديها الوقت للاسَتماع إلى حكاياتي، لكنني سأحكي

هذا كل ما أرغب فيه، حتى لو لم تكترث، سوف ألاحقها وأتبعها كيفما تحرّكت، وسأخبرها عن طريق العودة وذلك المكان الذي تتوقّف عنده السيارات على الطريق المحاطة بالمحلات التجارية على الجانبين، كيف كان الركّاب ينزلون ويشترون منها بعض الأشياء يخبئونها تحت مقاعدهم أو تحت ثيابهم أو في بعض الأماكن التي يفترضون أن لا أحد سينتبه إليها، لم أعرف حينها لمَ كل هذا الحرص والتستر مثلما لو أنهم مرتكبون جنحة، ولم أفهم لمَ كان هناك بعد أن اجتزنا السوق على الطريق بمسافة قصيرة، رجال يحملون المصابيح ويتمنطقون السلاح على خاصرتهم يوقفون السيارات ويصعدون إلى الباصات، يفتّشون ويوجّهون أضواءهم الكاشفة إلى بعض الأماكن، في الطريق سألت والدي الذي كان قد اشترى لنا علبة بسكويت ماركة غندور كانت رائجة وكان مذاقها رائعًا، لماذا يحصل هذا الأمر؟ قال لي بعدين أشرح لك، لأننا مررنا في العريضة. بعدما كبرت عرفت أن العريضة منطقة يمرّ فيها الطريق من دمشق إلى اللاذقية وهي تقع ضمن الأراضي اللبنانية.

بعد تلك الرحلة إلى دمشق ولدت في أعماقي رغبة غامضة، لم أفهمها إلّا في وقت متأخر لكنها كانت تلحّ عليّ باستمرار وتحرّض في رأسي أحلامًا كانت تبدو لي حينها غريبة لكنها جذابة وتستحقّ السعي لتحقيقها، رغبة تستبطن روح المغامرة والسعي الدائم لاكتشاف الجديد. صار اهتمامي يزداد وفضولي يكبر نحو الاستماع إلى الحكايات والقصص من المسافرين ومن الناس الذين يأتون للسهر أيضًا، لكن الأحاديث تغيّرت فجأة بعد عام من زيارة المعرض، لم يعد سْعيّد وقصصه مع كلابه التي لا تنتهي يشغل

أحاديث السهرة ويفتّق قريحة الساهرين على السخرية والنكات، بل صارت الأحاديث كلها تدور حول الحرب، والآذان تتّجه نحو المذياع الذي يبثّ الأغاني الوطنية الحماسية ونشرات الأخبار التي تنقل أخبار الحرب والجبهات.

كان شباب ورجال كثيرون من المنطقة قد ذهبوا إلى الحرب، لكن والدي وبعض الرجال لم يذهبوا، لا أعلم السبب، إنّما أذكر أنهم كانوا ينتسبون إلى رابطة الفلاحين أو الشبيبة أو إلى الحزب، لكنهم كانوا يذهبون إلى جبلة ويقومون بحراسة بعض الأمكنة مثلما كانت أمّي تقول، ويحرسون أيضًا بيوت بعض المسؤولين كأمين شعبة الحزب ومدير المنطقة ورئيس رابطة الفلاحين وغيرهم، وكان الناس يلصقون ورقًا غامق اللون على النوافذ يقولون إنه يمنع تسرب الأضواء من البيوت فيستعصي على الطائرات العدوّة قصفها، وهذه تعليمات الحكومة، مع أن معظم القرى كانت لم تصل إليها الكهرباء بعد، وكانت تعتمد على قناديل الكاز الشحيحة بضوئها.

لم تستمر الحرب طويلًا، أيام قليلة ثم انقلب مزاج الساهرين في بيتنا من إحساس عارم بالنصر الذي كانوا يتحدثون عنه في السهرة والحكايات البطولية التي كانت تروى بحماس وفخر عارمَيْن، إلى ذهول وحزن شديديْن، أتذكر كيف كانوا مجتمعين أمام الراديو ليسمعوا صوت الرئيس جمال عبدالناصر يخاطب الشعب ويعلن أنه قَبِل بوقف إطلاق النار، وكيف خيّم الصمت على الجوّ، بل إن بعض الساهرين بكى بصمت، شعرت بخطر كبير يومها، وبأن

الدنيا ضاقت حتى بات الموت على الباب وكل شيء إلى زوال، حتى إن الباصات والسيارات التي كانت تقف أمام الدكان صارت قليلة، ولم أعد أسمع الحكايات التي انتظرتها بلهفة وشغف، وعرفت بعدها أن سيناء والجولان والضفّة الغربية والقدس ومساحة من جنوب لبنان قد صارت تحت سيطرة إسرائيل، ولم أعد أسمع تلك الأغاني التي حفظت معظمها وأنا أسمعها تصدح في الراديو وتُعاد، وصارت العمّة حسيبة تُسمى في الضيعة نازحة لأن القنيطرة التي كانت تسكن فيها مع زوجها الرقيب عبود وأنجبت أولادها الثلاثة فيها قد سقطت، وسقط معها ماضي العائلة وذكرياتهم وكل شيء.

*

من الدفتر

النذر لمرة وحيدة

أستطيع القول اليوم إن التغيّر الكبير الذي طرأ على مزاج والدي وطريقته في الحياة كان بعد الحرب، بعد أن تجرّع الهزيمة والقهر معها يومًا بعد يوم، لم أنتبه في تلك السنين البعيدة إلى هذا الأمر، لكنني اليوم، وأنا أستعيد الماضي وأحكيه فوق دفتري، تفاجئني هذه الومضات الخاطفة التي تضيء ما كنت غافلة عنه. أمّي كانت نذرت أن ترسم العيد على اسم الولد الجديد فيما لو كان صبيًّا، كانت تريد أن تأتي بأخ أو أكثر لابنها الوحيد إبراهيم، مع أنني كنت وحيدة أيضًا ولم تكن أختي عواطف قد جاءت إلى الحياة بعد، لكنهم كانوا يحبّون الولدان الذكور، ويتضرعون إلى الله أن يهبهم الصبيان في كل حمل، ليست وحدها بل الجميع كانوا كذلك، وكان

أن جاء شعبان وقرّرت أمي أنها ستفي نذرها وتعمل عيد الغدير، لكن أبي لم يكن موافقًا، بل راح يهزأ منها مستنكرًا هذه العادات التي يجب أن يتخلّص الجميع منها، كان يغيظها بتعليقاته خاصة تلك الساخرة وكان يمتلك لسانًا سليطًا يستخدمه ببراعة عندما يرغب، قال لها مرة: لو شو ما عملتِ لن يزيد ميزان حسناتك إذا ما كنتْ رضيان عنك. فردّت عليه مستغفرة الرب ثلاث مرات: والله لو كان صحيح هالحكي كان لازم روح على جهنّم، لأنه واحد متلك ما بينطلب رضاه، ليش أنت بتعرف وجه ربك؟ ما ناقص غير تعمل حالك وِلي صالح، اسألوني أنا، أنا من تعرفك منيح. لكن أمّي أصرت وذهبت بنفسها لعند الشيخ عباس في أول مشوار لها بعد الولادة، كان ذلك قبل الحرب بعام أو أقلّ.

اصطحبتني معها وكانت أم عيسى ترافقها، لم ترغب في الذهاب بمفردها إلى بيت الشيخ عباس، الذي كان يسكن في بيت يبدو عليه التميز عن بقية بيوت الضيعة في مقدّمة أرضه الكبيرة المحاذية للطريق، كانت قد جمعت عدة أشياء في سلّة القصب وغطّتها بمنديل أبيض وراحت تتبادل حملها مع أم عيسى، وضعت في الأسفل كيسًا من الحنطة وفوقه كومة من التين اليابس، ثم أقراص الشنكليش والزبدة، وفوق الجميع وضعت البيض الذي كانت تجمعه قبل أسبوع وتخبّئه في الخزانة الخشبية، أمّا سطل اللبن فعهدت بحمله إليّ وقد كان ثقيلًا عليّ، لكن مهما تذمّرت واشتكيت كنت أعرف أن هذا لن يجدي نفعًا، فالدلال لم يكن واردًا في الضيعة، على البنت أن تنخرط في الشغل مهما كان نوعه، لأن ببساطة هذا ما ينتظرها لاحقًا، وكانت تحيّرني هذه الازدواجية

التي يمارسها الجميع تقريبًا، إذ كانوا يرسلون بناتهم إلى المدارس حتى لو كانت بعيدة، لكن قليلات جدًّا من واصلن تعليمهن بعد الثانوية، أو حتى من وصلن إلى الثانوية في ذلك الزمن، بسبب ضيق الحال. كان بيت الشيخ عباس يبعد مسير ساعة على أقدامنا تقريبًا، وكان الطقس حارًّا في أوائل أيّار، والشمس في مواجهتنا يزداد وهجها كلما أمعنّا السير، كانت أمّي وأم عيسى تضعان منديلين على رأسيهما، وكانتا بارعتين في جعله مثل مظلّة واقية على الجبهة فتحميان عيونهما من وهج الشمس، أما أنا فلم يكن لدي ما أواجه الشمس به، ورحت أتصبّب عرقًا خاصة عندما بدأ الطريق بالصعود، حتى اضطرت أمي إلى رفع قطعة القماش التي غطت بها السلة ووضعتها على رأسي، وأنا في سرّي ألعن الساعة التي حملتني إلى القيام مكرهة بهذا الواجب الذي لا أفهمه، ولم أستطع أن أفهم أيضًا لماذا أمي تذهب إلى الشيخ عبّاس علمًا بأن الأحاديث التي كانت تدور بينها وبين أم عيسى حوله كانت تنوس بين الإعجاب به حد التبجيل، وبين القصص التي تحكى عنه وعن المشايخ، فلقد عرفت في ذلك المشوار أن الشيخ عبّاس "نفسه خضرا" كما وصفته أمي وجارتها، وهذا كان يعني أنه يحبّ النساء، لذلك لم تذهب أمي بمفردها لزيارته.

في ذلك اليوم ابتدأت جذوة تتقد في داخلي، لم أستطع تقبّل رؤية أمّي وأم عيسى وهما تنحنيان لتقبّلا يد الشيخ عباس بمنتهى الخشوع وهو يمد يدًا بدت لي يومها غير كل الأيادي التي رأيتها لدى السهيّرة الذين يتوافدون إلى بيتنا باستمرار، كانت أيديهم خشنة مشققة، بأظافر حوافّها مسودّة كأن الأرض وشمتها بحبر

الشقاء الذي لا يزول، أما الشيخ عباس فكانت يداه مختلفتين، بلا أثلام أو حتى تجاعيد وأظافره لامعة وحوافّها نظيفة. مدّ يده إليّ متودّدًا: ما شالله، هذه هي جهيدة؟ روّجتْ تصير صبية. فمددتُ يدي بحذر وارتباك وأنا أصحّح له بأن اسمي زيزفون، لكنني لم أنظر إليه، قالت أمي: بوسي يد الشيخ. لكنني بقيت متسمّرة في مكاني مطرقة في الأرض وهي تكرّر الأمر عليّ: هيا، بوسي يد الشيخ. وعندما لم أفعل نكزتني بقوة من رأسي ودفعت به إلى الأسفل كي تلامس شفتاي يده بينما كان واقفًا ينتظر أن أفعل، ولم أفعل.

لا أعرف ما الذي حصل معي يومها لكن أعماقي كانت صامتة كتيمة كالصوّان، أمي تنهرني وتعيد عليّ كلمات التأنيب وأنا أمعن في صمتي، فما كان منها إلّا أن صفعتني على خدّي. ضحك الشيخ عبّاس وقال: اتركيها، بعدها صغيرة بكرا تكبر وتصير تفهم. بقي أثر تلك الصفعة محفورًا في قلبي إلى اليوم بكل الحرارة التي شعرت بها وهي تحرقني في وجهي وفي صدري.

لكنني كبرت وأبيت أن أفهم كما يريدون مني أن أفهم أو كما كان الشيخ عبّاس يريدني أن أفهم، أمّا بعد عودتنا إلى البيت فكان ينتظرني حساب آخر، فبمجرّد دخولنا أول شيء قامت به أمي كان تأديبي على ارتكابي هذه المعصية، لقد نكّستُ لها رأسها كما قالت، أخبرتْ والدي بما فعلتُ وهي تكاد لا تصدّق، إذ كيف يمكن لأحد أن يرفض تقبيل يد الشيخ؟ وكيف يبدر منّي، أنا الصغيرة، كل هذا التمادي والعند؟ لكن أبي اعترض يومها وزجرها مهدّدًا، قال اتركيها تتصرف كما تريد، ومن قال لك إن تقبيل يد الشيخ واجب؟

فجنّ جنونها، واجب؟ إن تقبيل يده تجلب البركة، الآن نسيت كل شيء ربيت عليه؟ فراح أبي يسخر منها ومن المشايخ، قال لها بماذا يختلف الشيخ عبّاس وبقية المشايخ عن عامّة الناس؟ والله آن لكم تطلعوا من هذه السخافات. يا ويلي. من إيمتى تتكلم عن المشايخ بهذه الطريقة؟ طول عمري لا يعجبوني، وأراهم عالة على الناس، كيف يمكن أن أقبل أن يعيشوا على حسابنا وحساب الناس المعتّرين؟ شوفي كل واحد كم عنده من الرزق من وراء المشيخة والضحك على الناس وبدون ما يشتغلوا أي شيء. يعني شو؟ أنت تريد تناكفني فقط، شوف يا سيدي سأعمل العيد، وسأعلّم الولاد كيف يحترمون المشايخ، فنحن لولاهم كنا عايشين بالضلال والخوف، أنت منك لربك لكن لا تتدخل بيني وبين الولاد.

صمت أبي يومها من دون أن أعرف سببًا لصمته، ربما كان لا يريد أن تكبر المشكلة أكثر، أو ربما رأفة بأمي التي كان من الصعب إقناعها بغير ما آمنت به بتسليم كامل، لكن تجربتها مع الأعياد من هذا النوع لم يكتب لها أن تستمر، فقد حصل أمر ما بعد عودتها من المزار الذي كان يتربع فوق تلّة مرتفعة تحوطه الأشجار فاردة أغصانها كمظلة فوق قبّته ترخي بفيئها وتطلق في محيطه نسيمًا عليلًا، وكانت قد ذهبت بمفردها رفقة أم عيسى وصحبتنا معها لأن أبي رفض الذهاب، حيث كان الشيخ عبّاس وشيخ الزيارة ومجموعة من الرجال الآخرين قد جاؤوا ودخلوا إلى داخل المزار ليصلّوا ويقرؤوا القرآن، وقد أغلقوا الباب عليهم ليكونوا في عزلتهم بعيدًا عن النساء اللواتي يجب ألّا يسمعن صلاتهم، وكانت النساء

مقتنعات بأنهنّ سوف يصبن بالطرش فيما لو سمعنها فينأين بأنفسهن أكثر كي ينلن رضا الرجال والمشايخ، وكنّ يقبلن على العمل الموكل إليهنّ بهمة وإخلاص. كان هناك رجل يقوم بتقطيع الخروف المعلّق ويفرز الحصص ويحسب حساب الشيخ عبّاس أولًا بأكبر قطعة لحم من الذبيحة ثم حصص باقي المشايخ، كانت هناك نساء يقمن بطبخ البرغل على أثفية من الحطب في حلّة كبيرة، وأمي توزّع الزكاة على المشايخ وتقبّل أيديهم، وأنا تشتعل نيران الغيظ في صدري. في أثناء العودة بسيارة اللاندروفر الوحيدة التي كانت تشتغل على الخط، انقلبت السيارة بنا، ولولا أن رعشًا حجريًا على جانب الطريق تلقّفها لكنّا جميعًا تحت التراب الآن. أذكر الصراخ والهلع الذي دبّ في أرواحنا، أذكر كيف كانت أمي تحاول سحب ساق أخي الصغير شعبان، وليدها الذي رسمت له العيد، من بين الأشواك حيث كان قد أفلت منها في أثناء الحادث، وكيف كانت تصرخ بالتناوب مع أم عيسى: يا خضر دخيلك.. يا إمام علي تلطّف فينا. مضى الحادث بأقل ضرر، كنا مرضوضين وهناك بعض السّحجات على أطرافنا، ولولا أن شعبان الصغير كان محميًا بقطع القماش العديدة فوق جسده لنزف بسبب الأشواك كثيرًا. عندما وصلنا إلى البيت يومها لزمت أمي الصمت، وكان وجهها أصمّ كالصخر، لم تنبس بكلمة واحدة، فقط قالت لوالدي: قلبت فينا السيارة. لكن والدي بعد أن اطمأنّ إلى سلامتنا صمت هو الآخر ولم يتكلم معها بأي أمر.

في السنة التي بعدها، وقبل عيد الغدير بعدّة أيّام، جاءنا الشيخ عبّاس يعتمر طربوشه الأحمر ويلف حوله منديلًا أبيض، يرتدي

معطفًا بلون رمادي غامق فوق قمبازه الأبيض، وتحت القمباز كان يلبس شروالًا أبيض ناصعًا، كان دائمًا مختلفًا عن باقي رجال الضيعة، ولباسه نظيف على الدوام، استقبلته أمي بالتهليل والترحيب وانحنت أمام أبي على يده وقبلتها، لكن والدي لم يفعل بل صافحه وشدّ على يده، جلس أمام البيت على واحد من كراسي القش المنخفضة التي كان لدينا منها الكثير من أجل المسافرين أو السهيّرة أيام الصيف، دخلت أمّي إلى الغرفة مسرعة وعملت ركوة القهوة التي كانت لا تقدمها إلّا لصفوة الضيوف، وجاءت بالصينية مع كأس من الماء، تناول الشيخ عبّاس فنجانه، كنت أراقبه من مكاني حيث أجلس بعيدًا عنهم كي لا أضطر إلى مصافحته، كانت عيناه تلاحقان أمّي كيفما تحرّكت وتلمعان ببريق خاص لم أفهمه حينها، لكنها عندما مدّت إليه فنجان القهوة اهتزّت يده وهو ينظر في عينيها ليشكرها، فمال الفنجان واندلقت القهوة على ثيابه ناصعة البياض، كان الرجال عندما يجلسون على تلك الكراسي المنخفضة يباعدون بين سيقانهم بزاوية منفرجة يفرضها ارتفاع الكرسي، لذلك اندلقت القهوة على أكثر المناطق خصوصية لديه، بين فخذيه، ارتبكت أمّي وهرعت إلى الداخل لتعود ومعها قطعة من القماش وطاسة من الماء أعطتهما للشيخ عبّاس كي يتدبر أمره وهي تعتذر مطرقة رأسها: والله يا شيخنا لو كان بمحلّ تاني كنا نظفنا لك إياه، لا تواخذنا بدّك أنت تنظفه. كان أبي يبتسم في سرّه، بان على ملامح وجهه هذا الانطباع، أو أنا من قرأته هكذا، لا أعلم. المهم أن الشيخ عباس دلق الماء على شرواله وراح يفركه بين يديه ومساحة البقعة تتسع ولونها يبهت إلى أن صارت

تغطي مساحة كبيرة من بين فخذيه نزولًا باتجاه ركبتيه فبدا كمن تبوّل على نفسه، هنا لم أتمالك نفسي فأفلتت الضحكة من فمي بالرغم من أنني كممته بيدي، وعندما لمحني الشيخ عبّاس هربت إلى داخل الغرفة لكنني ما زلت إلى اليوم أذكر نظرة عينيه تلك وكأن فيها وعيدًا ما، لم يطُل حتى تحقّق. يومها لم يخرج الشيخ عبّاس من بيتنا إلّا وفي صدره كمّ كبير من الغيظ، فلقد كان قد جاء ليذكّر أمّي بنذرها وبأن عيد الغدير بات قريبًا وعليها تحضير استحقاقه، خصوصًا أن لديه العديد ممن يحتاجون أن يبارك لهم العيد وهو سوف يوزع برنامجه على يومين متتاليين، لكن أمّي قدمت اعتذارها بكثير من الارتباك، قالت له: يا شيخنا، والله أنا منّي لوحدي فكرت أن ربّنا سبحانه وتعالى ما قبل منّي العيد، ما عرفت السبب مع أنّي كتير حاولت أتذكر الماضي وشوف وين أنا غلطانة، وحياتك يا شيخ عبّاس بعمري ما آذيت نملة، لكن الله تعالى بيعرف شغله، أكيد في سبب جعل نذري غير مقبول، أنت بتعرف أن السيارة قلبت فينا ونحن راجعين من الزيارة السنة الماضية، وهذا كان إشارة لي، قرّرت السنة ما أعمل النذر، الله يبعرف شو في القلوب. حاول الشيخ عبّاس أن يقنعها بالرجوع عن قرارها، راح يلقي خطبة طويلة يستشهد فيها بآيات من القرآن، وأقوال للإمام عليّ حول أن البني آدم خطّاء، وأن الله يقبل توبته عندما يتوب، وأن الحادث الذي وقع لها لا يعني بالضرورة أن نذرها مرفوض. حكى كثيرًا حتى تدخّل والدي وقال له: يا شيخ عباس، المهم النيّة، أم إبراهيم، وهذا لقب أمي الذي لا علاقة له بالدكان، سوف توزع ثمن الخروف على المستورين، وأكيد سوف

تعطي الزكاة للمشايخ، لكن ليس من الضروري أن تذهب إلى الزيارة وتذبح خروفًا هناك. لان الشيخ عبّاس بعض الشيء، وخفّ توتّره، قال وهو يودّعهم: بارك الله بكم، عيلة أصيلة.

لكن حكايتي أنا كانت حكاية أخرى.

3

في طريق عودتي إلى الضيعة بعد الموت الغشاش الذي انتابني، كان السيرفيس مزدحمًا بشدة وكان يتوقف عند بعض المفارق المؤديّة إلى قرى على الخط بين جبلة واللاذقية، كنت أفكّر فيما حدث معي، وأفكّر في والدي الذي غبت عنه كلّ هذا الوقت، مع أنني أعرف أن مْنيّر لن يتركه، وأنا كنت قد جهّزت له طعامه في البرّاد، لكنني لم أوصِ مْنيّر ألّا يفتح البرّاد كثيرًا من أجل أن يحتفظ ببرودته كي لا يفسد الطعام فيه لأن التيّار الكهربائي ينقطع لمدّة طويلة بسبب التقنين، مع علمي بأن مْنيّر كلما دخل البيت يفرغ زجاجة ماء في جوفه، وهذا ما كنت أحسب له حسابًا فأضع العديد من الزجاجات في البرّاد، كنت أستعجل الوقت كي أصل، لا أعرف لماذا انتابني القلق على والدي، هل بسبب الإغماء الذي حدث معي وصحّاني على حقيقة لم أكن ألتفت إليها، حقيقة جسدي الذي لم يعد كما كان؟ هل بدأت أولى فصول خيانته إيّاي؟ كان شعور مزعج يضغط على صدري، يزيد في ضيقي ازدحام السيرفيس وكأن الركّاب يجلسون في أحضان بعضهم البعض تختلط رائحة أجسادهم بروائح أنفاسهم، والجوّ خانق برطوبته الشديدة. كنت أراقب الطيّارات الحربية التي تهبط أو تحلّق في مطار حميميم بعد أن صرنا بمحاذاته، عندما دوّى انفجار جعل السيرفيس يجنح قليلًا، واشتعلت الأصوات والصراخ والدعاءات والرجاءات لكلّ المؤمنين والأولياء الصالحين، ومناجاة الله ورسوله، ثم لمحنا

سحابة من الدخان تتصاعد قريبًا من مدخل المدينة، لم نعرف ما يجري إلاّ عندما التفّ السائق يمينًا ليدخل باتجاه الكراجات حيث كانت حركة الناس والسيارات في ارتباك شديد، الراكضون أكثر من السيارات، وبدأت أبواق سيارات الإسعاف تشقّ الفضاء، أوقفنا حاجز أمني وأنزل الركاب بعد التدقيق في هوياتهم، ولم يسمح لنا بالوصول إلى الكراج، عرفنا أن درّاجة يقودها انتحاري ألقت قنبلة على الحاجز الأمني أوّل الكراج ودخل بسرعة ليفجّر نفسه داخل ساحته حيث الازدحام كان شديدًا. شعرت أن الإغماء سيعود إليّ مرّة أخرى، كانت رائحة احتراق الأجساد البشرية تختلط مع روائح الاحتراق الأخرى فيعبق الجو بمزيج قاتل، رائحة دم طازج ورائحة دخان وغبار وأتربة، صراخ يشبه الزئير وهمهمات تشبه حشرجة الاحتضار، أصوات تختلط مع بعضها وتختلط الأسماء التي تنادي عليها، كأنّ الناس حشروا في هذه البقعة من أجل التنقيب عن أحبابهم وسط هذا الهول.

هل أهرب؟ هل أقتحم المكان وأحشر بين أولئك الذين أطاشتهم الكارثة؟ ليس لديّ من أسأل عنه، أبي مقعد منذ أكثر من ثلاثين عامًا، أولاد أخي برهوم تركتهم منذ قليل في البيت، ليس لدي قريب أسأل عنه، لكن كلّ هؤلاء قريبون مني، هم جزء من تحقّق حياتي فما معنى الحياة بلا آخرين؟ وكيف يكون لي ماض من دونهم؟ في تلك اللحظات شعرت بعدمية الموت، وقد كنت أشعر بها دائمًا وأنا أتابع على الشاشات مشاهد الموت تحت القصف والأجساد التي طيّرتها البراميل والقذائف أشلاء في السماء قبل أن تهوي على الأرض ويتفرق الجسد إلى مزق ونتف، كان مشهد الأقدام التائهة

عن جسدها، أو الأيدي الممسكة بشيء أو من دون أن تمسك، أيدٍ تلبس المحابس أو لا تلبسها، أيدٍ بأصابع كاملة وأخرى مبتورة، جميعها كانت تصدمني بعدمية الموت بأبشع صورة، كيف لأمٍّ أن تتعرّف على ابنها من حذائه؟ ماذا يعني الحذاء بالنسبة إليها في لحظة الحقيقة الذابحة؟ وكيف لها أن تعرف يد صغيرتها التي فصلت عن جسد كانت تحلم بأن يكبر وتصبح معه ابنتها عروسًا ويحوط إصبع تلك اليد خاتم خطبة أو زواج؟ كيف لها أن تفهم أن الجسد كله تفرق قرابين لموت رخيص؟ يا رب، لماذا كل هذا الانتقام من شعبك الأعزل؟ هل كانوا فائض إنتاج بيولوجي يجب التخلّص منه؟ والله نحن كويسين يا الله خفّف عنّا واحمنا من هذا الجحيم، نحن أبناؤك أيضًا. هكذا صرت أمام الموت، ليس لدي ما أتسلّح به أمام جبروته وألغازه، لكن ندائي في أعماقي إلى الله لم يكن إلّا استنكارًا وارتيابًا في كل شيء، لم يكن أكثر من تأكيد لإيماني بأن لا عدالة في الأرض ولا في السماء حتى، هل هذا تجديف؟ لم أفكّر أمام الهول بمعنى أن يكون تجديفًا وما يمكن أن يلحقني بسببه، كنت أنادي الله وأعرف أنه لن يصغي إليّ، فصوتُ الانفجار والقذائف أعلى من صوتي، وأصوات حشرجة الضحايا وقت مغادرة أرواحهم ورائحة اللحم المحترق أكثر برهانًا مني، والدماء التي ما زالت تصعد مثل النوافير من أجسادها كأنها تلحق بالروح كي تتشبث بها وتعيدها إلى قميصها كانت أبلغ مني، لكن الله بقي صامتًا منذ أوّل مجزرة في التاريخ، فكيف سيسمع صراخ الضحايا وقد أقضّ مضاجع النائمين في المريخ؟ في تلك اللحظة كان موتًا مجسدًا، كان لحظة حقيقة ملموسة ليس لمس

اليد فقط، بل لمس الروح التي تأخذها هذه العبثية الحارقة إلى أقاصي البكاء والجنون. يا رب، لماذا كل هذا؟ سؤال أبله تشبّثت به أمام عجزي عن التصديق والقبول، استدرت إلى الخلف ورحت أغذ السير باتجاه الضيعة، أو باتجاه بيتي الذي لم يعد ينتمي إلى الضيعة، بل صار جزءًا من جبلة ولم يبقَ منه غير البيت القديم يختزن الحكايات وربما يدفنها تحت أرضه المتربة، لكن أبي هناك، والانفجار قوي حدّ أنه سوف يرجّ جدران البيت، وسوف يعيش الرعب بمفرده، ليس الرعب من الموت، فهو متصالح مع هذه الفكرة حدّ التسليم والرضا، إنما الرعب من المجهول، وكان الرعب من أن تُنتهك كرامته أكثر، من فكرة انهيار ما بقي من أحلام.

كانت المسافة بين الكراجات وبين بيتي قصيرة، يمكن قطعها بأقل من ساعة سيرٍ على قدميّ، سوف أمشيها فليس هناك احتمال وارد بأن أستقلّ أحد السرافيس التي تسير على الخط في ظلّ الفوضى الرهيبة الواقعة الآن في محطّة الانطلاق، وهذا الطريق قطعته زمانًا مئات المرات، لقد أكل من قدمي ووشمهما بذاكرة تتّقد اليوم متوهّجة حارقة. كل هذه المساحات التي تحفّ بالطريق من الجانبين كانت أراضيَ زراعية وبساتين خارج المدينة، بنى فيها أصحابها بيوتًا واستقرّوا ضمن بساتينهم، كانت تزرع بمحاصيل متنوعة، وكانت أمّي تصحبني معها أنا وإخوتي كل حين لزيارة أحد أقاربها كان يسكن في واحد من تلك البيوت، لم أكن أعرف وجه القرابة بينها وبينه، كانت تقول قريبي وكفى، وهو ينادينا بالخال، كيفكم يا خال؟ وهذا تأكيد على القرابة بينه وبين أمّي، ثم عرفت أنه ليس قريبًا إنما هو واحد من قريتها، كانت أمي

متعصّبة لقريتها وناسها وعائلتها وفي المحصّلة متعصّبة لمفهوم لم تكن تعترف به لأنه بات منبوذًا بين الناس لأن هناك من يقول لهم هذا، الجيل الجديد من أبنائهم الذين تعلّموا وخرجوا خارج محيط قراهم وتبنّوا قضايا كبيرة وكان والدي من بينهم، مفهوم العشيرة، فلقد أصبح تحطيم هذه المفاهيم والابتعاد عن الطائفة والدين دليلًا على التقدّم ورسالة من رسائل النهضة المرجوّة، وعلى الانتماء القومي أيضًا وهذا ما كنت أسمعه في السهرة عندما كنت صغيرة، خاصّة إذا كان بين الموجودين أحد ممن يدرسون في الجامعة وجاء يزور أهله في الضيعة وانضمّ إلى السهرة، لذلك اشتعلت تلك المشكلة في البيت يوم أصرّت أمّي على أخذي إلى أبو طاقة بتحفيز وترهيب من الشيخ عبّاس، وكان والدي رافضًا وممانعًا الفكرة منذ البداية، قال يومها: أنا أبوها وأنا من يقرر إذا كان يجب أن تذهب أو لا، لكن أمّي ثار غضبها وراحت ترمي الكلام يمينًا وشمالًا، حدّ اقترابها من حالة هيستيريا، راحت تشدّ شعرها وتصرخ: يا ويلي بدّك تمرّغ لي راسي بالوحل؟ وين بخبّي وجهي من الناس؟ كيف بدّي أثبت للعالم أنو بنتي شريفة لأنها تربية امرأة شريفة؟ أنا متربّاية ببيت حريص على شرفه وسمعته، أنا بنت أصول لا أنت ولا غيرك يقدر يغبّر على صرامينا، بنتي لازم تثبت لكل الناس أنها شريفة وما في غير أبو طاقة بيخلّيهم يصدّقوا.

نهضت أبنية كبيرة بطوابق عديدة على الطريق الذي كان خارج المدينة، وصارت هناك دكاكين تبيع أشياء متنوّعة وتجار جملة للسلع الاستهلاكية ومحلات تبيع الفروج الحي والمذبوح، وملحمة ومحلات تختص بمستلزمات الشغل في الأرض، خاصة في موسم

الزيتون، ومحلات أكياس بلاستيكية وغيرها، وفي الجهة المقابلة على يسار الطريق كانت هناك شركات تابعة للحكومة ومخبز آلي ومحطة وقود ومنشآت أخرى. بينما كنت أغذّ السير مسرعة على إيقاع نبضات قلبي المتوفّز، مررت أمام بائع الطيور والحيوانات المنزلية، كنت شاردة مع قلقي وتوجّسي ومآل حياتنا عندما صدمت وعيي رائحة المحلّ الكريهة، طيور في أقفاص وأرانب تقضم الجزر وقطط تموء وببغاوات تثرثر وتصفّر، ودجاج بلدي في أقفاص وديك حبش في قفص مقابلها، وبط وإوز، وغيرها موزّعة على الأرض الموحلة أمام المحلَ، أرض زلقة تفوح منها روائح العطن والعفن والبقايا العضوية والبرغش والذباب يطنّ في الجوّ، كان صاحب المحلّ يجلس على حجر كبير بينها يفصّص بذور دوار الشمس التي يأتي بها من أجل طيوره خاصة الببغاء، وأمامه كأس من الشاي الأسود، يقف حوله بعض الرجال يتحدثون عن التفجير مثلما لو أنّه خبر قرأوه أو شاهدوه على الشاشة. بالله يا سيدي الله ستر أنو ما فات لجوّا كتير، بحضّي لو غمّق أكتر يمكن ما كان حدا سلم منه، يرد عليه آخر: الله يلعن شرفه وسلسفيل سليلته هالعدو الله، شو ذنب هالناس؟ يروح يقاتل محلّ ما فيه قُتيل ليش هون بين الناس الذين ما لهم علاقة؟ قاطعه الآخر، ولك يا خيّي اشقدّ ما يموت منهم عالم؟ ولاد ونسوان وعجايز، شو ذنبهم كمان؟ ذنبهم أنو الإرهابيين منهم وفيهم، وهم والله رضيانين يعيشوا بيناتهم، يطلّعوهم ويشوفوا إذا ما بتوقف المعارك. هيك برأيك، بالله ما معك حق، اقعد اقعد تنشرب كاسة شاي مع هوّاش بين هالكليب والبْسَينات، بزمّتي عيشتُه بيناتهن

أحسن من العيشة بين البشر. وكان هوّاش يبصق قشور البذور بعيدًا ويرشف الشاي بصوت مرتفع ويضحك وهو يهشّ الذباب عن كأس الشاي. كنت قد تمهّلت قليلًا عند المحل أنظر إلى سلل القصب والقفف المعلّقة بحبال أمام مدخل الدكان وأواني الفخار المرصوفة فوق بعضها، شدّتني تلك الأشياء لأنني كنت بحاجة إلى مكنسة من القش القاسي من أجل تنظيف الفسحة المتربة أمام البيت، فسمعت حديثهم وتابعت سيري وأنا أبحث في المشهد الذي مرّ أمامي عمّا جعل الناس غير مبالين بما يحدث حولهم.

يتقاطع الطريق مع الأوتوستراد القادم من دمشق فيعتليه بجسر يمرّ الطريق تحته، ثم ينحدر ليستوي ويصل إلى الطريق القديم، يتقاطع معه ويتقاطع مع ذكرياتي في كل مرة عندما أصل إلى البيت، لقد ذبلت حياتنا وترهّل بيتنا منذ أن وصل العمل بالأوتوستراد الدولي إلى منطقتنا، وبالتحديد قريبًا من بيتنا. هُجر الطريق القديم وانسلّت الحكايات والخبريات، حدث هذا بالتدريج مثل شمس تغرب، لم نشعر أو لم نستشعر أننا نخسر شيئًا فشيئًا عالمنا الذي عمّرته السنوات الماضية، عندما كانت الحياة تسير ببطء ولم نكن نشعر ببطئها إلى أن حدثت كلّ تلك التغيرات في غفلة منا، فقط قاموا بشق طريق طويل وعريض يصل دمشق باللاذقية، يمرّ بمدن كثيرة، فانتبهنا من غفلتنا لنرى أن كل شيء صار بعيدًا، وأن الحياة تغيرت أيضًا.

أكمل السير والذكريات تأكلني، لقد مررت كثيرًا في هذا الطريق، ولم يصدمني الواقع مثلما فعل، لا أدري إن كان القلق الذي انتابني

بعد الانفجار هو السبب في انزلاقي إلى هذه الهوّة الحارقة، كنت أزيد سرعتي حتى أوشكت على الركض مع ازدياد إيقاع الذكريات والحنين، وربما سؤال كان ينحرني عميقًا، لماذا حصل ما حصل؟ لم أنتبه إلى نفسي إلّا عندما ظهر فجأة مْنيّر في وجهي، وقد كنت أتصبّب عرقًا وقلبي يكاد يقفز من بين ضلوعي. أجفلني ظهوره المفاجئ قبل أن أصل إلى البيت بأمتار قليلة، بل جعلني أتوجّس، سألته بلهفة هل حصل لأبي مكروه؟ لقد كان مْنيّر يتمتّع بوجه لا يمكن التكهّن بما تخفي ملامحه فهي لا تتبدل، يبدو وكأنه غير مكترث بفرح أو مصيبة. قل لي يا مْنيّر، أبي بخير؟ ردّ عليّ ببرود: منيح، منيح لا تخافي. بس سعيد مات.

*

من الدفتر

يوم السّليقة

كان الوقت وقت السليقة، بعد أن كان معظم الناس في القرية قد أنهوا حصد الحنطة ودرسِها على البيدر وذرّوها وفصلوا التبن عن الحنطة وعبأوا المحصول بالشوالات ونقلوه إلى البيوت، وكان دورنا بالسلق، كان يحصل كل هذا سنويًا وفي كل المواسم، كان الناس متعاونين يتشاركون في الحصاد وعلى البيدر وفي سلق الحنطة، حيث كانت النساء يقمن بشكل أساسي بهذا الدور، كان البيت عندنا يعجّ بالحركة والحلل الكبيرة تغلي فوق ثلاث أثافٍ، كانت مْرَيْمة وعدة نساء من الضيعة، إلّا سكينة المسكينة لم يكن أحد يدعوها إلى المشاركة بأي عمل، ولا حتى يدعونها إلى

الأعياد، لكنهم كانوا يرسلون حصتها من كل شيء. عندما سألت أمي مرّة لماذا لا تقولين لسكينة كي تأتي وتشتغل معكن؟ قالت لي: سكينة عايبة، والعايبة ممنوع عليها تشترك بأشغالنا، يكفيها أن نرسل لها حصّتها. لم أفهم ما يعني هذا الكلام، سألتها أن تشرح لي ما معنى عايبة، فزجرتني وقالت بكرا تعرفي لوحدك، وعرفت عندما كبرت أن المسكينة أحبّت بعد موت زوجها، أحبّت أكثر من رجل، ربّما كانت بحاجة إلى رجل يقف بجانبها ويتحمّل معها مسؤولية أطفال صغار بدون أب أو معيل، وربما أحبّت لأنها كانت صبيّة وما زالت بحاجة لأن تحبّ وأن تصادق جسدها، فلم تسلم من كلام الناس الذين كانت عيونهم تلاحقها، تغار النساء على أزواجهنّ منها، ويحوم حولها الرجال وكل واحد ربّما كان يحلم بها في الليل، حوصرت سكينة وصارت مثلما لو أن الآخرين قرّروا إعدامها ببطء، وإمعانًا بالقسوة عليها كانوا يرسلون لها صدقاتهم شرط أن تبقى بعيدة وتقبل هذا البعد والإقصاء عن مجتمعهم، ويتفاخرون بنبلهم وكرمهم وسموّ أخلاقهم.

كنت بعمر الخامسة عشر، وكان الأستاذ قد اعتاد المجيء إلى بيتنا والجلوس مع والدي ومع رجال الضيعة الموجودين لتمضية الوقت المتطاول الذي لم يكن هناك كثير من المجالات لتمضيته، الأستاذ القادم من الشام، السّحر الأول الذي مسّني منذ زيارة المعرض.

كان الأستاذ شابًّا في بداية عشرينيات عمره، أول ما كان قد تخرّج من الجامعة وجرى تعيينه مدرّسًا في الإعدادية الحديثة في

المنطقة، وكانت أوّل محطّة يستريح فيها ويبدأ أوّل خطوة في مشواره بيتنا، بل دكانة أم جهيدة، ما زلت أذكر اليوم الذي نزل فيه من باص الهوب هوب، شاب يشعّ وجهه بالنضارة والحيوية، تعلو ملامحَه مسحةٌ من الحياء الناعم، حمل حقيبة جلدية كبيرة محزّمة بأحزمة لها مشابك معدنية وتقدم نحو أبي الجالس أمام الدكان تحت شجرة الزنزلخت، حيّاه واستأذن بالجلوس. عرّف عن نفسه مباشرة وصرّح بمبتغاه، قال إنه مدرّس مكلّف بالتدريس في الإعدادية وإنه جاء من الشام، فرحّب أبي به بحرارة ودخلا في حديث طويل ومنوّع، عرض والدي عليه اصطحابه إلى بيت المختار وهناك سوف يقدّمون له كلّ عون، لم يرضَ والدي أن يذهبا قبل أن يتناول طعامًا في ضيافته، قال له هذا دكان خالتك أم جهيدة، وكانت أمّي جالسة قريبًا من باب الدكان فأغاظها كلام والدي وصحّحت، أم زيزفون يا ابني، ما بحبّ حدا يناديني أم جهيدة، فضحك والدي باعتبار أن المشهد يجري أمام شخص غريب وليس من اللائق كشف السّتر أمامه، فلو كان الموقف حدث أمام أحد من أهل القرية لردّ عليها بلسانه السلّيط ولربما كانت اشتعلت معركة بينهما، قامت أمّي وجهّزت طبقًا من القش عليه العديد من الصحون من بينها الزبدة والشنكليش وصحن كبير من البيض البلدي المقلي بالزبدة وآخر من البطاطا المقلية وصحن من السلطة الخاصة التي كانت تصنعها وما زلت أتذكر طعمها اللذيذ كلما نويت أن أصنع لنفسي واحدًا يشبهه، كانت سَلطة بسيطة لكنها رائعة المذاق، بندورة مفرومة ناعمًا وبصل وزيت وملح وحامض، أفقر صحن سلطة أعرفه لكنه أطيبها، حتى

عندما كانت تستبدل عصير الحصرم الذي كانت تخزّنه مؤونة للأيام التي لا يكون فيها موسم حمضيات، بعصير الليمون.

لم يشأ الأستاذ في ذلك العام العودة إلى أهله في دمشق بعد إغلاق المدارس، كان قد عقد العزم على استغلال جزء من عطلته الصيفية بالسباحة في البحر والتمتّع بالشمس على رمال الشاطئ، والترحال في بعض المناطق الريفية والمصايف في الساحل الذي لم يكن قد زاره إلّا في رحلة مدرسية عندما كان في المرحلة الإعدادية كما يقول، كان يحكي لنا عن مصايف الشام وعن غوطتها وعن السيرانات التي يحبّها أهل الشام، لكن للبحر نكهة خاصة كما قال، فهُم في الشام لا يعرفون البحر، استغلّ وجود سكن له في الضيعة لقضاء جزء من عطلته الصيفية، فهو عندما جاء للمرة الأولى ونزل أمام الدكان واستقبله أبي وتعرّف إليه وعلى مقصده، صحبه إلى بيت المختار حيث تبنّى المختار أموره وأمّن له غرفة عند إحدى العائلات في الضيعة، بيت أم محمود المرأة السبعينية التي تعيش مع زوجها الذي يكبرها بعدة أعوام بعد أن كبر أولادهما وتزوجوا وسكنوا في أماكن بعيدة كلّ واحد بحسب شغله، فجميعهم قد أكملوا تحصيلهم العلمي في الجامعات، كانت أم محمود وأبو محمود يتمتعان بصحّة جيّدة وهمّة عالية، ولقد أخذا على عاتقهما تأمين احتياجات الأستاذ، بقي الأستاذ يتردّد على بيتنا ويجلس مع الآخرين ويشاركهم في أحاديثهم ويحكي لهم عن مدينته وأهله وعاداتهم، كان مرحًا أليفًا يشعر الآخر معه أنه يعرفه منذ زمن، ولقد قامت علاقة بينه وبين بعض شباب القرية، وكان أديب يحضّر للشهادة الثانوية بعد أن رسب فيها في

أوّل مرة، أديب كان تجربة العشق الأولى لديّ، اكتشفتُ مشاعري وخبرتُها للمرة الأولى عندما التقت نظراتنا في أحد المشاوير عند المغرب على الطريق، كنت أشعر بوهج في وجهي وارتجاف ناعم في أعماقي كما لو أن حمّى تجتاحني عندما ألمحه في الجهة المقابلة مع رفاقه، ويزداد ارتباكي عندما يقطعون الشارع لينضمّوا إلينا، وكان هذا يحدث بشكل عفوي لأن الاختلاط كان أمرًا عاديًّا في أماكن ومناسبات كثيرة، لكن والله أمرهم كان عجيب يا زيزفون، إذا الواحدة حبّت يا ويلها تصبح سيرتها على كل لسان، لا يمكن أن تفلت منهم حكاية ولا يمكن أن يكون هناك أسرار في ذلك المجتمع الصغير.

كان الأستاذ يدرّس اللغة الإنكليزية وكان مولعًا بالروايات، صار يجلب لي بعضًا منها، خاصة بعد أن عرف أنني لن أتابع دراستي بعد الإعدادية، وأنني أحبّ الروايات، وأخمّن أنه كان يريد أن يعبّر عن ممنونيته لأبي، واستقباله إياه ومساعدته...

وأنا أستحضر تلك الذاكرة يصيبني شيء من الحزن على تلك الروح التي كان يتمتع بها مجتمع الضيعة وكيف حلّ بها الخراب، كانوا منفتحين بسطاء يهرعون إلى المساعدة ويتلهّفون على الضيف، ولقد فهم الأستاذ هذه الطباع وأحبّها وقدّرها. في يوم السّليقة كانت المواقد المنصوبة من الحجارة تحمل القدور الكبيرة التي تراكم عليها هباب الاحتراق خلف البيت، حيث توجد فسحة كبيرة ويوجد سلّم خشبي يوصل إلى سطح الغرفة الكبيرة، كان الدست يُفرغ في قصعة ضخمة من القصب، يتناولها الرجال ويصعدون

فيها بعد أن يسيل الماء عنها إلى السطح حيث يفردونها وهم يتضاحكون ويتمازحون ويغنّون بحماس:

شفتا بتصَوّل حَبّا،

قلبي من جوّا حبّا،

ليش خلقتا يا الله؟

كلّه تعب منشاني.

ثم يضحكون ويتمازحون ويتغامزون، ويُنزلون الدفعة التي كانت قد سُلقت في اليوم الأول من أجل قشرها، من خلال ثقب كبير في سقف الغرفة هو الروزنة، ثم يجمع من جديد ويذهب به إلى حيث النساء يقمن بدقّ الحنطة بالمِجنّ في جرن حجري وتكويمها ليقمن بعد ذلك بفصل القشور عنها بالتسفية، فتضع الواحدة منهن كومة من الحنطة في طبق من القش تُرقّصه بين يديها بخفة ورشاقة مع النفخ عليه حتى تتطاير القشور، كان المكان كما لو أنه مهرجان وكان الأستاذ مبهورًا ويحاول أن يشارك على استحياء في هذا العمل الجماعي، خاصة عندما يقترب من مكان عمل النساء، فكان يخفض بصره ويستأذن بالمرور، لكن الرجال يحلفون أيمانًا بأنهم لا يرضون فهو ضيفهم، كان خجولًا يحسب حساب كل حركة أو خطوة فقد أسرّ إلى والدي بأنهم في الشام ليسوا معتادين كثيرًا على هذا الاختلاط العفوي، خاصة عندما كان يقترب من حيّز النساء، كما أبدى دهشته من هذه العمليات المجهدة والشاقة وعرف أنها جزء من حياتنا حينها.

كان أديب بين الرجال وقد جاء على نيّة المساعدة، كنت قد وافيتُه مرّات عديدة في لقاءاتنا السرّية عند الساقية، عرفت معه أوّلَ الحُب وأوّلَ القُبل وأوّلَ الدهشة، كنت أعرف أنه لم يأتِ من أجل المساعدة وإنما من أجلي لكن المساعدة ذريعتُه، وكان يلاحقني بنظراته إنما لم تكن تلك العاشقة المتلهفة، كانت عيناه تقدحان وهو ينقّلهما بيني وبين الأستاذ، وقد كان الأستاذ قد أحضر لي معه رواية أحدب نوتردام، وكان يقول لي بعد أن تقرئيها سوف تحكي لي عنها، الأحدب الذي حزنت عليه عندما شاهدت احتراق الكنيسة التي طالما قرع جرسها، على الشاشات منذ عامين. صاح والدي من فوق السطح لأحضر إبريق الشاي وأقدّم للأستاذ كأسًا منها وأحضرَ كؤوسًا كي يشربوا بعد نزولهم، لا أعرف كيف أصبح أديب ورائي في الدّاخل بخفّة، أمسكني من ذراعي بقوّة وهصرها قائلًا من بين أسنانه التي تكزّ على بعضها البعض: شو في بينك وبينه؟ صدمتني المفاجأة، وقفت أنظر في عينيه ذاهلة أحاول أن أفهم. بيني وبين من؟ هصر يدي حتى شعرت أن عظامي تُهرس في قبضته وازداد احمرارُ عينيه. بينك وبين ابن الشام يا قليلة الأصل. لم أصدّق، شعرتُ أن ما يحصل يحصل في نومي، نترت يدي من قبضته فالتقطها ثانية وقال: شوفي وليه، يا ويلك من انتقامي، سامعة؟ ما بيكفي أنك بتخونيني، وزيادة مع الغريب؟ مع واحد من غير ملّتنا؟ في تلك اللحظة شعرت بأن في داخلي بركانًا سينفجر ويحرق كل من حولي إذا لم أردّ الإهانة. من أعطاه الحقَّ ليقول لي هذا الكلام ويعتدي عليّ، أنا لست ملكَهُ ولست مُلكَ أحد. لا أعرف من أين أتتْني تلك الجرأة على مجابهته حتى لو افتُضح

أمري، قلت له لا علاقة لك بي، هذا شأني ولم أطوّب على اسمك، سامع منيح؟ اخرج من هنا وإياك أن تعترضني، انسَ ما بيننا، حتى ما كان بيننا لم يكن إلّا نوعًا من التسلية. كنت تتسلّين يا بنت الـ...؟ يا مربّاية؟ طيب أنا أعرف شغلي معك، ورفع يدَه ليصفعني فكانت يدي أسرع إلى التقاطها وردعها. غادر مختفيًا كالشبح لكنه ترك خلفه لسانًا من اللهب بقي يحرقني ويؤرق ليلي، شعرت بالغبن يومها، شعرت بشيء لم أفهمه جيدًا حينها، لكنه كان يشبه طعنة أصابت شيئًا عزيزًا عليّ.

امتنعتُ لمدّة بعد ذلك الموقف عن المشاوير عند المغيب مع صبايا الضيعة، وكانت ريحانة رفيقة المدرسة، لكنها كانت تكبرني بعامين، وكان لديّ الكثير من الذكريات معها، ذكريات لا تتعدّى أحداث طريق المدرسة ونحن نقطعه سيرًا على الأقدام ذهابًا وإيابًا بعد أن تركنا الطرطيرة، لم نكن نستظرف بعضنا البعض، أسأل نفسي وأنا أستعيد تلك الذكريات كيف لطفل أن يستقرئ شخصية على علاقة بها؟ أم إن الفطرة هي المعيار الأكثر دقة والأصدق؟

لم تكن ريحانة حينها قد توجّهت إلى أي نشاط فقد كنا صغيرات، لكن كان يبدو عليها الحماس الزائد في أثناء تحيّة العلم وفي الاحتفالات التي تقيمها المدرسة الإعدادية بمناسبات أو أعياد وطنية، وكانت تعرض نفسها وبكثير من الإلحاح من أجل المساهمة في تلك النشاطات، ريحانة صارت بعد أن كبرنا من النساء اللواتي تظهر أسماءُهن في الصحف وتُجرى معها الحوارات

واللقاءات الإذاعية ثم التلفزيونية، كما أنها صارت تكتب في الصحف ولها زاوية خاصة في أكثر من صحيفة، لتنتقل بعدها إلى الأدب والقصّة. لكنني لم أفاجأ بها في السنوات الأخيرة وهي تظهر بكثافة على التلفزيون كضيفة شبه دائمة على البرامج الحوارية التي تفنّد الوضع الراهن والمؤامرة التي كانت الحديث الشاغل للإعلام، وكانت تظهر مع الفرق الحكومية التي تقوم بتكريم الشهداء في بداية الأزمة في البلاد، كانوا شبّانًا بعمر الزهور وكانت ريحانة تخطب بأسرهم المفجوعة بموتهم وتستنطقهم من عمق قهرهم وحزنهم ليهدوا الشهادة للوطن وقائده.

كنتُ متحفّظة حدّ الخرس مع ريحانة، وكلما صمتُّ أكثر ازداد إلحاحها على معرفة سبب امتناعي عن المشاوير، كانت تبدو كأنها تسعى إلى انتزاع اعتراف مني حول أمر تعرفه تمامًا، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي أقنعتني فيه بالخروج، وكنت قد تجاوزت ضمنيًّا ما حصل بيني وبين أديب، فخرجتُ معها وعرضتْ عليّ أن نتنزّه في الأراضي وليس على الطريق المعبّد، قالت لي ألم تشتاقي إلى الزهور البرّية والطّيّون والزعرور؟ روحي نمشي على حدود المَوشة ثم نُشرّق على حدّ الساقية نحوّش زعرور وحَبّ ديس. بقيت تلحّ عليّ حتى سحبتني معها وقد كنت أقنعت نفسي بأن التنزّه في البرّية يحميني من لقاء أديب، كان الغروب جميلًا حينها، وكنت أسمع من بعيد خوار بقرة أو نهيق حمار، وأسمع بعض الأصوات تنادي على آخرين، وتعبق في الجو رائحة الحطب والدخان يتصاعد من بعض البيوت في كل الاتجاهات، كان وقت الخبز على التنور، أمّا أمّي فكانت تخبز في الصباح الباكر قبل شروق الشمس بقليل، كان

الجو مفعمًا بسكينة خلابة والأفق يتلوّن بألوان الغروب تنعكس على صفحة البحر من بعيد حيث تتراءى مدينة جبلة مثل طيف يسترخي على حدود الغسق. فجأة يظهر أديب أمامنا فشعرت بأن تيّارًا صعقني، لكن ريحانة بدا عليها أنها لم تتفاجأ، قالت له الله يعطيك العافية، شو جابك لهون؟ ليش مانك مع سلمان بالمشوار؟ سلمان كان أخاها الذي يكبرها بعامين، وكان يدرس في الجامعة في سنته الأولى، كانت تحكي لي في الطريق عنه وكيف أنه يدرس بالمراسلة، وأنه سوف يأخذ شهادة جامعية ويتوظف، وسيكون له شأن كبير في المستقبل. لم أفهم كيف تتنبّأ له بهذا الشأن، ولماذا تحكي لي أنا بالذات، وبالفعل صار سلمان مثلما أراد فقد أصبح مديرًا عامًّا لإحدى المؤسسات. اقترب أديب منّا وقال: كيفك يا ست جهيدة؟ أغاظني أنه كان فيما مضى يناديني زيزفون، بل كان يغنّي لي:

على دلعونا وعلى دلعونا

أنا عشقانك يا زيزفونا.

وعلى دلعونا وعلى دلعونا

حبّك يا حلوة ملو هالكونا،

لو نسّم صوبك هوا الشمالي

بخبّيكِ برمشي وجوّا العيونا.

وكنت أحمرّ استحياء وغبطة، لم تدم غبطتي تلك إلّا شهورًا قليلة حتى صار ما صار. وقف في مِواجهتي وراح يقترب إلى أن صار

وجهه في وجهي، سألني كيف الأستاذ؟ أما زال يجلب لك القصص حتى تصيري مثقفة مثله؟ وراح يضحك كما لو أنه روى نكتة غير مسبوقة، بينما ريحانة واقفة تتفرج على المشهد وقد عقدت يديها أمام صدرها واسترخت في وقفتها. نظر إليها وقال: الآنسة مغرمة بهذا الغريب، تخيّلي، لا، وليس هذا فحسب، بل تدافع عن نفسها. شوفي وليه أنا وراك، والله سوف أجعلك تدفعين الثمن. نظرت إلى ريحانة فبقيتْ على صمتها وكأنها تتشوّق للوصول إلى النهاية، درت جانبًا أريد أن أمشي لكنه أمسكني من يدي وكرّر تهديده: سوف أجعلك تندمين. انتزعتُ يدي من قبضته ومشيتُ لا ألتفت خلفي، بينما بقيت ريحانة معه، وانقطعت علاقتي بها منذ ذلك الموقف إلى اليوم.

4

مات سعيد، بهذه الحيادية قابلني مُنيّر ورمى الخبر في وجهي، شعرت أن الدنيا تهوي بي إلى قاع سحيق من العتمة والصمت، سعيد مات؟ يا إلهي، كيف يحدث أن يموت النقاء والطيبة والأخلاق والحق؟ مُنيّر كان الوحيد الذي يعرف علاقتي به، فقد كان مرسالي إليه وكان يعرف كيف يحفظ السرّ. سعيد كان زادي في سنوات القحط الأخيرة، وكان مستودع أسراري والوحيد الذي كان يفهم معنى الحريّة التي صارت منذ ذلك اليوم أعزَّ شيء يخصّني وأكثر شيء أدافع عنه.

لم أكن قد التقطتُ أنفاسي بعد عندما فاجأني بهذا الخبر الذي نزل كالصاعقة على رأسي والإعصار على قلبي فكاد ينخلع من صدري، وقفتُ قبالته كالصنم أنظر إليه وأنتظر أن يشرح لي ما معنى أن يموت سعيد، ما معنى أن يموت والألغاز كلّها في صدره لم تُحلّ، وهموم الدنيا وخيباتها مجتمعة؟ أن يموت من خسرَ حياته، قبل أن يموت، من أجل الحق والبحث عن الحقيقة؟ كان يقول لي روحي عيشي كما ترغبين لكن لا تساومي على نفسك، دافعي عنها ولا تضعفي أمام أي شيء. كنت كلّما مررتُ بتجربة ألتجئ إليه، أبكي أحيانًا وأهزأ من نفسي أحيانًا أخرى، وأسأله أن يُفسّرَ لي ما يجري مرّات كثيرة، سنوات طويلة كان سعيد بالنسبة إليّ الإنسان الحقيقي الوحيد، كل من عرفتُهم وكل من كانوا يخصّونني كانوا مُزيفين، أما سعيد فكان مختلفًا، لم أفكر في يوم أنني سأخسره،

بل كان يعيش في وجداني كحقيقة الحياة، لكنّه مات. لا أريد أن أصدّق أنه مات.

حرت بماذا أفعل؟ كان لا بد لي من العودة إلى البيت لأطمئن على أبي، لقد صار كومة من العظام والجلد المترهّل الجاف، حتى صوته صار ينوس ولم يعد قادرًا على الكلام المسموع، بل صار صوته أكثر ما يشبه مواء القطط، وكل يوم كان يكرّر أمامي كما لو أنه يحادث نفسه، لستُ خائفًا من الموت، بل أنا عشت عمرًا أكثر من عمري، كان يجب أن أموت من زمان، كان يقول: شو الفايدة من السنين إذا كان الجسم ميت يا بنتي؟ وكنت أواسيه: البركة بعقلك وذاكرتك يا بيّي. كنت أضمرُ في أعماق نفسي عتبًا جارحًا عليه، منذ ذلك اليوم الذي تقاعس فيه عن حمايتي، أحاولُ مرّات كثيرة أن أفهمَه كي أجدَ له المبرّر حتى أرتاح من هذا العتب الذي يصل حدّ اللوم الموجع، لكنني أتوه من جديد، أبي الذي صار يذوي وينسلّ شيء منه خلسةً منذ خسرنا الحرب.

دخلت البيت وكان رأسي خليّة نحل أفلتت نحلاتها وراحت تطن فيه، أخاف من الدخول على أبي وأنا على هذه الصورة من الأسى والفجيعة، لكنه شعر بوجودي فأتاني صوته الناحل ينوء بالرجاء، دخلت إليه، شعرت بعاطفة تحرقني تجاهه، لا أعرف هل هو حبّ جاء متأخرًا جدًّا أم شفقة عليه، أم رأفة بشيخوخته التي تطاولت وأمعنت في تكريس هزيمته؟ لحظتها انهمر عليّ سؤال كثيف مؤسٍ، كم طول يوم أبي؟ كم عدد ساعاته؟ ساعاتي الأربع والعشرون كانت تبدو طويلة عندما أعود إلى البيت وليس لدي

الكثير مما أفعل، فكيف وهو الجالس على كرسيه لا يستطيع التنقل بين سريره وكرسيه من دون مساعدة في النهوض، وعندما ينهض يستند إلى عكازه ويمشي كالدبيب حانيًا ظهره حتى لا يكاد يرتفع عن مسند الكرسي، أبي أمضى ما يقارب نصف عمره شبه مقعد، كيف مرّت أيّامه ولياليه؟ وكأن الحزن والقلق والخوف من الفقدان كلّها تهجم مع بعضها في لحظة مواجهة الموت بفقدان شخص عزيز، تربكني هذه المشاعر، أريد أن أكون قريبة من سعيد، أن أقف على حدود موته، أريد أن أهمس في أذنه قبل صعود روحه إلى السماء علّه يسمعني، يقولون إن الروح تبقى مدة تحوم فوق جسد الميت، كيف أستطيع أن ألتقط أذنها كي أهمس فيها بأنه كان عشقي الوحيد وأنه كان لشدّة ولعي به أسمى في قلبي من أن أشارك نفسي به.

كان قلبي يبكي عندما دخلت على أبي، فبكيت أكثر وأنا أرى الانكسار في عينيه، قال لي: تأخّرتِ. لم يقل أكثر، وقالها للمرّة الأولى. كيف أشرح ما لا أقوى على شرحه؟ ماذا أقول وفاجعتي بحجم الكون لكنها مطمورة في قلبي، من أين آتي بالحيلة كي أداري حالتي وأحتضن أبي الذي صار كطفل صغير؟ لأول مرة أرى الخوف في عينيه. سألني عن الانفجار، قال لي كان البيت سيهوي فوق رأسي وكنت وحدي، كان مُنيّر في البرّية. وقال إنه خاف عليّ فهو كان ينتظرني طيلة الوقت وعندما تأخّرت ودوّى الانفجار استباحه الخوف من أنني ربّما كنت في خطر. قال لي إن مُنيّر أخبره عندما عاد أن الدخان يتصاعد من مدخل جبلة، وأن أصوات سيارات الإسعاف مسموعة من بعيد، وأن هناك من أخبره بأن

الضحايا عددهم كبير. قلت له لا تهتم يا بيّي، ليس الأول ولن يكون الأخير، ثم ما بيدنا لنفعله ولم نفعل؟ راح يبكي مثل طفل صغير، بكي وراح يشهق حتى لم يعد بإمكانه مواصلة الحديث، يبكي ويقول سأموت وفي قلبي حرقة على هالبلد، لماذا يتآمرون عليه؟ طوّل بالك يا بيّي، بكرا بترجع سوريا أحسن من الأوّل، أصلًا لازم ترجع أحسن من الأوّل وإلّا ما قيمة الدم الذي سقى ترابها؟ صار يشهق أكثر ويقول: يا بنتي أنا خايف من الأعظم، خايف عالبلاد وليس على نفسي، أنا سأموت، لكن خوفي أنو تصير سوريا في الأيام القادمة بإيد التكفيريين، ويصير الناس بعدها غير قادرين على العيش مع بعضهم البعض. لم أشأ أن أجادله في قناعاته وهو على أبواب التسعين مكوّمًا أمامي مثل هيكل مطوي، لم نتفق أنا وهو طيلة السنوات الماضية على رأي أو موقف مما يجري، هو الذي أمضى عمره يتّهم النظام على ممارساته مع الشعب، على فساده وفساد رجالاته، على زجّ المخالفين برأيهم في السجون، بل كثير من رفاقه أو معارفه أمضوا سنوات طويلة في السجون كانوا ينتمون، إن كان بالفعل أو بالتعاطف، إلى أحزاب يحاربها النظام، صار يرى في انتفاضة الناس المسحوقين مؤامرة، وأن المقصود تركيع سورية وخراب شعبها وتدمير مؤسّسات الدولة حتى لا تعود تقوم قائمة لها وتصبح مرتعًا للنفوذ والسيطرة واستغلال ثرواتها. نسي أن كل ما كان يحكيه في الماضي، خاصّة بعد الحادث المشؤوم ذاك الذي تعرّض له فكسر إرادته وسحق كرامته، كان كافيًا ليمنح الناس شرعية انتفاضتهم، لكنه لم يفعل، صار مؤمنًا يومًا بعد يوم أن المستهدف هي سوريا بسموّها وأهميتها ودورها

القومي، وزيادة على ذلك أن الطائفة مستهدفة وبقوّة، ولم أكن أملك الحجّة الكافية لأنفي عن حراك الناس هذه التهمة، إذ يومًا بعد يوم كان الحراك يذوي ويتراجع أمام المدّ الإسلامي وسيطرة القوى الإسلامية على الموقف وتمثيل الحراك في الخارج، وازدياد الفصائل المسلحة المتطرّفة وخطابها الطائفي والإقصائي الكاره للآخرين. كان يطلب منّي أن أضع كرسيّه في الفسحة الغربية أمام البيت حيث يطلّ على الطريق، وآخذه ليجلس هناك يرصد مواكب التشييع لضحايا الجيش من المنطقة، كان يبكي ويقول انظري، شباب متل الوردة كيف يقتلون بحقد، ما بقي بيت في هذه المنطقة إلّا وقدّم شهيدًا أو اثنين أو أكثر. لقد أصبح طريق الضيعة الصاعد باتجاه الضيع الأخرى حتى الشعرا مرصّعًا بصور ضحايا الجيش، كلّهم شباب بعيون فاغرة على الدهشة والخوف. أحيانًا لا أستطيع ضبط نفسي فأردّ عليه: والله قلبي بيتقطّع على هالشباب، بس يا بيّي، يعني الله يكون بعون الناس الساكنين بالمناطق التي فيها مواجهات، شف كيف البراميل تنهمر عليهم من السما وهم نايمين ببيوتهم، أو أمام الأفران حتى يحصلوا على خبزهم، طيب شو ذنب هالناس؟ تسألين ما ذنب هالناس؟ أنا حزين عليهم ولا بتمنّى لنملة أن تُمسّ فكيف بالنساء والأطفال؟ لكن ليش يسمحوا لأولئك المسلحين الحاقدين أنهم يسكنوا بينهم؟ ليش ما ينتفضوا ضدّهم مثلما انتفضوا ضدّ الحكم في سوريا؟ مؤكّد أنهم يؤيدون المقاتلين ويحضنونهم ويريدون سوريا كلها لهم حتى يطبقوا الشريعة. نحن يا بنتي لا نقدر على العيش بشريعتهم، أصلًا هم لا يعترفون أن لنا الحق في الحياة لأننا كفّار،

ما سمعت كيف حتى ولادهم عم يردّدوا بالذبح جيناكم؟ والله أنا مقهور لأنها ليست سوريا التي كانت بعد هزيمة الفرنسيين، ولا حتى قبل أربعين سنة أو خمسين. كنت أصمت كي لا أجرحه، أريد أن ألفت نظره إلى أنه هو من يحدّد تاريخ الانحدار وليس أنا، ألا يقول خمسين سنة؟ كان بودّي أن أقول يعني يا بيّي من لمّا استلم السلطة الحزب اللي كنت رافع راسك فيه، لكن في سرّي أقول ما الفائدة من محاججته؟ لذلك أصمت.

جلبت له كأس ماء، ربتُّ على ظهره، مسّدت تلك الخصلات القليلة الطويلة البيضاء التي بقيت على رأسه، شعرت بحاجة لأن أحضنه كطفلي الصغير، طفلي الذي لم يأتِ، وشعرت أنني أسامحه في تلك اللحظة عن كل ما جرحني بسبب تقاعسه، بل أغفر له. في لحظة اختلطت عواطفي وتكثفت وراحت تعشّش في ثنايا نفسي، تقبض على تلابيبها، كدت أختنق وأنا أرى ضعفه ودموعه التي تجري في أخاديد وجهه العميقة لتأخذ شكل الأنهار والسواقي، دموع كأنها تتفجر من ينابيع قلبه. أقدّر صدقه وأفهمه ولا أشكّك به، كما أعرف أنه لا يكنّ شعورًا كارهًا لأحد حتى لو كان دافعه طائفيًا، أبي صار خلال سنوات عمره الخائبة أكثر تديّنًا وأكثر التصاقًا بجسد الطائفة، جسد جماعته الكبيرة التي صارت هي السند الروحي له، ربّما بسبب عجزه وخوفه من المجهول بعد أن فقد جسده قواه، لكنه لم يضمر مشاعر كره إلّا لأولئك الإرهابيين القتلة كما يصفهم، بل حافظ على علاقاته مع العديد من رفاقه القدامى من مدينة جبلة، أولئك الذين توطّدت علاقتهم ببعضهم بعضًا خلال مسيرتهم الحزبية، فغالبيتهم كانوا ينتمون إلى حزب

البعث، وكثير من هذه الغالبية ترك الحزب والنضال كما يسمّونه بعد أن انحدر الحزب إلى مستويات لم يقبلوها بعدما سيطر العسكر عليه كما كانوا يقولون، لكنهم بقوا يعيشون حياتهم بنسغ الحزب ونسغ أهدافه العريضة، نسغ القومية العربية التي كانت أهم مقدّساتهم، وبعضهم كان ينتمي إلى أحزاب أخرى كانت في فترة ما على خصومة مع البعث لكن الزمن أحالها إلى علاقة أخرى، كان من بين رفاقه الذين يسمّون أنفسهم فقراء البلد وكادحيها، من هم ناصريّون أو ماركسيّون، ففي أيامه كان الجميع متحزّبين، ومنهم من دخلوا المعتقلات لسنوات ليخرجوا إلى العالم غرباء عن الدنيا وعن أنفسهم، عاشوا معًا عمرًا زاخرًا بالأحداث، بالأحلام والآمال والخيبات حتى انتهوا إلى رجال هرمين يمضغون الوقت ويجترّون خيباتهم ويبكون دمًا على بلادهم التي تهاوت إلى قاع من البؤس والخراب.

أردت أن أهرب من مواجهة ضعفي أنا أيضًا، كنت بحاجة إلى أن أنفرد بنفسي، وأعيش حزني في ساعاته الأولى حتى لا تنهار مقاومتي أمام الآخرين وأنا أودّع سعيد معهم، سوف تكون كل الضيعة هناك، أو من بقي من أولئك الكبار الذين عاصروه، لا أملك أي سند قانوني أو شرعي يجعل وفاة سعيد أو وداعه الأخير شأنًا يخصّني، لن أستطيع تقبّل عزاء المعزين ولا بركة المشايخ الذين سيتوافدون ربما أكثر من المعزّين لأجل قراءة الفاتحة أو بعض الأدعية عن روح الفقيد، ثم يقبضون أجرهم ويدسّون أيديهم في جيوبهم وهم يترحّمون ويمعنون أو يغالون في وصف مناقب الميت ومعظمهم لا يعرفه، لكنه شغلهم الذي طالما أثار غيظي،

وطالما رفضه سعيد أمامي وتندّر على سلوكهم. كان ألمي عظيمًا ويُتمي أعظم، لن يكون هناك من يواسيني أو يخفف عني مرارة الفقد، لن يكون هناك من يقول لي البقية بحياتك، الله يرحمه، الله يطوّل بعمرك ويعطيك القوّة حتى تنسي حزنك، الله يصبّرك، لن يكون لدي من يطلق دعاء لأجل راحته وسكينة روحه ويواسيني إلّا مُنيّر، لكن مُنيّر لن يفوّت السّبق إلى مناسبة كهذه، أعرفه فمن المؤكّد أنه الآن هناك، حيث يندبون ويبكون ويترحّمون ويحضّرون للدفن، وسوف يكون أوّل من يعرض خدماته، فهناك حفر القبر وهناك تأمين خيمة المعزّين والكراسي من جمعية دفن الموتى في الضيعة، وهناك الطاولات وعدّة القهوة وتفاصيل كثيرة سيكون مُنيّر ممنونًا إذ يكلفونه بخدمات منها، ثم سيأتي لاحقًا ويحكي لي بينما نيران صدري تحرقني بصمت كنسيس الصوف. بيني وبين سعيد عمر بحاله، أكثر من خمس وأربعين سنة وهو يعيش في وجداني مثل الهواء أختنق بدونه، منذ ذلك اليوم الذي ترك كلابه تنقضّ على الشيخ يوم أرادوا أن يمتحنوا عفّتي بحشري في طاقة الإذلال تلك، لا أعرف كيف جاء، فالمزار كان بعيدًا عن قريتنا، نمت يومها مع أمّي في بيت أحد أقربائها، لم يكونوا أقرباء بالفعل، كانوا من جماعتها، من جماعة أهلها، وفي ذلك الليل الذي كان الجميع متعبين فيه هربت مثل الجنيّات وأشعلت النار في المزار ورجعت كأنني أمشي في نومي، أشعر أن كلّ هذا حدث في المنام، في اللحظة التي مات فيها سعيد فقدت اليقين حتى تراءت حياتي كلها كمنام حلمت به في ليلة بعيدة ويكاد يفرّ من مخيلتي.

وقفت أحتار بما عليّ فعله، هل أخبر أبي وهو على هذه الحالة

من الضعف بموت سعيد؟ سوف يحزن عليه إنما سيقول لقد ارتاح، فسعيد بالنسبة إليه ما زال سْعيّد المتوحّد في حياته وسلوكه، الذي يعيش مع كلابه في تلك العزلة المديدة حتى أصبح شبه منسيّ في الضيعة، حتى إن الضيعة لم تعد تأبه به أو بغيره من القدامى الذين كانوا، لقد تغيّرتْ، ما بقي من بيوتها القديمة صار أطلالًا أو متروكًا للهجران والريح والأفاعي والعقارب تستبرد برطوبته في أيام القيظ، وتضاعفَ عدد البيوت الجديدة عدّة مرات، صار فيها مخازن ودكاكين وصيدليات وأفران وورش حدادة وكثير من المهن والمنشآت الأخرى، صار فيها أبنية من طوابق يسكنها العديد من الأجيال الجديدة الذين يعملون في جبلة أو في المنشآت القريبة، لديهم تلفزيونات ولديهم أطباق للبث الفضائي، يحملون الجوّالات ولديهم أنترنت، وهناك العديد من البيوت التي تقف أمامها سيارات خاصة، لم تعد الضيعة كما كانت ولم يعد أهلها هم أهلها، ولم تعد البساتين والكروم تترامى في كل الاتجاهات فقد اقتلع الكثير من أشجارها ونهضت مكانها كتل إسمنتية.

قلت لأبي إنني أعاني من الصداع والإرهاق وسوف أدخل غرفتي لأرتاح قليلًا، أمّنت له ما يحتاج، فتركت له جهاز التحكم بجانبه على الطاولة الصغيرة مع كأس الماء، فهو سوف يشغّل التلفزيون بمجرّد وصل التيار الكهربائي فيما لو صدق برنامج التقنين، ونادرًا ما يصدق.

كنت بأمسّ الحاجة إلى الانفراد بنفسي، أريد الحديث مع سعيد، أريد معاتبته لماذا رحل من دون أن يخبرني، لماذا لم ينتظر حتى

نفرح قليلًا بحلم صغير قد يتحقق؟ كان لدي الكثير من الكلام المؤجّل وكنت أرتبه في خزائن أفكاري إلى أن يأتي موعدنا، وعندما يأتي كنت أرتبك ولا أعرف من أين أبدأ، فسعيد كان لديه دائمًا ما يدهشني وما يحرّض التفكير في رأسي، لكن لم يبقَ لدي اليوم غير الذكريات.

*

من الدفتر

هكذا كانت محاكمتي

أخيرًا وصلتْ، كان لا بدّ أن تمشي الأمور مثلما أرادوا، صار بيتنا ككتلة من النار، عراك وصراخ كل يوم بين أمّي وأبي، أمي كانت كمن مسّها جنون، تدخل في نوبات من الصراخ والعويل وتسفح الدموع مدرارة، تصرخ: يا ويلي، لكن بنتي أنا تطلع عايبة ويصيروا الناس يعيّروني فيها؟ ولك أنا بنت عيلة بتربّي بناتها عالشرف والعفّة، لازم تثبت لكل هالناس القاعدين يحكوا بسيرتنا أنها أشرف منهم وأن أمّها ربّتها عالأخلاق والفضيلة. والله والله يا نايف العبّود إذا منعتها تروح على أبو طاقة ما بتعرف شو رح أعمل بحالي ويمكن بالبيت كلّه، تحمّلْ شرّ أفعالك لقلّك. وكان أبي يعاندها ويهدّد، يقول لها إنه يثق بابنته ويصدّق كلامها، وأن ما يُقال بحقّها هو افتراء وكذب وسوف يعرف مَن وراء الموضوع وينتقم منه. لكن أمّي تثور من جديد وتردّ عليه: خلّ مراجلك تنفعك، لكن ما رح تنفعني، أنا ما بقدر أغسل التهمة عن بنتي وعن نفسي وبيتي بلا ما يشوف الكل أنها صادقة وبريئة، والبراءة ما حدا بيقدر يظهرها

غير أبو طاقة دخيله.

كان الخبر قد انتشر في الضيعة مثل النار في الهشيم بأن جهيدة بنت أم جهيدة كانت تلتقي بالأستاذ عند الساقية وشافوهم متخبّايين ورا الدغل وكان يبوسها ويضمّها، ويمكن كان يمدّ يده على صدرها ويمسد على مؤخرتها، ولو تُركت الإشاعة مدة أكثر لربما كانوا اتهموني بأنني خسرت بكارتي وأنني حامل منه، أعرفهم وأعرف مزاجهم وكيف يزهقون أوقاتهم المديدة. عندما سألني أبي ماذا وراء حكي الناس قلت له لا علاقة لي بكلام الناس. شعرت أنني أطعن بخنجر مسموم، ليس فقط لأن القصّة كلها مختلقة وأنا مفترىً عليّ، بل لأن خصوصيتي انتهكت، إذ ما علاقة الناس بي وبمن أرافق أو ألتقي؟ ما علاقتهم إن كنت أواعد الأستاذ أو غيره؟ كان الأستاذ شخصًا مهمًّا في حياتي يومها، فعلى يديه بداية دخلتُ عالم الروايات والكتب ومن بعده جاء سعيد، حزنت لأنه بعدما غادر القرية إلى مدينته لم يرجع حتى بعد افتتاح المدارس في الموسم الدراسي الجديد، فلقد سمعنا بأنه سيق إلى الخدمة الإلزامية ولم يطُل الوقت حتى وقعت الحرب، حرب تشرين. غادر ولم يعرف بالحكاية التي كان بطلها، ومع هذا كنتُ أنا المدانة وليس هو، بقي ذكره كمعلم طيبًا في القرية، لكن من غير المسموح أن تذهب فتيات الضيعة بعيدًا في العلاقة معه. لم أرضَ أن أدافع عن نفسي وأقول إنني بريئة من هذا الكلام، كان حزني وخيبتي في مكان آخر، وكلما أصرّت أمّي على استنطاقي ومعرفة الحقيقة كنت أزداد صمتًا وعنادًا، أجلس على الأرض في الغرفة التي ننام فيها إخوتي وأنا، أثني ركبتيّ وأصالب ساعديّ وأدفن رأسي بينهما، يزداد غضب

أمي ويشتدّ صراخها، وكانت في أعتى مراحل الغضب والهستيريا بعدما رجعت من عند الشيخ عباس، قال لها إنّه من الواجب أن أخضع لامتحان الطاقة، وأنها يجب أن تأخذني ولو بالقوة وإلّا ستلبسني التهمة إلى الأبد، ليس بمفردي بل بيتنا سيكون ملعونًا وستطالها السمعة السيئة فهي ابنة أصول ولا يرضى لها مصيرًا مثله، فازداد إصرارها على أخذي إلى ذلك الامتحان الرهيب، هو لم يكن امتحانًا بل كان عقوبة متفقًا عليها لا أفهم مبرّراتها ودوافعها وأكثر من ذلك سطوتها حدّ دفع الناس إلى الهوس بها والهلوسة بسببها والرعب من نقمتها مثلما حصل مع أمّي، بالأخصّ أنها كانت كما قال أبي حينها شبه منسيّة بعدما تجاوزها العديد من الناس وحاربتها، كما حاربت غيرها من المعتقدات والممارسات الشائعة، شريحةٌ من الشباب كان أبي يفتخر أمام السّهيرة الذين كانوا يملؤون بيتنا ومساءاتنا قبل الحرب الأولى بالانتماء إليهم. أذكر بعض أحاديثهم حينها وتندّرهم على المشايخ وسلوكهم. حتى إن حكاية سمعتها وأنا صغيرة راقت لي وبقيت عالقة في ذاكرتي حكاها واحد من الضيعة عن قريب له يعيش في ضيعة أخرى فيها مزار، كان الناس يحلفون أيمانًا أن الماء ينبع منه وهذا سرّه الذي يؤمن الجميع به ويقدسّونه، لكن هذا القريب الذي كان متمرّدًا حينها على الواقع ويحاول أن يلفت نظر الناس إلى الحقائق وأن يبتعدوا عن الوهم ويشغّلوا عقولهم، شكّ في أمر الزيارة والماء الذي ينبع منها، فقد كانت هناك امرأة دائمة التواجد عند بابها تقوم بالتنظيف حولها، كان موقع المقام على تلّة مرتفعة، ومن فوق كانت المرأة تراقب الطريق باستمرار، تسلّل ذلك القريب من

جهة جانبية من بين الأشجار ولم يظهر على الطريق إلّا قبل المزار بأمتار قليلة، عندما لمحته المرأة هرعت إلى الداخل، وكان أسرع منها، فباغتها بالدخول خلفها وأمسكها متلبّسة بالاحتيال الذي سطا على الناس، كانت تدلق الماء من جرّة فخارية في حفرة تقع في زاوية مخفيّة وفي أسفلها ثقب يتدفق الماء منه فيبدو للخارج كأنه ينبع من المزار. ضحك الموجودون ليلتها على الحكاية وراحت التعليقات تتوالى: "بالله يا عمي ما قصّر... بزمتي عفارم عليه... والله لو كنت محلّه لبهدلتها طالما بتعرف ومتشارك بالغش". أحدهم كان قريبًا من الشيخ عباس، لم يرُق له الحديث، فاعترض مستنكرًا سخريتهم: هلّق صرتوا تتمسخروا على المشايخ الذين هم كرامتنا؟ لولاهم شو كان نفعنا؟ لولا الأعمال الصالحة التي عملها الأولياء الصالحين من كان شفيعنا عند رب العالمين؟ والله يا عمي بعد ما تثقفتوا ما عاد حدا يقدر عليكم.

كان الوقت قبل الظهر، كان قد مرّ عليّ ليل طويل. لم أنم، كان صدري يغلي كالمرجل وأنا أحاول تحطيم شيء يقيّدني كسلاسل من الحديد الحامي، نيران تشتعل في قلبي الذي يصرخ في وجه صمتي، كنت كمن ينتظر تنفيذ حكم إعدامه ولم يعد لديه من الوقت للتفكير بطريقة نجاته. كنت نحيلة الجسم وقدّي يميل إلى الطول، وبالرغم من كون هذه النقطة لصالحي، إلّا أنني كنت أرفض الخضوع للامتحان بالمطلق، لقد سمعت كثيرًا عن الطاقة وعن صغرها، كانوا يقولون إنها تتّسع وتضيق بحسب براءة المتّهم من التهمة الموجّهة إليه وبحسب صدقه في الرّد عليها، فمن يكذب سوف تضيق عليه وتتمسك به. عالقًا في وسطها لا يستطيع التقدم

ولا يستطيع التراجع، بينما من كان صادقًا وبريئًا فإنها ستتّسع حتى لو كان بدينًا يزن أرطالًا كثيرة، فأبو طاقة وحده من يعرف الحقيقة ومن يقرّر ومن يبرّئ ومن يملك سرّه وبرهانه الذي سوف يجلوه على الملأ فترتجف القلوب أمام المعجزة المذهلة، حيث يمكن أن يمرّ الجمل من ثقب جداره فيما لو كان صادقًا وبريئًا، بينما ستضيق الطاقة حتى يكاد الجدار ينغلق على نملة مرتكبة كاذبة، والناس الواقفون أمام المعجزة سيدخلون في إغماءة جماعية يتكثّف فيها الكون كلّه في لحظة خاطفة ويمهر على عقولهم وقلوبهم تلك الحقيقة الراسخة التي لا يمكن دحضها ولا يمكن الكفر بها، إنها لحظة تجلّي القوة بكل جبروتها، القوّة التي تحفظ العدل وتحفظ الناموس وتحمي الجماعة من الانفلات أو الانزلاق إلى مسارب تبدّد روحها.

في لحظة من لحظات الوحشة والقهر فقدتُ الثقة بوالدي، فقدتُ القدرة على تصديقه وتصديق حكاياته، بل فقدت الثقة بكل ما عرف وحصّل من خبرات وكل ما صرّح به من أفكار، كان يقول إن هذه الترّهات مضى عهدها، لقد آن أوان العقل وحان وقت مجابهة المشايخ وكل رجال الدين وكشف الستر عن ألاعيبهم وسطوتهم على عقول الناس ووجدانهم، لكن ما رأيته يومها كان يدحض كلّ تلك الادّعاءات، لم تمت تلك الحيَل ولم يتركها الناس، وبقي عند الكثيرين إيمان بـ" أبو طاقة" أكثر من أي محكمة أخرى، وبقي للشيخ عبّاس جمهوره الذي يرجع إليه ليبارك كل مفاصل حياتهم ويفتي بكل ما يعترض عقولهم من أسئلة.

دارت أمّي بجسدها ناحيتي لتوقظني، كنّا ننام معًا على فراش ممدود على الأرض في بيت أقربائها، لم تكن تعرف أنني لم أنم طوال الليل، فهي المتعبة من كل شيء، ومن همّها الكبير قبل أي شيء، وشعورها بأن حياتنا ومستقبل أولادها ومستقبلها وبيتها كله مرهون باختبار اليوم، كانت قد بدأت تشتكي من تراجع في قواها الجسدية ولم تعد صحتها كما السابق، مدّت يدها إلى كتفي وهزّتني" جهيدة! قومي، حلّك تفيقي. كانت طعنة كبيرة، هي التي ناضلت من أجل أن تُلبسني اسمَ زيزفون، نادتني جهيدة، فأي شعور كاره كانت تضمره تجاهي في تلك اللحظة؟ هل كانت تريد أن تتبرّأ مني قبل صدور الحكم، فأخذت تدرّب نفسها على إخراجي من وجدانها وإرجاعي إلى جهيدة التي لا تحبّها؟ شعرت حينها أنني مقابل إنسانة لا أعرفها، ربما حالتي العصبية والنفسية هي ما جعلتني أرتاب بكل شيء، علمًا بأنني كنت أشفق عليها في أعماقي وأحاول أن أتفهّم إصرارها وتمسّكها بإخضاعي إلى تلك المحنة، يومها لم يكن فهمي إياها مبنيًا على منطق وتفكير حيادي أو معرفة بالدوافع النفسية، لكنني عشت ذلك الشعور، شعور الشفقة عليها ومحاولة زرع التسامح والغفران في نفسي، لقد كان بالنسبة إليها، كما فهمت بعدما كبرت وخالطت الناس من مختلف الشرائح والمعتقدات والطوائف، مقاربةُ اليقينيات أمرًا يربك الأفراد ويدفعهم إلى الشعور بالضعف والانهيار، كانت ترتعب من فكرة أن تُمسّ تلك الأمور التي ورثتها مذ كانت طفلة في بيت صارم شديد التقيّد بالقواعد الأخلاقية التي تبنى عليها حياة الناس في قريتها، المرتبطة برجل الدين والأولياء والصالحين

والكتب والرسل. كانت أمّي كثيرة الأيمان، فهي تستعمل القسم في أي حديث عادي، إن كان للنفي أو التأكيد، فهي مجرد ما قالت: لا حق محمد رسول الله، فهذا يعني نفي أي أمر، وإذا قالت وحق محمد رسول الله فهذا يعني تأكيده المطلق.

"هزّتني بقوة أكثر، فنظرت في عينيها وأشحت بوجهي. قومي، بعدك نايمة؟ والله وبيطلع لك تنامي". كنتُ أستعجل مواجهة الموقف طالما لم أمتلك القوة الكافية لرفضه، سأواجهه وبعدها سيكون لكل حادث حديث، أنا واثقة من أنني سأجتاز الطاقة، ليس إيمانًا بها وبسرّها المقدّس، بل إيمانًا بجسدي النحيل الذي أدركت يومها وللمرة الأولى في حياتي معنى أن يكون ملكي.

كانوا كثيرين، أو ربما هُيّئ إليّ أنهم كثيرون، وكانوا قد سبقونا أيضًا وتجمعّوا في الساحة الأمامية قريبًا من الطاقة، وجوه لا أعرفها، نساء كنّ أكثر من الرجال وأطفال، شباب قليلون، وكهول أكثر وعجائز، كان بعضهم من ضيعتنا لا أعرف كيف جاؤوا ولماذا، عندما وصلنا، أمّي وأنا وقريبتها، اشرأبّت الأعناق نحونا، كلّهم يريدون متابعة هذه المسرحية من بدايتها، ويريدون أن يتفرّسوا في وجه البطلة التي هي أنا، مشيت بجانبهم لا أبالي، حتى قرّرت ألّا ألتفت إليهم كما لا أطرق رأسي في الأرض، مشيت وكأن العالم مرصودٌ لي، هي معركتي التي سأخوضها ليس مع هؤلاء المساكين، فهم بحاجة أصلًا إلى من يحميهم من الضلال الممارس بحقّهم، إنما معركتي مفتوحة على أمد يطول قد يكون بلا أفق، سوف أخوضها بكل شجاعة ولن ألتفت إلى الوراء.

دخلنا إلى المزار حيث يوجد ضريح مجلّل بالقماش الأخضر، كان الناس يتباركون بلمسه بل يحصلون على مزق منه، تضعه النساء كحرزٍ تحمي من المرض والحسد والمجهول، تحوط به الصبايا معاصمهنّ كإسوار، تخيط منه بعض النسوة جيبًا لحماية المصحف ويعلّقنه في مكان أثير في البيت، بل كانت المرايا الأمامية للسيارات تربط بشرائط خضراء، كلها تسمّى خلعة، وكانت الخلعة مباركة تجلبها النساء لقريباتهن أو جاراتهن عندما يكنّ عائدات من زيارة أحد الأضرحة، جبت لك خلعة من مقام الشيخ فلان قدّس الله سرّه، كانت هدية لها قيمتها تأخذها الأخرى بمهابة ورهبة وممنونية.

كان الشيخ ينتظر هناك وبجانبه الشيخ عبّاس، قال لي هيّا يا بنتي، قرّبي لعند الشيخ وبوسي يده. بقيت واقفة وهو ينظر إليّ نظرة تبدو كأنها لهيب ينطلق من عينيه، لكنني لم أفعل، وقفت ونظرت إلى الطاقة ومن فوهتها انطلقت عيناي إلى البعيد، إلى خارج الزمان والمكان، جاءني صوت الشيخ: اسمك؟ أعطيته اسمي، جهيدة. اسم بيّك؟ نايف. اسم أمك؟ عبلا. عمرك، خمس عشرة سنة.

فوق الضريح المجلّل بالأخضر وعلى الجدار خلفه الكثير من الكتب واللوحات الحاوية على صور لرجال دين، ولصاحب المقام، ومن بين الكتب نسخ عديدة من المصحف. سألني الشيخ إن كنت طاهرة، لم أفهم، واعتبرت السؤال يمسّ فضيلتي وقيمي، بقيت صامتة، فاقتربت أمي وقالت قولي له: إي. وبقيت

صامتة، فأعاد عليّ السؤال لتردّ أمّي نيابة عني: إي والله يا سيدي طاهرة وفيها تحط إيدها عالمصحف. طلب مني وضع يدي على المصحف، ففعلت، كنت أستعجل الوقت متلهّفة للوصول إلى المشهد الأخير حيث ستنتهي مسرحيتهم وتبدأ فصول روايتي الخاصّة.

قال لي ردّدي خلفي: أقسم بالله العليّ العظيم، فردّدت. أعادها ثانية: أقسم بالله العلي العظيم، فصمتُّ ظنًّا مني أنه نسي نفسه وأعادها، فنهرني بأن أعيدي، فأعدت. وحقّ هذا ال "كتاب الله" وجميع ما فيه من حروف وآيات ونقط وسور وأسرار وحقّك يا ولي الله الشيخ بأن ما لي علاقة بالمدعو الأستاذ ولم أوافه على انفراد في أي مكان، ولم يلمسني وأنا ما زلت عذراء، وإذا كان كلامي ويميني يا ولي الله غير صحيح تعاقبني وتاخد الحق مني، والله على ما أقول شهيد. كان يرمي على مسامعي الجمل متقطّعة، وأحيانًا كل كلمة وحدها ولم أفهم لمَ فعل ذلك، فأنا كنت سأعيد خلفه الكلام حتى لو كان مقطعًا كاملًا، كان لديّ قدرة على الحفظ كبيرة وكانت ذاكرتي في أوج تألقّها. لكنها في تلك اللحظة تلقّت الطعنة الأكبر في حياتها، الطعنة التي نزفت في روحي وتجمّعت مع الزمن مثل خراج ينبض بصديده المتجمّع في أعماق نفسي، كان لا بدّ من تفجير ذاك الخرّاج حتى تتطهّر روحي وأمسك قراري الحرّ، بأن يكون جسدي لي وحدي لا علاقة لأحد به.

عندما انتهى الشيخ من إملاء القسم الذي ردّدته خلفه، وأظنّه لم يسأل نفسه مرّة، لا هو ولا الشيخ عباس ولا أي شيخ آخر، عن

إيمان الشخص الذي ساقوه إلى أداء القسم المشروط بالطاقة، وهل يؤمن بما يؤمنون أم لا؟ كان الأمر يبدو بديهيًّا بالنسبة إليهم، أو ربما كانوا يعرفون في قرارتهم أن هناك الكثير ممن يكذبون ويحلفون الأيمان التي يريدونها ويجتازون الطاقة بطريقة أو بأخرى، لكنهم يواربون هذه الحقيقة ويدفنونها كي لا يفقد هذا الطقس سطوته على الجماعة، فمجرّد الشك ولو بنسبة قليلة سوف يتخلخل البنيان الصلد الذي أنشئت من أجله.

عندما انتهى من القسم أمرني: قرّبي من الطاقة يلّا. حطي ساقك عالحافة. كان هناك نتوء في الحائط الجانبي على يمين الطاقة مثل درجة مرتفعة، فهمت أن بإمكاني إسناد رجلي اليمنى عليها كي أستطيع الولوج بجسدي ضمن هذا البرزخ الموحش. في تلك اللحظة، بينما كنتُ أهم بدخول الفوهة الداخلية وأنا أمدّ ذراعيّ على طولهما، اندفع كلبان إلى داخل المزار حيث كان المشايخ يقفون، دخلا كسهمين غاضبين أجفل الجميع منهما، راحا يقفزان على الشيخ عبّاس وعلى الآخر الذي ينفّذ الحكم بالمتهمين، صار الكلبان يناوشانهما وينبحان بطريقة غريبة، فصار هرج ومرج وتعالت أصوات الاستنكار والشتائم واللعنات، وفي لحظة خاطفة التقط أحد الكلبين بفمه طرف الشملة البيضاء التي يضعها الشيخ عبّاس على رأسه تحت الطربوش فسقط الطربوش إلى الأرض وبانت صلعته البيضاء، وتهاوت دفعة واحدة تلك الهالة من التبجيل والرهبة التي كانت تعلو وجهه وهو بكامل لباس المشيخة وحضوره الطاغي أمام الناس. خرج الكلب مسرعًا ولحقه رفيقه وانطلقا في البراري. في حالة الغضب والغيظ تلك أصرّ الشيخ

بعصبية على إتمامي الامتحان بسرعة، كان لا يريد لتلك اللحظة أن تتفشى بين الجموع وتصبح قصّة تكبر كلما تناقلتها الألسنة، صرخ بي كي أنصاع بسرعة فوضعت رجلي على الدرجة الجانبية العالية ومددت ذراعيّ على طولهما في الطاقة، ورحت أزحف على بطني في تلك المساحة المحصورة من كل الاتجاهات مثل أفعى تتلوّى. عندما خرج رأسي من الطرف المقابل هالني منظر الناس، أفزعتني وجوههم التي بدت متحجّرة على تعبير وحيد، تعبير مربك قاس شائك، عيون مفتوحة على اتساعها وأفواه فاغرة وخوف مختبئ في عمق المحاجر، مع صمت رهيب بعد الصخب الذي أحدثه دخول الكلبين. نفذت من البرزخ بسهولة، عبرته خلال أقلّ من دقيقة، أسرع من رحلة الضوء بين الشمس والأرض، عبرت دهرًا خلال دقيقة، اجتزت حياة ودخلت أخرى، سلخت جلدي ونبت لي جلد آخر في رحلة الأبد التي استغرقت دقيقة وحيدة كنت بعدها أقف على ساقين من طبيعة أخرى، كانتا كما لو أنهما من فولاذ ثابتتين أمام الأصنام التي دبّت فيها الحركة دفعة واحدة مع صراخ: الله أكبر... الله أكبر. واندفعت أمّي بعد أن نزعت منديلها عن رأسها وراحت تلّوح به في الأعلى وتدور على نفسها حتى خفت أن تسقط أرضًا، وخلفها قطيع من النسوة يردن احتضاني وعناقي وسط دموعها، كانت تبكي وتشرق بدمعها وتردد "الحمد لله.. دخيلك يا رب ما أكرمك". مدّت يديها فكانت راحتاي أسرع منهما، لا أعرف هل أنا التي قمت بذاك الموقف أم واحدة أخرى؟ هل هي جهيدة أم زيزفون؟ هل كنت ابنة أمي أم واحدة أخرى اقتحمتني وراحت تُملي عليّ ما يجب فعله، وضعتُ

راحتيّ على صدرها وبهدوء وبرود يكوي دفعتُها ببطء عني بينما أنظر في عينيها أحاول أن أتعرف عليها من جديد. اقتربت النساء أكثر فمددتُ ذراعيّ أمامي أريد أن أمنعهن من الاقتراب.

أبعدت الجميع من أمامي وأنا أشق طريقي إلى الأمام، وكان سعيد في البعيد، في زاوية مهملة على حدود المزار يقف بقامته النحيلة وشعره المتناثر بفوضى طاغية، يصالب ذراعيه أمام صدره وينظر بسحنة هادئة وعينين تكادان تخترقان الأفق.

5

عندما دخلت غرفتي أريد الانفراد بنفسي وأرخي العنان لها كي تستجيب لحزني السرّي، لا أعرف كيف انزلقتُ إلى ذكريات الماضي والتفتيق بشخصية أبي في محاولة، لا أعرف مبرّرها، لفهمه أو لفهم ما جرى له وكيف تغيّر، هل كنت بحاجة يومها أن أبكي أمام أحد؟ أن يتفهّم فجيعتي أحد؟ هل يجب أن أشرح له ما يعني أن أفقد سعيدًا؟ كيف يمكنني أن أوضّح له العلاقة التي تربطني به وأنا نفسي أكتشف في لحظة موته جهلي بها؟ عندما سُرّح سعيد من الخدمة بتهمة سلوكه غير المنضبط واضطرابات عقلية تأتيه على شكل نوبات وهو غير صالح لأن يكون ضابطًا في الجيش، كان أبي يدافع عنه بالرغم من الخيبة التي سبّبها تسريحه لوالده الفلاح التعب الذي أجبره ضيق الحال وعدم قدرته على تأمين تكاليف دراسة سعيد الجامعية إلى إرساله إلى الكلية الحربية. كانوا في السهرات في بيتنا يتناولون سيرة سعيد ويستنكرون عدم انضباطه، وكان أبي يقول لهم: يا جماعة لا تظلموا الشاب، يمكن ما قدر يتحمل حياة العسكرية والذل الذي يتعرض له الفرد فيها.

لم يكن أبي على خطأ، ففي أحاديثنا، سعيد وأنا، كان يقول لي إن في الطاعة كما يطلبونها منّا، بل ويفرضونها، تنازلًا مهينًا عن الاستقلالية، طاعة أي جهة خارجية بهذه الطريقة هي خضوع، ماذا يعني القانون القائل: نفّذ ثم اعترض؟ ما هي الفائدة من الاعتراض بعد أن يكون الشخص قبِل المهانةَ والذلّ؟ من سيعيد

إليه كرامته المنتهكة؟ أنا لا أستطيع قبول إرادة خارجة عنّي، يجب أن أفهم أي أمر وأخضعه لعقلي وأستخلص حكمًا منه حتى أخضع له بإرادتي وليس بإرادة خارجة عني.

كان سعيد، الولد الأول لأبويه، تلميذًا لافتًا في المدرسة منذ المرحلة الابتدائية، كان حديث الضيعة، يحكون عنه ويتندّرون، فهو سْعيّد الذي إذا كسّرناه ما بيعبّي المقلاية، كما يقولون. عندما حصل على البكالوريا كان يريد أن يدرس الرياضيات في الجامعة، فلقد كان يحبّها كثيرًا، لكن والده أقنعه بأن عليه الالتحاق بإحدى كليّات الجيش، فهو غير قادر على تأمين تكاليف العيش في دمشق أو حلب، إذ لم يكن هناك جامعات في محافظات أخرى، أما سعيد فلم يكن يستطيع تحمّل شقاء والده في الأرض منذ الصباح الباكر حتى المغيب، وهناك أفواه كثيرة تريد أن تأكل، كانوا أكثر من سبعة أولاد بين ذكور وإناث، أصغرهم كانت رضيعة، فرضي أن يتقدم إلى الكليّة الحربيّة، كلّها سنتين وبتتخرّج ملازم يا ابني وبصير عندك راتب منيح وكل مانك بتكبر ويزيد عدد النجوم على أكتافك.

لم يحقّق رغبة والده، ولم ينجز حلمه أيضًا، لم يصبح ضابطًا كبيرًا كما حلم والده وانتظر بعض جيرانهم في الضيعة، فعادوا بعد خسرانهم الرهان إلى كسر اسمه من جديد ورجع بالنسبة إليهم سْعيّد الذي تروى عنه النوادر، إنما اليوم لديهم نوادر أخرى عنه، وكأنهم أرادوا أن يدفّعوه ثمن خيبتهم، ولم يدرس الرياضيات التي أحبّها وشغف بها أيضًا، سعيد سُرّح من الخدمة وانكفأ على نفسه في عزلته الطويلة.

في زاوية بعيدة من أرض والده، في أعلى نقطة فيها، على رأس هضبة تطلّ على الكروم والأراضي التي تحتها، حيث كانت هناك غرفة قديمة كان أبوه يستخدمها في تخزين بعض الأغراض التي تتعلق بشغله في الأرض، استقرّ سعيد مبتعدًا عن الناس وصخبهم، اختار العزلة بنفسه بالرغم من أن من يحيطون به كانوا على وشك أن يفرضوها عليه بنكرانهم إياه ومعاملته مثلما لو كان فعلًا صاحب مشكلة أو قاصرًا بحاجة إلى وصاية، فهم صاروا يحلفون الأيمان أن العبقرية والجنون متلازمان، وأن عبقرية سعيد كان لا بد أن تصل به إلى الجنون كما شأنه منذ ذلك الحين. كانوا يقولونها مشفقين عليه، بينما حياتهم تمشي برخاوة كان هو يراقبها صامتًا من دون أن يشارك أحدًا أفكاره، أو حتى من دون أن يعرف أحد بما يفكر، لكنه كان أعقلهم وأكثرهم فكرًا وتفكيرًا، كان يقول لي بعدما توطّدت علاقتنا وفتح ثغرات في صمته وخرج من نفسه أمامي: أعيش الحرية بأكثف معنى لها، أنا حرّ في حياتي هذه، أفعل فيها ما أشاء، هنا أعيش مع الأرض، مع النباتات مع الحشرات، مع كلابي، أنتمي إلى هذا الجزء من الأرض، واحد من الكائنات التي تعيش وتتعايش مع بعضها البعض. زمني ملكي يا زيزفون، زمني الذي يشغل حياة لن تتكرّر ثانية وأنا اخترت أن أعيشها إلى النهاية لأنها لن تتكرّر، ليس فيها لحظة تشبه الأخرى.

كانت الغرفة واسعة، جدرانها الطينية السميكة تمنح رطوبة وبرودة ناعمة بعدما قام بصيانتها وعمل على إعادة الروح إليها، فراش ممدود على الأرض فوق حصير من القش، تقابلها طاولة وكرسي وبجانبها رفوف مسنودة بحوامل خشبية تصطفّ عليها

الكتب، خلف باب الغرفة كان صندوق من الخشب فوقه طاسة من الألومنيوم ومرآة مع مشط صغير، وفي صحن صغير من الألومنيوم قطعة صابون وبجانبها ليفة، كان هذا الركن القريب من الباب مكانًا للاستحمام والجلي وكل ما يتطلّب صبّ الماء، حيث تجري المياه إلى ثقب تحت عتبة الباب وتسرح في خارج الغرفة. كانت تتوزّع بعض الطراريح الاسفنجية بقرب الجدار الشرقي للغرفة تحت نافذة مقابل الباب مباشرة، خشبها مثلّم تسمح للشمس بدخول الغرفة صباحًا. تأخرت حتى علمت بأن سعيد يستقبل ضيوفًا في معتزله، كانوا يأتون إليه متخفّين، لكن ما لم أكن أتوقعه أن يكون الأستاذ من بينهم، أو من أوائل الذين مرّوا بهذه الغرفة وكان بينه وبين سعيد وبين آخرين الكثير مما يُقال، بل تأخّرت حتى عرفت. الشيء الوحيد الذي أضافه سعيد إلى الغرفة العتيقة، أنه بنى غرفة صغيرة بسقف واطئ ولها باب خشبي، كانت بيت كلابه التي أخذ يربّيها منذ بداية اعتزاله، كان كل صباح بعد التمرينات الصباحية التي يعلّمها كيف تؤدّيها، يطلقها إلى البراري، ثم تعود بمفردها إليه عند الظهيرة فتقيل في فيء شجرة التوت الغربية لتنطلق من جديد بعد أن يعاركها سعيد ويداعبها ويعلّمها التواصل معه، فتعود ثانية عند المغيب وتدخل بيتها لتنام بعد أن يضع لها طعامها الذي كان مما يأكل، كان يتشارك معها الطعام ويتركها في البرّية كي تمارس حقها في الحياة التي فطرت عليها.

أشياؤه الخاصة كانت قليلة، الطاولة الصغيرة ورفوف الكتب ومذياع صغير ماركة شارب كان يعلّقه على نتوء خشبي في الحائط

وأحيانًا يضعه على الطاولة. هذه هي كل تركته، أشياؤه التي تجرحني اليوم، تبكيني، تلحّ عليّ كي آتي وآخذها فهي حكايته وتاريخه وماضيه وسنين عمره التي سطّرت حياته وكنت جزءًا منها وشاهدة عليها، لكن من يهتم لحياة رجل اعتزل العالم وبنى صومعته بعيدًا عنهم واكتفى بمصادقة الطبيعة والأرض ومخلوقاتها، حتى صار بالنسبة إليهم المجنون الذي لا طائل منه، والأسلم الابتعاد عنه وتركه يمارس جنونه بعيدًا عنهم؟ هذه الأشياء من حقّي لكن لا حقّ لي بينهم، لا أحد يعرف بعلاقتي به غير مُنيّر، فهل يمكنني الاعتماد عليه في خطف تلك التركة وإحضارها إلي؟

مثلما تبكيني أشياؤه، يبكيني أنه لن يحظى بدفن كما كان يرغب في موته أن يكون، كان يقول لي أريد أن يُحرق جثماني ويُذرى رمادي فوق هذه الأرض، أريد أن أعود إلى الحياة في نسغ العشب والشوك، أريد أن أتغلغل في جذور الزعرورة والطيّون وأشواك الديس والبلّان، وكلّما جاء الشتاء أنبقُ من تحت الأرض أقراصًا من الهندباء والخبّيزة والقرّيصة ولباس القطة والبقلة، أن تشرب ديدان الأرض من مياه تحمل ذراتي، لماذا يدفنون الميت في حفرة عميقة ويرصفون فوقه الحجارة ويهيلون عليه التراب ويتركونه فقط للديدان التي يحمل بيوضها في داخله؟ ما الفائدة من كل هذا؟ ثم يأتون كل حين ويقفون عند شاهدة القبر يبكون قليلًا، يقرؤون الفاتحة، ويعودون إلى حياتهم كأن شيئًا لم يتغير، ينتظرون حتى يأتيهم الموت ثانية فيكرّرون أفعالهم ثم ينسون من جديد؟ كان حديث الموت هذا بعد سنين من زياراتي له، تلك الزيارات التي كنت أقوم بها خلسة مثل هارب مطلوب يتخفى عن العيون

التي تلاحقه، لكنها كانت بالنسبة إليّ بقعة الضوء الوحيدة التي كلّما أطبق الظلام على صدري هرعت إليها لتنير لي أعماق نفسي. سعيد الذي كان يبحث عن العدل والعدالة في الدنيا مات ولم ينصفه العالم، مات مسلوب الحقوق حتى في اختيار دفنه، سوف يدفنونه مثلما يقرّرون، مثلما اعتادوا منذ آلاف السنين، ومثلما تقتضي الشرائع التي أرسوها منذ قرون. أخاف عليه أن تحزن روحه وهي تحوم حول جسده الملفوف بكفن يشدّ عليه عندما يسمع أصواتهم ودعاءاتهم يطلبون له المغفرة عند رب السماوات والرحمة من ملائكة الموت، كان يرفضهم حتى في طقوس موتهم.

عوقب وزُجّ به في السجن لفترات تشكّل أكثر من نصف المدّة التي قضاها في الكليّة الحربية بانتظار أن يبدأ حياته ضابطًا واعدًا ينتظره عزّ وجاه وسطوة وقوّة. مات سعيد ولم تُحلّ أكثر معادلاته تعقيدًا، المعادلة التي أمضى عمره يحاول فك رموزها، معادلة الحياة التي هي من حق الجميع بالتساوي، ليس البشر وحدهم، بل كل ما ينتمي إلى هذا العالم، حتى حجارة الأرض كانت لها حقوق في نظريته.

*

من الدفتر

قرّرت الذهاب إلى سعيد

راحت أمّي تذوي وتذبل مثل نبتة داهمها الصقيع فأتلف عروقها، كانت بدأت تشتكي من ضعف جسدها منذ مدة، لكنها عنيدة ولا تستسلم بسهولة، كانت تقوم بكل الأعباء التي تعيش بها ومن أجلها إنما بجهد أكبر ومعاناة أكثر، ربما كانت قد استمرأت عذابها لتجعل أبي يشعر بالذنب تجاهها وأنه ظلمها فيما مضى، خاصة عندما كانا ما يزالان شابين وكانت الحياة تسير بقليل من المنغّصات، لم تكن الحياة سهلة، لكنها لم تكن كما أصبحت عليه فيما بعد، حياة تتسلّل منها السكينة شيئًا فشيئًا ويحرق النفوس القلق المخاتل الذي يحتل مكانها، أمّي التي أنجبت أربعة أطفال كنت أكبرهم، بدأت صحتها تتراجع بعد ذلك اليوم المشؤوم في حياتي، لم يكن هو السبب بالطبع، فلقد كان عبوري الطاقة أمام أولئك الواقفين كما الأصنام ينتظرون النتيجة كما لو كانوا أمام أكثر المشاهد الدرامية إثارة، ذلك العبور كان يشكّل بالنسبة إليهم تأكيدًا على كينونتهم وترسيخًا لها كلما أصابها الوهن، فأي برهان أكثر منه يمكن أن يقدّم إليهم على متانة العدالة السماوية التي أودع الله سرّها في روح ذلك الولي وجعل طاقته قيّمة على إقامتها؟ تلك العدالة المبنية على ميزان الخير والشر، ميزان نوضع نحن البشر في كفّتيه، فنحن الوزن ونحن وحداته القياسية، وكان بالنسبة إليها انتصارًا لذاتها وانتمائها وترسيخًا لمكانة عائلتها وجماعتها في حقل القيم والأخلاق والسمعة المشرفة، خاصّة بين سكان

ضيعتنا الذين ينتمون إلى عشيرة أخرى هي عشيرة والدي، وكان الأفراد من عشيرتها يُعدّون على الأصابع فيها، لم يستطيعوا بعد كل ما أبدوه من محاولات اندماج مع الموطن الجديد أن ينتزعوا الاعتراف الكامل بالمساواة مع البقية والانتماء إلى المكان بعمق، بل ظلّوا يشار إليهم بالغرباء، وكانوا في الوقت نفسه يتّكئون على هذه الغربة كي يبرّروا اختلافهم، كان يومًا سعيدًا بالنسبة إليها ولقد تفرّغت بعده لعدة أيام وهي تستقبل النساء الفضوليات اللواتي يأتين ليباركن لها عبوري البرزخ وبراءتي، يلعنّ ويشتمن من كان السبب ومن يتبلّى الناس ويتّهمهم بشرفهم وعرضهم، لكن الحمد لله فإن أبو طاقة يبقى حارسًا للخير والضمائر والنفوس، فلولاه لضاعت الطاسة ولأفلت الكثير من الناس من تبعات أفعالهم حتى لو ارتكبوا أبشع الجرائم. إنه ميزان العدل، كنت أتخيّله في بالي ميزانًا ضخمًا كذاك الموجود في الدكاكين وكان لدى أمّي في دكانها واحد منه، ميزان تتّسع الواحدة من كفّتيه إنسانًا مهما بلغ من الضخامة، ومقابله أناس بحجوم أقل أو متفاوتة الوزن والطول يمكن استبدال بعضها بالبعض الآخر كما يبدّل البائع بين الوزنات الحديدية، وكانت أمّي تعيد الحكاية كل مرة بالحماسة ذاتها، مثلما لو أن مجرّد كون النتيجة جاءت لصالحنا كان كافيًا ليمدّها بالعزيمة والتحدي واحتمال جسدها الجديد لفترة إضافية. وعندما كان بعض النسوة يسألنها عن حكاية الكلب الذي سحب شماخ الشيخ عبّاس، كانت تقول والله مرّ هادا الموقف بلمح البصر، ما حدا عرف من أين جاء الكلبان ولا كيف اختفيا عن الأنظار، بلحظة فات متل السهم نبح ونطّ على جسم الشيخ ونشل الشملة عن

رأسه وطلع مع الكلب التاني متل السهم كمان، وكان الشيخ عبّاس محني عالأرض يبحث عن طربوشه. وبلمح البصر اختفى الكلبان. الناس الواقفين برّا كانوا منتظرين جهيدة تبان من الطاقة ما عرفوا اللي صار بداخل المزار، وما حدا عرف شي عن الكلبين. المهم الحمد لله خلصنا من هالكابوس، الله يلعن أبو المفتري وانشا الله بلاقيها قدّامه بجاه أمير المؤمنين.

كانت نشوة الانتصار هي ما أمدّها بالقوة والعزيمة إلى حين، لكنها بدأت تنهار قواها بالتدريج، لم تعد قادرة على إكمال العجنة وقت العجين، ولم تعد قادرة على الصمود أمام حرارة التنور، فكان الخَبز ينهكها. لم أرَ نفسي إلّا وأنا أتورّط شيئًا فشيئًا في الأعمال التي كانت تقوم بها. كنت قد باشرت الدوام في الصف الأول الثانوي، وكنت أحلم بإتمام تعليمي ودخول الجامعة، لم أكمل صفي إلى نهاية العام الدراسي بل انقطعت في الفصل الدراسي الثاني بعدما ساء وضعها الصحي ونحل جسدها كثيرًا وتسلّل شيء آخر إلى حياتنا في غفلة منّا، لكن في تلك الشهور الأربعة التي أمضيتها في الصف العاشر كنت قد بدأت أشعر أن هناك أشياء تتغيّر في داخلي، وأن أسئلتي صارت أكثر تعقيدًا، وصرت أكثر انتباهًا إلى العالم الخارجي أو المحيط بي، فصار سلوك الناس يشغلني وعاداتهم والتباين بين عيش المدينة وعيش الريف. حتى علاقاتي مع زميلاتي تغيّرت، لم أعد تلك الطفلة القلقة الخائفة من الآخرين، كتلك التي كنتها يوم انتظرت والدي لينشلني من قلب هذا البحر الهائج من البشر الذين يصرخون يوم خرجنا مع المدرسة للقاء أمين الحافظ، أو في المسيرات التي تلت، كانت الفتيات في المدرسة الثانوية أكثر

اختلافًا، كنا نلبس بدلات الفتوة، تلك الألبسة العسكرية بلون الكاكي، سترة علوية بطيّات من عند الخصر، مفتوحة من الأمام بصف أزرار وتحتها سروال من اللون نفسه، تحت السترة كان لزامًا علينا ارتداء قميص من اللون نفسه أفتح قليلًا، ونعقد حول الياقة كرافيت بلون الكاكي أيضًا، وبدأت معها عمليات القهر والإذلال وكسر نفوسنا، كان صفنا متنوعًا، بيننا فتيات من عدة مناطق في الريف والمدينة، حينها فقط اخترت معرفتي بالاختلاف. من بين الفتيات اللواتي كنّ مختلفات كانت آلاء صاحبة الشعر الأسود الفاحم والبشرة البيضاء الحليبية والعينين الفاحمتين البراقتين، تلك الفاتنة التي بقينا أكثر من شهرين نحتال عليها حتى استطعنا إقناعها بأن ترفع الغطاء عن شعرها، فقد كانت بمجرّد دخول المدرسة تخلع العباءة الداكنة الطويلة التي تغطّي كاحليها وتخلع القفازين من يديها، ثم ترفع المنديل الأسود عن وجهها لتبقي على الحجاب الذي يُظهر وجهها فقط، حاولنا كثيرًا، حتى الفتيات المحجّبات اللواتي كنّ قلائل في ذلك الوقت انضممن إلينا، وفي الأخير أذعنت آلاء لرغبتنا ونزعت الغطاء عن شعرها لنصرخ جميعًا أمام الجمال الذي صدمنا، لقد انسدل شعرها المضموم بملقط يرفعه إلى الأعلى قليلًا بشكل ينضوي كله تحت غطاء الرأس، انسدل كنهر تلمع صفحته في الليل تحت ضوء القمر، كان شعرًا غزيرًا فاحم السواد لمّاعًا يصل إلى منتصف ظهرها، لا أذكر أنني رأيت بعدها شعرًا بجماله، أو وجهًا يمتلك تلك الفتنة الطاغية، خاصّة عندما احمرت وجنتاها أمام دهشتنا، وبعد أن علت الأصوات من كل زاوية في الصف، الذي كنا مجتمعات

فيه لأن مدرّسة الحصّة لم تحضر، تدعوها إلى أن تنزع الحجاب نهائيًّا، فمثل هذا الجمال يجب أن يظهر للشمس، لكنها عادت وضمّت شعرها بالملقط بسرعة وأخفته بغطاء رأسها فرجعت آلاء التي اعتدنا على وجودها بهذه الهيئة في الصف. بعد سنوات قليلة، وبينما كنت أستمع إلى نشرة الأخبار في التلفزيون الرسمي من دون أن ألتفت إلى الشاشة، طرق سمعي اسمها، كانوا يذيعون في الأخبار كلّ يوم قائمة الأفراد السوريين الذين يلتمسون العفو من النظام لقاء انسحابهم من تنظيم جماعة الإخوان المسلمين وإعلان توبتهم ونكرانهم للجماعة وإدانة لممارساتها، حتى يسمح لهم بالعودة إلى الوطن الذي غادروه بعد تلك المواجهة الدامية بين النظام وجماعة التنظيم، التي نشط أفرادها بعمليات اغتيال عديدة وتفجيرات في عموم البلاد، وقمعتها قوات النظام بعنف كبير أبادت الآلاف من الضحايا في حماة وحلب، أو يسمح لهم باستعادة حالتهم المدنية والانخراط في المجتمع والعمل الوظيفي. آلاء العمّاري المقيمة في دبي، التي عرفت أنها كانت قد تزوجت من أحد أعضاء الجماعة الذي لم أعرف مصيره فيما بعد، وكانت مفاجأتي الأكبر أنني كنت أعرف زوجها عندما كان طالبًا في كلية الطب، عندما اشتغلت في مقصف الجامعة لعدة سنوات قبل أن أتوظف.

مرّت شهور، بعد أن خضعت لامتحان أبو طاقة، وعودتي إلى المدرسة ثم انقطاعي عنها، وبداية تدهور الوضع الصحي لأمّي، كنت خلالها أقترب أكثر من نفسي وأحاول استنطاقها حدّ القسوة عليها، بل كنت أحاسبها في الليالي الطويلة وأنا أطارد النوم، على

قبولها الخضوع لمشيئتهم، كنت كل يوم أرزح أكثر تحت وطأة الشعور بالإهانة وأتألّم بسببها، فكّرت في الهرب والسفر بعيدًا عن كلّ من حولي وما حولي، كان تفكيرًا أرعن طائشًا لا يعدو أن يكون شطحات طفلة لم تنضج بعد. لكن السفر كان ما زال يختبئ كحلم جميل في داخلي تبرعم على صوت الراديو هنا دمشق، هنا لندن، هنا القاهرة، وعلى حكايات المسافرين الذين يعبرون الدكان ويتركون خلفهم بعض الغوايات الصغيرة وأنا أرتّبها في خزائني السرّية. صرت في البيت أكثر صمتًا، وأكثر انسحابًا مما حولي، لم تكن أختي عواطف قد دخلت المدرسة بعد، أما برهوم فكان في بداية المرحلة الإعدادية وشعبان كان ما زال في الابتدائية، إنما ما الذي تغيّر حتى ألفينا أنفسنا ننزلق شيئًا فشيئًا نحو القلّة والحاجة إلى أمور كثيرة؟ لا أعلم بالضبط، لكن كل ما أذكره أن الدكان بدأ يخبو وهجه أيضًا.

بقيت الصورة التي التقطها بصري التائه يومها بنظرة خاطفة من تلك الطاقة، والتي لمحت فيها سعيد يقف مقاطعًا يديه أمام صدره شارد النظرة، بقيت تلاحقني في تلك الشهور وتزرع الأسئلة في نفسي، الأسئلة التي راحت تكبر وأنا أحاول كبتها، ما الذي جاء به إلى هناك؟ وما علاقته بالكلبين اللذين اقتحما المزار للحظة، أحدثا الفوضى خلالها وجعلا من الشيخ عبّاس أضحوكة؟ صار السؤال يكبر وينمو معه شعور في داخلي بأنني مدينة لهذا الشخص الغريب، لم أكن قد التقيته إلا مرة واحدة كنّا على الدرب، والدي وأنا، عندما ألقى والدي التحيّة عليه: الله يعطيك العافة عمّي سعيد. فردّ له التحية باقتضاب وتابع سيره. لكن صورته منذ ذلك

اللقاء حفرت في بالي. قرّرت الذهاب إليه، لم أكن أملك أي خطّة أو فكرة عمّ أريد منه، لكن سؤالًا واحدًا كان يطرق رأسي وأنتظر أن يفتح الباب أمامي لمعرفة ما أريد، فقط أريد أن أسأله: لماذا فعلت ما فعلته أمام المزار؟ وكأنني على يقين بأن الكلبين كانا من كلابه حتى إنني كنت أبعد فكرة ألّا يكونا كذلك من رأسي، كي لا أدخل في الارتياب.

6

لم أستطع امتلاك نفسي بسهولة ويسر عندما دخلت غرفتي لأفتح النوافذ لحزني وصدمتي بالخبر، لم أشعر بأنني بحاجة إلى المواساة فهذا حزني وحدي ولم أعرف فيما مضى مشاركة أحد بمشاعري العميقة هذه، كنت أحزن وحدي وأقلق وحدي، أمّا أفراحي فكان معظمها أفراحًا صغيرة تخصّني ولا طائل من إشراك أحد بها، فهي عصيّة على الشرح.

كان عليّ أن أخرج وأذهب إلى أبي الذي أمضى ساعاته يصارع القلق ويقهره العجز عن فعل شيء، لا بدّ من إخباره بموت سعيد، وسوف يُحزنه الأمر ويطلب مني القيام بواجب العزاء نيابة عنه، لو يدري أن من يستحقّ العزاء اليوم هو أنا، أنا زيزفون التي عاشت غريبة عن جميع من يخصّونها وأولّهم أنت يا أبي، بالرغم من قربي منهم جميعًا ومنك أنت، وعشت قريبة حدّ الالتصاق بسعيد بالرغم من بعده وابتعادي.

لم أستطع الدخول على أبي بنقلة واحدة من غرفتي إليه، بل دخلت المطبخ وجهّزت له وجبة خفيفة وذهبت إليه، كان صامتًا شارد الذهن، حزينًا تبدو ظلال دموع في عينيه، لقد فاتني أن مُنيّر الفضولي الذي لا يهدأ يمكن أن يمرّ من أمامه فيقفز من الشرفة ويخبره بأن سعيد مات، أو ربما يناديه بملء حنجرته: عمّي بو إبراهيم، عرفت أنو سْعيّد مات؟ وضعت صينية الطعام أمامه

وجلست مقابله. يبّي، مانك جوعان؟ اليوم تأخرت عليك حقّك عليّ. مددت له كأس اللبن، لكنه مدّ يدًا واهنة راجفة وأبعد الكأس بلطف وانكسار، ثم أردف بصوت واهن: رجّعيها، ما بقدر آكل. بس لازم تاكل، من إيمتى ما أكلت؟ يا بنتي قلت لك ماني جوعان، ما لي نفس. ثم انهمرت دموع من عينيه. لماذا تبكي يا يبّي؟ وكأنّه كان ينتظر هذا السؤال كي ينهار أمام دفاعاته التي لم تعد تعينه بشيء، انهمر الدمع مدرارًا وراح يشهق بينما يلهث ويخفق صدره، لم يعد قلبه يسعفه حتى في الانفعالات الخفيفة، فكيف بموجة من البكاء الهادر؟ شعرت أنه يبكي في صدري. يبّي... خبّرني الله يخلّيك، لا تبكِ. زعلان على سعيد، زعلان على هالشباب، اليوم مرّ تلات جنازات لشباب متل الوردة مستشهدين بهالحرب اللعينة. لم تسعفني الكلمات، كنت أنا من يحتاج المواساة، ثم ماذا أقول له أمام الهموم التي يكابدها؟ لم أعد مثل الأول تستفزني تحليلاته لما يجري، كنتُ في السنوات الأولى للأزمة التي مرّت بها البلاد أصطدم معه في كل مرة يجري الحديث بيننا عمّا يدور، كنّا نتفق إلى نقطة معينة ثم يبدأ التنافر مثل قطبي مغناطيس، لا أحد بيننا يصغي إلى الآخر، يتصعّد الموقف ويحتدّ النقاش وأحيانًا كنّا نصل حدًّا يكون الصمت المطبق بعدها هو المنقذ الوحيد خاصة من ناحيتي، كي لا أنزلق إلى مستوى لا يليق بابنة وأبيها. عندما أخبره بما سمعت من قصص وحكايات على ألسنة الناس، تلك التي يقولونها في السرّ، وبعضها في العلن، كان يقول لي إذا لم تعجبه القصّة: يا بنتي، المشكلة أن كلّ الناس بتملك لسان، لكن ما كلهم بيملكوا عقل، معقول كل شيء بتسمعيه بتصدقيه؟ ما صار

لازم تقتنعي أن البلد تواجه مؤامرة ما شهدها التاريخ ولازم كلنا نكون إيد واحدة وندعم الجيش الذي يحارب على كثير جبهات؟ شوفي الشباب كيف مَيموتوا، كم شهيد صارت هالضيع مقدمة من خيرة ولادها؟ وكان كلّ يوم يحصي عدد المواكب التي تمرّ من أمام البيت في طريقها إلى دفنهم في مثواهم الأخير، في تلك القرى البائسة المترامية على الخط من المفرق حتى الشعرا التي هي آخر الدنيا. حتى ضيعتنا صارت ساحتها والطريق التي أصبحت البيوت مترامية على جانبيها، مرصّعة بصور الشهداء.

في تلك اللحظة، كان همّي أن أعيش حزني، وكان هناك ما يضغط على صدري، أحتاج إلى الوقوف على أطلال سعيد، على تخوم أشيائه، أن أنفرد بنفسي في عزلة تشبه عزلته وأصغي إلى صوت الأشياء التي شاركها الحياة، إلى شجرة التوت والعشب الذي ينمو حول مملكته، إلى دبيب النمل المنهمك فوق وجه التربة، إلى صوت النحلات تطنّ في الفضاء، إلى البلاطة المغروزة على تخوم التلّة مقابل الغروب حيث كان يجلس عند المغيب وينصت إلى همس الكون، يبقى هناك إلى أن يهمي الليل ويستحيل لون الأفق الوردي إلى غلالة رمادية ثم تسودّ السماء ولا يبقى منها غير نجوم وقمر قد تمرّ غيمة أمامه فيغيب ثم يبدو، عندما تستحيل الأشجار والتلال إلى أشباح تهمس بأحاديثها التي كان يفهمها. ثم يشغل الراديو ليستمع إلى نشرات الأخبار من عدة محطات، ويبحث بعدها عن الموسيقى.

انتظرت حتى يأتي مُنيّر كي أسأله عن العزاء وأين سيكون، لم

يبقَ من إخوة سعيد في الضيعة غير واحد، البقية تزوّجوا وراحوا كل واحد بديرة، أبوه مات من زمان وأمه لحقت به بعد كم سنة. يجب أن أذهب لأقوم بواجب العزاء نيابة عن والدي. لكن، ليست الضيعة بعد سعيد مثلها قبله، بل ليس العالم كله كما كان.

*

من الدفتر

ماتت أمي، انحدرت حياتنا، انتقلنا إلى اللاذقية

قبل أن أكمل عامي الثامن عشر بقليل ماتت أمي، كنا قد تأخرنا في عرضها على الأطبّاء، عندما شخّصوا لها سرطان الكولون، لم يكن التأخير لأننا لا نريد عرضها على الأطباء، لكنها كانت تكابر ولم نكن نشعر بألمها الذي كانت تعيشه بصمت، فقد عوّدتنا على نسيانها وهي غارقة في أعمالها التي لم تكن تنتهي منذ طلوع الشمس حتى وقت متأخر في الليل، مثلها مثل معظم نساء الضيعة اللواتي كنّ يتحمّلن أعباء مضنية، يشتغلن في الأرض وينجبن الأطفال ويربينهم ويقمن بأعمال البيت كلها في زمن لم تكن هناك وسائل رفاهية لتحرّرهن من هدر أعمارهن في الخدمة، كان الحصول على الماء يلزمه جهد كبير، والغسيل والطبخ والخبز وتحطيب الخشب وجمع الأغصان اليابسة من البرية لأجل إحماء التنور والشغل الإضافي في مواسم المونة وكان لدى أمي عبء إضافي هو خدمة الدكان.

فقط صارت تشتكي من سرعة التعب وتقول: والله يا بنتي كبرت. مع أنها لم تكن تجاوزت الأربعين، لكن كان محكومًا على

النساء أن يشعرن بوطأة العمر باكرًا. وكان عليّ أن أقوم بواجبات البيت، أمّا الدكان فقد أخذ يريحني بالتدريج، بعدما تم تشغيل الطريق الجديد، الطريق الدولي بين اللاذقية والشام، وتحوّل السير إليه، فصارت دكان أم جهيدة مثل امرأة مهجورة تعيش الخذلان بصمت، لم تعد السيّارات تتوقف أمامه، ولم تعد هناك باصات هوب هوب، صارت شركة سفريّات اسمها الكرنك يحجز المسافرون أمكنتهم فيها ولها مكاتب في كل مكان، ولها استراحات على الطريق تتوقّف فيها. وصار دخل الدكان يتراجع حتى لم يعد يكفي لتأمين خبز البيت، إخوتي ما زالوا صغارًا، شعبان كان في الحادية عشرة وبرهوم في الرابع عشرة، أما عواطف فكانت في الصف الثاني. ماتت أمي وخيّم الحزن على البيت وصار أبي ساهمًا شاردًا، يجلس أمام البيت ويزفر زفرات حارقة، إلى أن صحّت له فرصة العمل في الشركة الإنشائية التي كانت ما زالت تعمل على الطريق، كحارس على مرآب الآليات. اتخذ قراره وأخبرنا أننا سننتقل للعيش في اللاذقية.

كان القرار صادمًا بالنسبة إليّ، لم أكن أريد الابتعاد عن البيت الذي تشكلت ذاكرتي فيه وولدت أحلامي وكبرت، حتى لو لم يبقَ منها سوى صدى محركات السيّارات التي تتوقّف في الخارج فننهض من نومنا، أو مونولوج الحكايات الذي يتردّد في بالي مع حلم جميل أسافر معه في خيالي على أمل أن أحقق الحلم في يوم ما، لكن حلمي بالسفر لم يتحقق، ولا أريد الابتعاد عن سعيد، فلقد كان بالنسبة إليّ فسحة الحياة التي أحتاجها، كان المنارة التي تضيء قلبي كلما أعتم، وحدهُ الذي فتح بصيرتي على الأسئلة

وأضاء طريقي إلى نفسي.

صار أبي يذهب إلى الشغل وأنا أدير شؤون البيت، يجب أن يكمل إخوتي تعليمهم، كان هذا همّ أمي قبل أن تموت وصار همّ أبي أيضًا. لكن دخله لا يكفينا فالسكن في المدينة له متطلّباته، وليست حياة المدينة مثل حياة الريف، صار هذا الأمر يؤرقني وأقلّب الأمر كلّ يوم من وجوه كثيرة، إلى أن قرّرت أن أتخلى بالفعل عن متابعة دراستي بالرغم من تشجيع سعيد وقبله الأستاذ على أن أكمل تعليمي، وهذا واجب، وبإمكاني تحقيقه بالتقدم إلى الشهادة الثانوية في قائمة الأحرار. وجدت فرصة عمل في مقصف الجامعة المحدثة التي لم يكن عمرها أكثر من أربع سنوات، وكان أبي راضيًا عن قراري فسوف أرحمه قليلًا من أعباء أولاده. ومن هناك، من مقصف الجامعة تعرفت على حياة أخرى.

كان عدد الكليّات قليلًا ولم يكن هناك حرم جامعي أو مبنى مخصّص لهذا الغرض، وكان المقصف أو ندوة الجامعة عبارة عن صالة صغيرة في عمقها مكان شغلي، رفّ رخامي يتوسّطه مجلى وموقد أضع عليه إبريق الماء الكبير من أجل تحضير المشروبات الساخنة التي لم تكن تتعدى الشاي والقهوة والميلو، وفي الزاوية كان هناك برّاد توضع فيه قناني المياه الغازية، كانت أسماءُها غيرها اليوم، سينالكو أحمر بزجاجته القصيرة ومذاقه الرائع، والكراش، وآر سي وأنواع أخرى، وعصائر في علب هرمية مع مصّاصة ملصقة بجسد العبوة، كان اسمها بون جوس، كانت قائمة السلع محدودة لكنها تكفي أولئك الشباب الوافدين من عدة مناطق من الريف

والمدينة ومن محافظات أخرى، معظمهم لم يكن بإمكان أسرهم أن يرسلوهم إلى مدن بعيدة كدمشق وحلب من أجل الدراسة، فكان تأسيس الجامعة بمثابة حلّ لأحلام الكثيرين وطموحاتهم.

ذات صباح شتوي، كنت قد وصلت للتو واتخذت مكاني خلف الكونتوار بعد أن أشعلت الموقد تحت إبريق الماء الكبير من أجل إعداد المشروبات الساخنة، كنت أصِلُ قبل بدء المحاضرات وقبل الطلاب. وصل ذلك الشاب ذو العينين الواسعتين والشعر المنسدل حتى أعلى ظهره، دخل ممتلئًا همّة ونشاطًا منذ الصباح، يبدو غير آبه بالبرد أو المطر، صباح الخير أنسة جهيدة، للمرّة الأولى يخصّني بالسلام، كان قبلها يدخل بحذر ويلقي كلمة واحدة، مرحبا، يضع أول صندوق ويخرج ليأتي بالثاني ثم يأتي بعلب الميلو والشاي والبن، كان يضعها ويأخذ الصناديق الفارغة ويترك لي مهمّة ترتيبها، لكنه رتّبها في ذلك الصباح تحت المجلى ووضع العلب على الرفوف، ثم رماني بتلك النظرة التي ما زالت عالقة على جلدي مثل الوشم، ابتسم، قال لي اسمي حمادة، ينادونني حمدو، لك أن تناديني كما تشائين سأكون ممنونًا لك بأن أسمع اسمي بصوتك ربما يعجبني، فأنا في الحقيقة لست معجبًا به، ضحك وضحكت، ثم لوّح بيده وقال: لازم تستهلكي الطلبية اليوم حتى آتي غدًا بطلبية جديدة وأتصبّح بهالوجه. كل هذا حدث وأنا مبهورة بجرأته وثقته بنفسه. غادر ولم يغادرني، كان المشهد كفيلًا بأن يبقيني منشغلة به إلى اليوم التالي أستعيده في بالي وأسأل نفسي ما الذي يريده مني هذا الشاب الجسور؟ كنت قد اعتدت على تحرّش باقي الشباب بي بطرق ملتوية، كانوا جميعًا يعرضون

خدماتهم، يريدون أن يقدّموها لتلك الصبية الفقيرة، معتبرين أنهم يناضلون في سبيل قضية نبيلة، مرّة تحت مسمّى الصراع الطبقي، ومرّة تحت مسمّى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل، وأخرى بذريعة تشجيع التعليم والقضاء على أميّة المجتمع وتثقيفه، ومرّات، وبشكل شديد الحذر والمواربة، بذريعة الهداية التي يقابلها الثواب عند ربّ العباد. وكلّهم كانوا يريدون جسد جهيدة ليس أكثر، هذا ما فهمته خلال وجودي في المقصف قريبة من جمهور الشباب ذاك.

لم يكن حمدو يشبههم، كان يفتقد شيئًا يمتلكونه، لكن في الواقع هو من كان يمتلك ما يفتقدون في غالبيتهم، فالإحساس الجامح بالنفس الذي كان يظهر عليهم وعلى سلوكهم كان يقابله لديه نوع من السكينة والانسجام مع الذات، كان يقدّر العمل حدّ العبادة، ولا أظنّ أن عمل والده هو السبب الرئيسي، بل فكرة العمل بحدّ ذاتها كانت تحظى بتقدير كبير لديه.

كان يقول لي بعدما توطّدت علاقتنا: شوفي يديّ الاثنتين، أنا أحبّهما لأنهما بارعتان في الأمور التي تقومان بها، بارعتان في كل شيء لأن لهما إرادة وخيال وماهرتان في التجريب، أنا أحبّ الأيدي الممهورة بأختام الشقاء والعمل. وكنت أضحك من هذه الفكرة، أتصوّر يديه تحملان رأسًا بداخله شيء يشبه الدماغ. إلى أن لامستا جسدي للمرّة الأولى، حينها فهمت ما معنى أن تبدع اليد، ما معنى أن تجيد الشقاء مثلما تجيد تكريس المتعة وإثارة اللذة، لقد كان لحمادة يدان برغم شقائهما تجيدان مداعبة الحرير حدّ شهقة

اللذة. حمادة كان صديق الحياة، وكان يستحق أن يعيشها كما يحلم ويتمنّى.

ذهبت إلى سعيد في الضيعة، كنت مرتبكة في البداية، فأنا لم أكن قد حطّمت كل الحواجز بيني وبينه، كنت ما زلت مبهورة بحياته وطريقة عيشه، غير مصدّقة أن هذا الرّجل يعاني من أي مشكلة نفسية أو عقلية كما يتّهمونه، سعيد لم يكن مجنونًا، كان مختلفًا عمّن حوله وأكثر ما كان يميّزه رفضه، لم يكن يقبل أمرًا يتنافى مع عقله، ولم يكن يتبنّى موقفًا من أي أمر قبل أن يفهمه، كان دائم الأسئلة في وحدته وعزلته التي لم تقف حاجزًا بينه وبين عالم الضيعة والعالم الأوسع. كان لديه الرفاق، أولئك الذين كانوا كالسرّاب أو الحلم وتبدّدوا أمام الحقيقة التي كان لا مفرّ من مواجهتها، إنها البطش والقمع والملاحقة، وهذا شأن آخر لست بمزاج لأستعيده اليوم.

سعيد الذي لم يقل إلّا جملًا موجزة لا يتعدّى أطولها الكلمات الثلاث عندما رآني واقفة بباب غرفته الطينية أوّل مرة بعد يوم محكمتي بشهور قليلة، ابتسم يوم رحت أحكي له عن حمادة، ابتسامته كانت كالضياء الذي منح وجهه إشراقة ما زالت تومض في خلدي إلى اليوم. ما زلت أذكر ذلك اليوم البعيد، يوم زرته للمرّة الأولى، كنت في أوائل صباي، وكانت أعماقي تفور وتغلي وأشعر أن لا شيء يمكن أن يقف في وجهي عندما أنوي على خوض تجربة ما، أو الوصول إلى هدف في بالي، ربّما التفت سعيد إلى هذا الأمر منذ البداية. وصلت بحذر إلى بيته أو صومعته لا أعرف ماذا أسميها،

لكنها كانت بالنسبة إليّ جنّة لا أملك القدرة على وصفها، كنت أشعر بفتنتها. كانت الأرض المحيطة بمسكنه مزروعة بأنواع عديدة من الخضار، كان يزرع شتلات الفليفلة والبندورة والخيار والباذنجان والفاصولياء والبصل والثوم، معظم استهلاكه كان من الأرض، كلّ نوع في موسمه، كان يقسم الأرض إلى مساحات صغيرة بهندسة بسيطة وجميلة. منذ أن لاح طيفي متّجهة إلى مسكنه بدأت الكلاب تنبح، توجّست وخفت منها لكنني قرّرت أن أتمالك نفسي فقد كنت أعرف أن الكلاب تلتقط خوف الشخص وتشمّ عرقه من بعيد، رحت أقترب بهدوء وهي تنبح وتقفز في مكانها كلما اقتربتُ أكثر، كانت خمسة كلاب تعرّفت بينها على واحد من الكلبين اللذين دخلا المزار ونشل أحدهما شملة الشيخ عبّاس حتى وقع طربوشه على الأرض، لكن لونه على ما أذكر كان مختلفًا، فهل يُعقل الشبه حدّ التوأمة مع فارق وحيد فقط هو اللون؟، إلى أن ظهر سعيد في الباب ونهاها فتوقفت عن النباح، ثم أقعت على مؤخّراتها في وضعية استعداد للأمر التالي.

بقي واقفًا في الباب حتى صرت على مسافة قريبة فتقدّم باتجاهي. كان الوقت ظهيرة والشمس حامية، بعد التحية لم يدعُني إلى دخول البيت، التقط كرسيّين منخفضين من كراسي القش وقال تفضّلي، فتبعته إلى خلف البيت حيث كان الفيء أخذ يتمدّد على الأرض المتربة، والدجاجات أمامنا تنبش في الأرض وتلتقط الديدان تلحقها صيصانها. جلست مرتبكة، فقد كان فارق العمر بيننا يجعلني أرتبك، كان يكبرني بأكثر من عشرة أعوام، وكنت قد غادرت طفولتي التي لا أعرف إن كانت طفولة بمعنى الكلمة، أم

إنها سنوات تحسب على الطفولة في أعمارنا، وفي تصنيف الأعمار كنت في بداية مراهقتي، أما بالنسبة لعرف الناس السائد فقد كنت صبية ومثلي كثيرات يتزوّجن في هذا العمر.

سعيد حدّثني لاحقًا بأهمية أن ندافع نحن الفتيات عن ذواتنا ونسعى إلى التعلّم واكتساب المعرفة والخوض في الحياة. خيّم الصمت لدقائق في بداية اللّقاء، كان ينتظر مني أن أباشر الحديث وأخبر عن سبب قدومي، وأخمّن أنه كان يعرفه، وكنتُ وقعت تحت سطوة شعور غريب بدّد كل ما كنت قد حضّرت له في لياليّ السابقة من أجل هذا اللقاء، تبخّرت الأسئلة من رأسي وشعرت بفجوة رهيبة في ذاكرتي. كان وجهي يتوهّج مثل جمرة، وربّما كان مصبوغًا بحمرة وشتْ بارتباكي. قال لي: أهلا وسهلا، شو أخبارك؟ عندها تفوّهت بأوّل جملة فحطّمت قليلًا حاجز الارتباك والرّهبة الماثل في وجهي. قلت له من دون مقدمات: أنت كتير كنت كويّس معي، ما بنسى وقفتك بعيد عن الناس وأنت تراقب المشهد، ليش عملت هيك؟ لم يجب على سؤالي، بل فاجأني بسؤال آخر: احكي لي عن تجربتك يومها. بشو حسّيتِ؟ كيف رضيت أنك تخوضي تجربة قاسية من هالنوع؟

في الحقيقة، كنت أنتظر أن تنفلت فوهة البركان المحصور في صدري، البركان الذي أحرقتني حممه في لياليّ التي تلت ذلك اليوم، أشوى على نار، حطبُها كرامتي وليس لديّ من أشكو إليه هذا الظلم المبارك من غالبية المحيطين بي. كنت أعيد المشهد في خلدي كل يوم وأستعرض تلك الوجوه البائسة المذعورة المستكينة المغلوبة على أمرها، تأتي للفرجةَ على مصير تخافه لأنه حاضر

في بالها باستمرار، وعندما تضعف سطوته، هناك دائمًا من يغذّيه ويضرم نيرانه الواعدة من جديد، أكثرهم الشيخ عبّاس وأشباهه. قلت له: لم يكن بيدي حيلة، حاولت، وقاومت، لكن مصير بيت أهلي كان مهدّدًا بسبب حكايتي، أمي أصرّت وانتابها ذعر دفعها إلى حافة الجنون فيما لو امتنعت عن الخضوع لهذا الامتحان، كانت تقول إنها متأكدة من براءتي لكنها لا تستطيع أن تقنع الناس، ولا ترضى أن تقامر بسمعة عائلتها وبسمعتها وسمعتي، لن يصدّقوا إذا لم يروا البرهان بأعينهم ويعاينوا التجربة بحواسّهم كلها، أبي حاول منعها لكنها أصرّت وهدّدت بأنها ستنتقم من البيت كله إذا منعها، فرضخ ولكنه لم يذهب، رمى المشكلة بين يديها وأشاح وجهه عنها. أفهم ذلك، لكن أريد أن أعرف شعورك أنتِ؟ أنا؟ أنا؟ أخذت أتلعثم بالكلمات، بل بالسؤال. كيف كان بإمكاني شرح شعوري وأنا التي لم تكن قد أفاقت من ذهولها بعد؟ لقد مشيت إلى المقصلة شبه منوّمة، كنت قد ألقيت أسلحتي كلها، أو بالأحرى لم أكن قد تعرّفت على أسلحتي، شعرت بأنني أساق كالنعجة إلى حتفي وأن السكّين تنتظرني هناك حيث سيفرح الناس بذبحي ثم يبكون عليّ في دواخلهم، لم أكن أستطيع التعويل على أحد. قلت له كنت أبكي لكن دموعي تنهمر في صدري حيث كان البركان يغلي ويبخّرها. في تلك الدقائق كانت حياة جديدة تنبثق في أعماقي، لم أفهمها في ذلك الحين، لكنني أعرف أنني لن أكون نفسي، في صدري إعصار قادر على اقتلاع كل ما يعترضه. بقي صامتًا يستمع إليّ، كانت الكلاب تحوم حول الغرفة، تناوش بعضها بعضًا، تقعي في صفّ واحد، وتقفز دفعة واحدة وكأن أمرًا أتاها في اللحظة نفسها، عندما

انتبه إلى أنني أمعن النظر إليها عمل حركة بيده فانسحبت الكلاب إلى الجهة المعاكسة ولم يعد يصدر عنها صوت. ثم سألني: وما الذي ستفعلينه؟ شعرت أنه يحاصرني من أجل أن ألتقط نفسي الحائرة وأجمعها في قالب يمكّنني من الإمساك بزمامها. لم أكن أعرف بالضبط ماذا سأفعل، كل ما كان يشغلني عندما أتيت إليه أن أمدّ جسرًا يصلني به، فأنا لم أنسَ إلى اليوم وقفته تلك خلف الجموع المحتشدة يراقب من زاويته المهملة ما يحدث لي، وبي فضول ولهفة لأن أتعرّف إليه، هذا الذي ينعتونه بالجنون. جئت كي أكتشف فوجدت نفسي عارية بأعماقي أمامه، لم أصمد أمام سطوته، ربما لم تكن سطوة لكنني أنا المتلهّفة لأن أبوح بكل ما يجيش في أعماقي، استمرأت أن أنزع عني كلّ الأقنعة وكلّ التحفظ، فوجدت نفسي، وأنا أتوه أمام سؤاله الذي وضعني في مواجهة نفسي فأحدث صدمة في وعيي، أخبره بسرّي من دون مقدمات. قلت له: أنا من أحرقت المزار.

بعد كل هذه السنين أسأل نفسي هل كنت يومها أعترف كما لو كنت في حضرة كاهن؟ هل كنت بحاجة إلى ذلك الاعتراف حتى أقتل أي بقايا من توجّس بسبب فعلي؟ لقد كان فيه جموح حدّ التهوّر لم أحسب له حسابًا ليلتها، كان أبو طاقة بالنسبة إليّ أمرًا حتميًّا مثل أمور كثيرة تتغلغل في حياتنا من دون تفكير أو مراجعة، لقد كبرت على حكاياته، وانطبع في ذاكرتي بكل رهبته وجبروته المقترن لدى الناس بميزان العدل الذي يضبط حياة البشر. أخبرني سعيد فيما بعد أن المزارات والمقامات كانت ضرورية لحياة الجماعة فيما مضى فهي حارسة القيم وركيزة الحياة الجماعية

وضامنة الحقوق، فبسبب الرهبة التي تثيرها في نفوسهم ومكانة الولي صاحب المقام الذي يعتبرونه شفيعهم عند الله، كانت تضبط الحياة وتكبح الارتكابات أو تقلّل منها. لكن اليوم صار من الواجب إعادتها إلى مكانها الأصلي، إلى موقعها كرمز يغذّي الناحية الروحية والإيمانية عند الناس، لقد أصبحوا يعيشون في دولة يا زيزفون، والدولة تجمع الذين يعيشون في كنفها وتسيّر حياتهم وفق القانون، هذا ما أخبرني به في إحدى الزيارات التي صرت أقوم بها كل حين إليه. عدنا مرارًا إلى ذلك الحديث وذاك الحدث، كان يستدرجه إلى ساحة وعينا عودة المظاهر الدينية والتمسك بالطقوس وإشهار الانتماء الطائفي بالتدريج حتى وصل الناس بغالبيتهم إلى ترجيح الانتماء الديني والمذهبي، بل العشائري أيضًا، على بقية الانتماءات بعدما كانت تتراجع قليلًا فيما مضى، حدّثني فيما بعد بأن ما قمنا به كان مبالغًا به، إذ يجب الابتعاد عن الاعتداء على معتقدات الناس بل يجب العمل على تخليصهم من سطوتها، قال لي: من لا يعرف لا يمارس شيئًا إلّا الطاعة، وهؤلاء البسطاء أغرقوهم في جهلهم، لكن ما صار قد صار ولم يكن هناك بدائل بالنسبة إلى حالتي، وبالنسبة إليه وقد كان ما زال جامحًا كما كان قبل تسريحه من الجيش، كانت السخرية من المشايخ طريقة لتحطيم الهالة القدسية التي يحيطون أنفسهم بها، فهم بشر مثل العوام ومن الممكن لكلب أن يقفز على الواحد منهم ويسرق شملته ويسقط طربوشه. وكنا نضحك كلما استعدنا المشهد.

عندما أخبرته بحرقي المزار تجمّدت تعابير وجهه، بقي صامتًا ينظر إليّ وأنا أتلاشى وأتبدّد وأذوي إلى أعماقي، شعرت أمام غموض

تعابيره أنني انزلقت بسرعة كبيرة إلى التورط بإشكال لا أعرف إلى أين سيوصلني، لم أكن تعرّفت إليه بعد، ولم أكن فعلت أكثر من اقتحامي عالمه بتهوّر لم أحسب عواقبه، ولم أكن أعرف بالضبط مبرره سوى شعوري الضمني بالممنونية تجاهه لتعاطفه معي يوم محكمتي. لكنني بعد أن عرفته مع الوقت، فهمت معنى سكوته الجامد حينها، هو الرجل الذي لا يكفّ عن التفكير، الرصين بأحكامه، الذي لا يقبل أي أمر يتنافى مع المنطق.

أحرقتِ المزار إذن؟ لن أسألك عن التفاصيل، فهذا أمر تافه، ثم إن الواقعة قد وقعت وهذا يكفي لأعرف أنك قمت بالمغامرة بنجاح، لكن قولي لي، لماذا أحرقتِه؟ لا أعرف، كان في صدري نار تتّقد وتحرقني وتحرمني النوم، أكابد شعورًا بالظلم والقهر والاعتداء عليّ، وكل الناس راضية بقهري، وكأني غنمة متشوّقين حتى يشوفوها تندبح. ما كان القهر بسبب أني بريئة من التهمة الكذابة فقط، كنت مقهورة لأنه الكل تكاتفوا حتى يقيدوني ويشاركوا بتنفيذ الحكم علي، طيّب شو علاقتهم فيني من الأساس؟ ليش ما بيتركوا البنت بحالها؟

بكيت وأنا أخبره مع أنني كنت عازمة على ألّا أبكي، لكن جرحي نزف بغزارة وآلمني، قال لي بعد أن منحني وقتًا للبكاء: لا تندمي على ما فعلتِه، لكن أريد منك ألّا تخبري أحدًا به، يكفي أن تبوحي به لشخص واحد حتى ترتاحي، وهذا الشخص هو أنا، بعدها ادفنيه في صدرك وامسكي طرف الخيط الذي سيوصلك إلى هدفك، لكن عليك أن يكون لك هدف وألّا تكتفي بالانتقام بحرق المزار. دافعي عن حريتك يا زيزفون ولا تتنازلي عنها أبدًا.

7

اختفى مُنيّر في الوقت الذي أحتاجه فيه، كان وقت صراع الديكة قد حان، وهذا الموعد بالنسبة إليه أهم من صلاته لو كان يصلّي، ومن طعامه وشرابه ومن أي أمر آخر، لم يكن يجيد غير شيئين في حياته، أو للدقة أكثر لم يكن يأبه بأمر في الحياة سوى بشغفه الذي يتجلّى في نبش أوكار الأفاعي نهارًا، وصراع الديكة عند المغرب. منذ أن ترك المدرسة ظهرت ميوله وأخذت تفصح عن نفسها بالتدريج بعد صراع مرير بينه وبين أبويه، وسلّما بحقيقة أن هذا الولد غير صالح للدراسة، في وقت كان التعليم حلم ومطلب جميع الساكنين في القرى، لأن التعليم يفتح فرص العمل لأبنائهم والتوظيف عند الدولة كخيار إضافي إلى عملهم في الأرض التي لم تكن تسدّ احتياجاتهم ولا تمنحهم حياة الريف إمكانية أن يكونوا أصحاب حرف. كان يتابع الدجاجات يفتح لها باب القنّ باكرًا، يذرّ لها الحبوب كي تأكل، يملأ جرن الماء كي تشرب ويدخل القن قبل أمه ليجمع البيض الذي كان يخبّئ منه حصّة إضافية له، بقدر غرامه بالبيض المقلي بالزبدة والبصل الأخضر والبندورة التي كان يقطفها من الحاكورة مباشرة وخبز التنور، لم يكن يأبه بكلمات أمّه وتأنيبها إيّاه لأنه لا يترك ما يكفي لإخوته، كانت تصرخ به: الله لا يكبّرك، صرت قدّ الشنتير وبعدك بتغافل خواتك على الأكل، لكن مُنيّر لم يكن يأبه بكلامها، يخرج وقد امتلأ بطنه وشعر بالرضا، يتحرّش بالديك الوحيد الذي كان يختال بين الدجاجات

ويتصارع معه إلى أن يصل العنف بالديك حدّ الهجوم عليه ونقره من نقرته، فيضربه بعصا ثخينة ويلعنه ثم يتركه ويذهب إلى البرّية حيث عالمه وحياته بين الحشرات والعقارب والأفاعي. عندما تركنا القرية وذهبنا إلى اللاذقية لم يكن قد أتمّ التاسعة من عمره، وكان قبلها يأتي إلى بيتنا باستمرار، كانت أمّي تشفق عليه وتلفّ له الشنكليش والزبدة أو المربى في رغيف وتعطيه إيّاه، ولقد حزن عليها كثيرًا عندما ماتت، كان يحبّ بيتنا بالرغم من مناكفات أخي شعبان، مع أنه كان يكبره بحوالي الأربع سنوات، إلّا أن شعبان كان عدوانيًّا معه ويعامله باستعلاء وقح، ربّما كان يغار من اهتمام أمّي به، أو ربّما كانت العلامات الأولى لشخصيّته التي تبلورت فيما بعد، الشخصيّة المتسلّطة العدائية. لكن مُنيّر بقي يتردّد على البيت حتى بعد ذهابنا، وكنت عندما آتي إلى الضيعة وأدخل إلى البيت، قبل أن أبني بيتي الصغير، كي لا يبقى متروكًا للهجران كان يأتي ويفاجئني، لا أعرف كيف كان يشعر بقدومي، هو حاضر وغائب في الوقت نفسه، كان كما لو أنه حارس المكان، وكنت ألاحظ التغيرات الصارخة التي تظهر على جسده، لقد كبر ونما بسرعة كبيرة، لكن مسحة الطفولة المترافقة مع قليل من البلادة بقيت كعلامة فارقة تميزه.

في بيت يبعد عن بيتنا باتجاه الشرق مسير ثلاثين أو أربعين دقيقة، كان يجري كل يوم صراع الديكة، ويبدأ المراهنون بالتوافد إلى المكان حيث جهّز وجيه الأفكح الساحة الخلفية لبيته ومهّدها لتكون حلبة الصراع تلك، لا أعرف ما هو لقبه لكنه كان يعاني من مشكلة في قدميه جعلته يمشي.مثل ذكر البط، صاروا ينادونه منذ

طفولته بالأفكح حتى لبسه اللقب وصار اسمه وجيه الأفكح، أو أحيانًا الأفكح بدون مقدمات.

صارت حلبة الصراع مناسبة كي تنتف الديكة ريش بعضها بعضًا وتدمي بعضها أيضًا، يتحلّق الناس حول الحلبة، منهم قيام ومنهم يجلسون القرفصاء، يأخذهم الحماس فلا يركنون لوضعية واحدة، تعلو الأصوات وتتداخل الكلمات والصيحات والسّباب والشتائم واللعنات على أحد الديوك أو الاستهزاء بصاحبه، لقد سمعت مرّات عديدة صراخهم ومفرداتهم الفجة ولعناتهم ودعواتهم عندما كنت أخرج للمشوار وقت الغروب، وكانت تظهر بعض الأجساد من طرف الجدار الخلفي للبيت عندما كانوا يتقافزون ويصعدون ويهبطون كلما احتدّ النّزال. كانت تحتدم المعركة بين الديكين إلى أن ينهكهما الهياج والقفز والنقر وإدماء بعضهما بعضًا فيعلن الحكم، الذي غالبًا ما كان أيوب الشوباصي يقوم بهذه المهمة، يعلن وقف العراك حتى يستعيد الديكان أنفاسهما. كان مْنيّر يأتي كل يوم ويحكي لي ولوالدي بعدما عدتُ واستقرّيتُ في البيت الجديد، عن تلك المباريات، وعن ديكته التي لم تكن دائمًا صاحبة حظوظ وافرة، وكان في أثناء حماسته وهو يصف لنا العراك يقول: يا عمّي بو إبراهيم، والله ما بعرف ليش لما الديك اللي عندي بيربح ويشتريه الواحد بكم ورقة، ببصير يربح أكثر عند صاحبه الجديد ويبيعه بأغلى منّي بكتير. وكان أبي ينصحه، بلا لك هالشغلة يا مْنيّر، روح اشتغل بالأرض بيّك صار كبير على شغل الأرض، ورجّع مرتك بلكي الله بيرزقك شي ولد يتطلع فيك بآخرتك. كان مْنيّر يضحك مثلما لو كان يهزأ من كلام

أبي، رجّع مرتي؟ شو بدّي بوجع القلب؟ أنا هيك عايش متل ما بدّي ليش حتى رجّعها تنكّد عليّ من جديد؟ كان عيسى قد أقنعه بعد جهد ورجاء كبيرين أن يتزوّج، وعندما وافق خطب له بنتًا يتيمة من الضيعة، لم يبقَ لها من أسرتها غير أمّها التي أصابها العمى بسبب مياه بيضاء في عينيها، كانت بنتًا شقراء ببشرة حليبية وعينين زرقاوين، لكنها كانت حولاء، وكانوا يلقبونها في الضيعة بالشوصة، بدريّة الشوصة، لكن الشوصة التي كان زواجها من مْنيّر أمرًا يجب أن يحصل ككل شيء، لم تكمل العامين عنده، نحلت وغارت مسحة الطفولة التي كانت تجلّل وجهها الجميل عميقًا حتى صارت تبدو والهمّ ينضح من عينيها، ويتراكم العمش اليابس على جفونها، عادت إلى بيت أمها وحياة البؤس التي كانت تعيشها، من بؤس إلى أبأس. لم يتمسّك مْنيّر بها، ولم يكترث بالأمر كثيرًا، قال لها وكأن الأمر يحدث مع شخص آخر: روحي لعند أمك، الله معك، أنا ما لي زعلة. قيل بعدها في الضيعة إن منيّر ما بيطلع معه شي. في إشارة إلى أنه لم يستطع أن يمارس رجولته معها، كان يعاني من مشكلة ما على ما يبدو، وكانت حياة البرّية وصراع الديكة حياته البديلة أو ملاذه، أو ربما فيها شعر بوجوده الحقيقي.

انتظرت عودة مْنيّر والنار تأكلني، كان حزني شديدًا، وحرقتي أشد وأنا أمضي ساعات الفقد الأولى وحيدة بعيدة عن جسد سعيد وهو يخسر حرارته وتتسلّل إليه برودة الموت قبل أن يدفنوه تحت التراب، هو الذي كان يحلم بحرق جثمانه، أريد أن أفهم وأعرف كيف مات، من اكتشف موته؟ منذ متى؟ تلك التفاصيل الصغيرة التي تُعاد وتُعاد عن الميت في لحظات الموت الأولى قبل

أن يبدّلوا إلى الحديث عنه وعن مناقبه، وكانوا يرفعون بالميت مهما كان إلى مراتب لا تخطر على البال من النزاهة والخلق الحسن والأفعال الخيّرة والشهامة والتضحية، مثلما لو أنهم يقدّمون للموت استرضاء كي يحيد عنهم، إلى أن تنتهي فترة العزاء ويتحرّر المحيطون من سطوة الموت ويعودوا إلى دوامة حياتهم، فيفرغون حينها لنبش سيرته وفضح المخبوء كما يقولون، بعد أن يكون قد غاب ولم يعد قادرًا على الدفاع عن نفسه.

في الماضي، عندما كنت صغيرة لم يكن في الضيعة جامع، ولا في معظم القرى، كانت الزيارات والمقامات فقط للدعاءات والرجاءات والنذر التي ينذرها الناس لوجه الله كما يقولون، ولم يكن الناس يذهبون إلى الجامع للصلاة، حتى لم يكن هناك كثير من الناس يصلّون، كانوا يؤدون صلاتهم الفردية في أثناء الشغل في الحقل، خاصة عند المغيب، أمّا الصلاة الجماعية فكانت تقام في حضرة الموت فقط، أو في الأعياد التي يقيمها الناس ويدعون المشايخ كي يباركوها، وهذا ما كان لا يعجب سعيد أيضًا، كان يقول لي: لماذا كل هذا التعب؟ ألا يملّ الشيخ من تكرار نفس الأقوال ونفس الدعاءات ونفس عبارات الترحّم على الميت؟ كيف لا يخطئ باسم الميت؟ هو لا يفعل شيئًا إضافيًا غير استبدال اسم الميت باسم آخر في طقوس صلاته ودعاءاته. أستغرب سلوك الناس، بدلًا من كل هذه الأفعال والتهافت على القيام بواجباتهم تجاه الميت، لماذا لا يكرمونه في حياته؟ غريب أمر البشر يا زيزفون، يتقاتلون ويتباغضون ويحملون السلاح على بعضهم بعضًا، ويحيكون الدسائس ويبدعون في النميمة، وفي حضرة الموت ينقلبون إلى

حملان وادعة ويتنافسون بالشهامة والإيثار. أنا لا أريد من أحد أن يكرمني بعد موتي، ليتني أستطيع أن أضمن نهاية تشبه ما أتمنّاه. وكان ينقبض صدري عندما يأتي على سيرة الموت، أحتجّ وأقول: بالله عليك شيلنا من سيرة الموت، أنا لا أحبّها خاصة عندما تحكي عن موتك. لكنه كان ينظر إلى الموت بطريقة مختلفة، خاصّة في السنوات الأخيرة التي استشرى فيها في سوريا، فهو بالرغم من عزلته يتابع الأحداث كلها، ويمتلئ صدره بالغضب مما آلت إليه الأمور، كان يقول: لا خلاص لبلدنا طالما هو محكوم بالآليات نفسها من الخوف والقمع والفساد، صار الناس متخندقين في الماضي، ومع كل مجزرة جديدة تزداد اللهفة إليه والعيش فيه، الماضي هو الملاذ الآمن يا زيزفون، هو البقعة الوحيدة الواضحة بالنسبة إلى عقول الناس وقلوبهم المتعبة، حتى الموت صار له معنى آخر لديهم، الموت الذي يكون ثمن منع الموت عنهم في بلاد أفرغت من كل شيء ما عدا شبحه المخيف، هكذا صار الناس. وكنت أصغي إلى أحاديثه وأستعيدها في بالي عندما آوي إلى فراشي، أقلّبها وأنبش بين حروفها وكلماتها فيترجّع في خلدي السؤال الذي سألته لوالدي ذات يوم عن الرجعية، فهل استدعاء الماضي وطلب العيش وفق منظوماته هو الرجعية؟ كم كنّا نمشي باتجاه الرجعية في السنوات الماضية إذن حتى وصلنا اليوم إلى ما نحن عليه؟ إن حجاب ولاء الذي استدرجناها إلى نزعه في الصف كان حالة فردية حينها، كانت قليلات النساء المحجّبات لكن اليوم صرن كثيرات، وإذا كان الشيخ عبّاس في ذلك الزمن يهيمن على عقول الناس ويجذب إليه المريدين، فاليوم هناك أديب وعشرات

على شاكلته في كل قرية وفي كل حي. كان يدهشني بكمّ المعلومات التي يعرفها، والقدرة على تحليل الواقع وهو الذي يعيش في عزلة مديدة، بين كتبه وكلابه وراديو ترانزستور ماركة شارب لم يعد أحد يعرفها إلّا من هم في جيله، حتى التلفزيون لم يكن يأبه به كثيرًا، ولم يُدخله إلى عالمه إلّا بعد الأحداث التي وقعت في سوريا، فأتى بواحد صغير يشاهد الأخبار فيه. عندما كنت أسأله هل هو سعيد بعزلته وبعده عن الناس؟ كان يقول لي يكفي أنني أمتلك نفسي، أعرف الحرية، فأنا حرّ في أن أفعل أي شيء في عالم لم يمنحني فرصة أن يكون لدي شيء لأفعله. لقد عوقبت وسجنت وتعرضت للضرب والإيذاء الجسدي من أجل كسر نفسي وحرق روحي، لكنني لم أستطع أن أغيّر نفسي، لم أستطع أن أخون المنطق الذي تعلّمته من مسائل الرياضيات ونظرياتها، أرادوا في العسكرية أن يحطّمونا، وهناك من يسأل لماذا خسرنا حروبنا وأراضينا، لماذا نحن مهزومون؟ لقد عصيت الأوامر التي لا يقبلها عقلي أو كرامتي، وإذا كانت عسكرية؟ ما يعني هذا؟ هل أوّل شرط لبناء جيش أن نهزم أفراده ونكسر كرامتهم؟ ما علاقة العلوم الحربية وتأهيل الفرد لأن يكون عسكريًا كفؤًا بأن ينفّذ أوامر من مثل: روحوا يا حيوانات أنت وياه، شايفين هادا الحيط؟ بدّي تدفشوه متر لورا. هذا واحد من الأوامر التي سجنت بسببها، لم أسجن فقط بل ضُربت وأهنت، يومها انطلق رفاقي مثل السّهم إلى الحائط وبقيت مكاني أنظر إليهم وأكاد لا أصدق، كان منظرهم وهم يدفشون الحائط متصبّبين عرقًا ووجوههم ككتلة النار، ويعرفون أنه حائط وأنهم يعاندون المستحيل، يبكيني ويضحكني في الوقت نفسه،

لكن صوت الضابط وهو يصرخ جعل الدماء تغور من شراييني وصرت شاحبًا كالشمع: يا حيوان شو ناطر؟ انعقد لساني للوهلة الأولى، ثم يبست أطرافي وبقيت كحائط آخر مقابل الحائط الذي يناطحه رفاقي، لم أتزحزح من مكاني، أعاد صراخه بصوت أعلى: أطرش كمان؟ أنا ما بعرف أنو الجحش بيطرش، تقدم لهون قبل ما علّمك كيف بتكون أدنين الكرّ بلكي بتسمع منيح. لكنني لم أتقدم لحظتها انزلقت إلى عالم الرياضيات وقوانين الفيزياء والفعل ورد الفعل، وكيف يمكن أن يأمرنا بتغيير مكان حائط من الإسمنت المسلح مغروس بعمق قاماتنا في الأرض، لم أفق من شرودي إلاّ على صفعة على خدي تلتها لكمة تخلخلت أسناني معها وامتلأ فمي بالدم. هكذا كانت تدريباتنا، لماذا عليّ أن أغطس في الوحول وآكل الأفاعي وأشرب من مياه المجارير وكل ما تعافه نفسي حتى أتدرّب على القتال؟ في المعركة تفرض الحرب علينا كيف نحافظ على وجودنا، فلماذا عليّ أن أجرّب توحش الحياة إذا لم أكن في موقف تهديد لوجودي؟ في المعركة عندما لا يكون هناك أمامي غير غريزة الوحوش كي أنجو بحياتي فإن الأمر يختلف، فلماذا عليّ تجربة عيش الوحوش البرية وأنا لست في معركة؟ لم أحتمل حياة الإذلال وقهر نفوسنا، لم أحتمل حتى الدروس النظرية التي كانوا يرجّحونها على حساب الدروس العملية والفنّية. لم يكن مكاني هناك، دخلت في حالة من الضيق والتمرّد حتى على نفسي، وعندما كنت أصل حدّ تهديدهم إذا لم أجب على الأسئلة، أباشر في الشرح المنطقي مدعومًا بنظريات الرياضيات، بل ببديهياتها وقوانين الفيزياء، تجلجل ضحكاتهم في الجو هازئين مني، أي يا

معلم، أين وصلت في نظرياتك واختراعاتك؟ أنت عالِم والله حرام تكون بيناتنا، أنت مكانك أرفع من هيك، أنت أكبر من البلاد كلها، ثم تنهال الصفعات على وجهي، بعدها يستلمني عسكري بأمر من الضابط ويركلني حتى يوصلني إلى الزنزانة. أمضيت أكثر من نصف الدورة في الحبس، وأخيرًا، عندما يئسوا من إمكانية إصلاحي ومن كثرة العقوبات في سجلّي، عرضوني على طبيب لمدة خمس دقائق، لأخرج بعد عدة أيام مسرّحًا من الخدمة بتشخيص أنني غير صالح للخدمة، فأنا شخصية شكاكة زوَريّة تسيطر عليّ مشاعر جنون العظمة. كان يحكي لي كل حين ذكرياته، ويقول: والأدهى من ذلك أنّ كلّ الضيعة صدّقت، وشوفي كيف أنا مجنون بنظرهم، لكن بتعرفي لماذا كل الضيعة صدّقت جنوني؟ ببساطة لأنني لم أعرف الحفاظ على مكتسبات خارقة كان ممكن أن يمنحني إياها كوني ضابطًا، بالنسبة إليهم مجنون كلّ من يعاف نعمة كهذه.

اليوم، ومنذ أكثر من ثلاثين سنة ازدادت الجوامع في القرى، صار معظمها يملك جامعًا أو أكثر، حتى صاروا عندما يوزّعون ورقات النعي يذيّلونها بعبارة حيث سيصلّى على جثمانه الطاهر في جامع القرية، وجامع القرية صار حقيقة ولم يعد افتراضًا عندما كانوا يصلّون عليه في بيته أو أمام القبر قبل أن يهيلوا عليه التراب، حتى لم تكن ورقات النعي معروفة في الضيعة، كانوا يطلقون أعيرة نارية يحدّد الناس مصدرها فيعرفون أن هناك من فارق الحياة فيتوافدون إلى المكان ويتعاون الجميع في إجراءات الدفن والتعزية، كان كلّ فرد يأتي من أجل العزاء بالميت لا يدخل ويده فارغة، لا بدّ من إحضار شيء ليساهم مع أهل الميت ويشاركهم في

محنتهم، كانوا يحضرون البرغل والحنطة والرز والشاي والسكر، ومنهم من يحضر الخضار مما تجود به أرضه، يحاولون ألا يجعلوا أهل الفقيد يحملون عبء أي أمر، الله يرحم أيام زمان، تغيّرت الأمور اليوم، لم تعد الضيعة ضيعة، ولم تصبح كالمدينة، فقدت حيويتها ونضارتها وصارت بلا هوية.

لم أطق البقاء في داخل البيت، استأذنت والدي كي أخرج، قلت له أريد أن أتمشى حول البيت وأشم هواء طريًّا، كان يشعر بحزني، صمت ولم يرد عليّ. حتى هو كان لديه ما يضغط على صدره ويقهره، كنت أستطيع استقراء دواخله من تعابير وجهه، من نظرة عينيه، من صوته الواهن الذي يزداد انخفاضًا.

لم يكن مْنيّر يحمل جوّالًا لأكلّمه، بعكس غالبية أهل الضيعة، ولم يكن يكترث بهذه الأمور ويراها مضيعة للوقت مع أن الوقت الذي يملكه لا يملكه أحد، الزمن بالنسبة إليه كيان ممتلئ مُصمت ليس فيه فجوات ليخشى أن تبتلعه، كما إنه يكره الارتباط بأحد أو مسؤولية، منيّر يريد أن يرتشف الحياة على طريقته حتى ثمالتها غير مرتبط إلّا بنفسه وديكته والبرّية.

انتظرت وانتظرت، وشريط من الذكريات يعود إلى الوراء، قلبي يستعيد كل اللحظات التي أمضيتها مع سعيد وأنا مؤمنة بأنه لن يموت، لم أتخيّل موته يومًا ما بكلّ سذاجة، وكنت أنتظر أن أفرح معه في تحقيق حلمه الذي لم أكن أعرفه تمامًا إنما أعرف أنه ينشد هدفًا شبه مستحيل من شدة نبله. عزْلتُه جعلت الآخرين واثقين من جنونه، وإلا كيف يمكِن لشاب كانت فُتحت له طاقة

من السماء أن ينكرها ويرميها غير آسف؟ لقد خسر فرصة أن يكون ضابطًا كبيرًا لديه سطوة وسلطة، لو لم يُطرد من الخدمة ويُسرّح بقرار لجنة طبية تصفه بالشخصية المصابة بجنون العظمة غير صالحة للخدمة، لكان الآن يملك الكثير، ولكان بنى قصرًا في الضيعة أسوة بفلان وفلان من الضباط الكبار، وحتى لا أبتعد كثيرًا يمكنني القول أسوة بأخي شعبان الذي يطلّ قصره من فوق الهضبة المرتفعة المقابلة لضيعتنا لجهة الجنوب، حيث ضيعة بيت حميه، أهل زكية التي لا تكفّ عن الافتخار بعائلتها وتتوقع من كل من حولها أن يظهروا لها تقديرهم ومعرفتهم بالمسافة التي تفصلها عنهم، زكية التي تعتز بأن أجدادها لأبيها كانوا زعماء المنطقة أيام الإقطاع، بالرغم من أن قانون الإصلاح الزراعي سطا على ممتلكاتهم وصاروا مثلهم مثل بقية الناس، إلّا أنها استطاعت أن تستعيد ملكية مساحة واسعة برفع دعوى استلمها محام يُقال عنه إنه حربوق، يعني يعرف الدهاليز وكيف ينسلّ فيها ومنها ويطوّع القوانين. لو بقي سعيد ضابطًا لكان رحم والده وأخوته من الشقاء، لكنه مجنون، ترك النعيم وانزوى في غرفة تعيسة مع كلاب تكاد عيشته لا تفترق عن عيشتهم، هكذا كانوا يقولون عنه، عايش عيشة الكلاب. لكنه كان يعيش في جنته التي شيّدها بقلبه ويديه، ولم تكن غاية عزلته الانقطاع عن الناس، بل كان يريد أن يرسم حدوده الخاصة وأن يكون بيده مفاتيح حياته، قال لي مرّة: الناس تمتلك ألسنة لا تكف عن علك الكلام، لكنني لا أرغب لهذه الألسنة أن تضجّ في رأسي ساعة تريد، أريد أن أفتح أبواب سمعي إلى الأصوات التي تنقر على وعيي، أما بقية الأصوات فأنا أختار متى

وكيف أسمعها.

دخلتُ إلى البيت لأتفقّد أبي، وجدته كما تركته ما زال على كرسيّه ضامًّا ساعديه إلى صدره ومطرقًا في الأرض، كان يبكي بصمت، أنّبتُ نفسي لأنني تركته لكنني كنت أضعف من أن أسانده، ومع كل حزني أصابتني دموعه في الصميم. رجوته أن يحكي، قل لي يا بيّي ما الذي يبكيك؟ تحت إلحاحي وتعبه من بكائه نطق بجملة وحيدة: خيّك يا بنتي، والله ما بعرف شو بدي أعمل له حتى يرضى. كانت هذه الجملة كافية لأفهم ما به، لأعرف ما كنت أعرفه وعرفته فيما مضى، إنه شعبان، نقطة ضعفه التي لا أعرف مبرّرًا لها غير تعلّقه به كونه الذكر، وزيادة أنه يمتلك من القوة التي يمنحه إياها منصبه ما يكفي ليضفي عليه هالة تجعل حتى والده يهابها ويسعى لاسترضائه، كان يحبّ برهوم أيضًا، لكن برهوم ابتعد وعاش في الظل، لم يأبه بالأضواء أو الشهرة أو السطوة، أراد أن يبني حياته الخاصة بعيدًا حتى بالجغرافية، فسافر إلى الإمارات كما كثيرون غيره في هذه البلاد وبقي بعيدًا لا يأتي إلاّ في إجازات محسوبة. كان شعبان يريد من أبي أن يسجّل الأرض باسمه واسم برهوم ويلحّ عليه في الفترة الأخيرة خوفًا من موت والدي، وهو الذي صار أقرب إلى الموت، ويصرّ على أنه يستحق زيادة في الحصّة عن برهوم لأنه بقي في البلد يعتني به أما برهوم فقد ابتعد. أنا لم أكن في المعادلة، بل كان يخشى أن أرث فيما لو غادر أبي من دون أن يسجّل الأرض على اسمه، أما عواطف فقد كانت قد غادرتنا وهي في بداية تفتّحها على الحياة وتركت جرحها ينزف في قلبي إلى اليوم.

ربتُّ على ظهره صامتة لا أعرف ماذا أقول، كيف أواسيه من حزن يكابده وأنا أرفض بالمطلق الطريقة التي يفكر بها ومارسها من زمان بعيد، كنت في بداية وعيي معجبة به حدّ التسليم، أصدّقه في كل شيء، لم يكن هكذا في مرحلة سابقة من عمره، لا أستطيع أن أحدّد اللحظة المفصلية التي انقلب فيها لأنه لم ينقلب، هو تغير بالتدريج، تغيّر مع تغيّر مزاجه والشعور الفادح بالخسارة بعد الحرب، ومن ثم ما تتالى عليه من نائبات الدهر، لكنه لم يكن جذريًّا في مواقفه، هذه حقيقة تكشّفت أمامي مع الوقت، فهو بقدر ما كان يحكي عن ضرورة أن تعطى البنت حقّها كان يخاف من مواجهة بيئته بأنه أعطاها حقّها حتى في الميراث، بل كانت البنت بالنسبة إليه كما الغالبية في محيطه مطلوبًا منها المساهمة في أعباء البيت والمساهمة في مصروف البيت، وعند مرض أحد من ذويها فهي المطالبة الأولى بالخدمة والقيام بهم، ثم يقولون البنت كلها حنان، تعطف على أهلها وتخدمهم. فيما مضى كنت أتمنى أن أقول له: أليست هذه هي الرجعية التي سألتك عنها وأنا صغيرة؟ لكنني أصمت وأتراجع. كيف أواسيه وأنزع الحزن من قلبه وأنا أعرف نقاط ضعفه التي لا يسمح بالاقتراب منها، هو يسعى دائمًا إلى إرضاء شعبان ويخاف زعله كثيرًا، ثم بماذا أناقشه وهو على هذه الحال من الضعف والهزيمة؟ هزيمته أمام عمره وخيانة جسده المتفاقمة؟ لقد جادلته فيما مضى ولم أصل إلّا إلى تكريس الخلاف بيننا، ثم رحت أصمت عن كل أمر أعرف مسبقًا أنه لن يوصلنا إلّا إلى تعميق الهوة بيننا من دون طائل، أبي لم يفكر مرة في أن البنت لها حقّ في الميراث، حتى أنا التي لم تتزوج، لا يهم

طالما لدي تقاعدي فهو مطمئن وباله مرتاح، لا يعرف ما معنى أن يكون تقاعدي اليوم لا يتجاوز الثلاثين ألف ليرة في وقت انهارت فيه الليرة، ومع هذا أصمت وأتجنّب الحديث معه في هذه الأمور، لكن بيتي الذي بنيته بالتقتير على نفسي لأكون قريبة من مكان طفولتي وذكرياتي، وأبقى قريبة من سعيد، ليس لي، فلقد بنيته من دون رخصة، يوم لم يكن المخطّط التنظيمي قد أقرّ للمنطقة، وعمّرته فوق أرض ليست باسمي، ولن تكون، فلا الأرض حصّلت، ولا البيت بيتي بمعنى الكلمة، سوف يذهب بتوزيع الأرض بين شعبان وبرهوم وأنا خارج المعادلة وخارج المكان.

ساعدته كي ينهض وينام في سريره، وخرجت ثانية إلى الشرفة المطلّة على الطريق، أنظر إلى السماء، أعدّ النجوم وأسرح مع أفكاري، يقطع السكون كل حين صوت سيارة على الطريق، أو صوت طيارة تتجه منخفضة لتهبط في مطار حميميم أو تقلع منه بعد أن صار قاعدة روسية، إلى أن لاح شبح يقترب، عرفته من مشيته، كان مُنيّر الذي لم ينسَ أن يمرّ بي قبل أن يأوي إلى النوم، انهمرتُ عليه بالأسئلة مثل المطر وهو صامت، انتظر حتى توقفت وصمتُّ أنتظر ردّا على أسئلتي، ليقول لي: سعيد مات مقتول، كلابه أربعة ماتوا متسمّمين، وهو مقتول بغرفته، في كلب ما كان ميت، يظهر كان بالبرية، لمّا رجع شاف صاحبه ميت، راح ينبح وينبح ويركض حتى وصل لقدام بيت بو عزيز، عرف بو عزيز أنه الكلب في شي وراه، راح مشي خلفه حتى وصل على غرفة سعيد وشافه عالأرض مقتول بالرّصاص والدم بركة تحته.

صمت مُنيّر، وأنا كنت أختنق، أستجدي صمته كي يقول غير ذلك، أن يتنصّل مما أخبرني، حتى لو قال لي كنت أمزح سوف أتقبّل مزاحه الفظ السخيف، لكنّه لم يقل، بقيت معه نتطلّع ببعضنا بعضًا والدمع يفور في الأعماق، لا هو يبكي ولا أنا استطعت إلى البكاء سبيلا. في لحظة خاطفة دار في بالي أن أستفيض بالأسئلة حول الخبر الأخير، لكن ما الذي يمكن أن يقدمه لي شخص مثل مُنيّر؟ في الوقت نفسه ألوم نفسي لأنني أستخفّ به، ربما لديه من الحقائق أكثر من توقعي. مُنيّر، قل لي كم رصاصة شافوا بجسد سعيد؟ ما بعرف، بس قالوا إنهم أخذوه إلى المستشفى حتى يشوفه الطبيب الشرعي ويكتب تقريره. أربكتني إجابته، يا ربّي، هل من المعقول أن سعيد مات منتحرًا؟ لكن لماذا ينتحر؟ لماذا أجّل انتحاره حتى تجاوز السبعين؟ لم يكن يبدو عليه ما يثير القلق من أن يقدم على عمل كهذا، أنا التي تعرفه حقّ المعرفة، لا يمكن لسعيد أن ينهي حياته، كان لحياته هدف ومعنى، كان في عزلته محاطًا بالرفاق منذ أن باشرها، وكم ذهلت عندما أخبرني بعد عدة سنوات عن الأستاذ، عابد الذي لم نكن نأتي على ذكر اسمه، كان اسمه الأستاذ وكفى حتى يعرفه كل أهل الضيعة الذين أحبّوه وأكرموه وهو بادلهم المشاعر نفسها لولا أن أديب النذل لعب لعبته القذرة تلك، أديب الذي انتهى به الأمر بعد ثلاث محاولات فاشلة للنجاح بالثانوية أن تطوّع في الأمن وسُرّح بعد خدمة طويلة برتبة مساعد أول، ليصبح بعد تسريحه الشيخ أديب، لكن فظاعة الموقف دفعتني إلى الارتياب في كل شيء.

*

من الدفتر

عبد الجليل والرحلة إلى الشام

كانوا ثلة من الشباب هم الأكثر تواجدًا في المقصف، أذكر معظمهم، وجوههم، قاماتهم، لباسهم، لهجاتهم، نبرات أصواتهم، ضجيجهم، كانوا من الكليّات المعدودة التي افتتحت في الجامعة المحدثة، هندسة مدنية، طب بشري، هندسة زراعية، علوم، آداب. وكانوا في عمر الضجيج والفتوّة والأحلام الجامحة، وفخورين ومعتدّين بأنفسهم، على وجه الخصوص أولئك الذين يدرسون الطب والهندسة.

حمدو لم يكن من بينهم، كان يدرس التاريخ بالمراسلة في جامعة دمشق، لم يكن ظرفه الحياتي يؤهّله كي يستقرّ في الشام ويحضر المحاضرات والدروس التي تلقى في المدرّجات، لكنه كان يحصل على المقرّرات ويدرس في البيت ويذهب في أوقات الامتحان إلى دمشق، يقدّم الامتحان ويعود، لقد كان أبوه بحاجة إليه خاصّة بعدما كبر أخوته، والصيد لا يمكن أن يوفّر البحبوحة في المعيشة بالرغم من قسوة حياة الصيّاد وأنواء البحر. كان يشتغل في التوزيع على المحلات لصالح تجّار الجملة، لديه درّاجة بعجلات ثلاث كتلك التي كانت تأخذنا إلى المدرسة في طفولتي مع أولاد القرية، في ذلك اليوم الذي ناداني فيه باسمي وعرّفني بنفسه بتلقائية فاتنة، أشعل في نفسي مشاعر كنت قد دفنتها عميقًا بعد الخيبة الموجعة التي سبّبها لي أديب، فقد تولّد لديّ إحساس بأن الحبّ لعنة أصابتني، وأن كلّ مَن حولي يتحالفون من أجل معاقبتي،

والله كان الناس يحيّروني بسلوكهم، يعني كنّا نقدر نختلط مع الشباب ونروح ونجي ونظهر من البيوت متل مابدنا. كانت السهرات مختلطة والأفراح والأعياد، حتى مراسم الدفن كانت النساء يشاركن في جزء منها، تذهب النساء إلى الدفن مع الرجال، غالبًا يمشين خلفهم، وعند الصلاة يبتعدن إلى الخلف ريثما ينهي الشيخ صلاته مع جمع الرجال. كان من المألوف أن يزداد عدد السهّيرة في البيت الذي يحوي صبايا، وكان الأهل يدركون أن الشباب يأتون إلى السهرة من أجل الصبايا، ولم يكن الأمر مستهجنًا طالما الأمر يجري على الملأ وليس أكثر من تزجية وقت ومرح. فما الذي يدفعهم إلى إنزال الحدّ المُهين من العقوبات بحق فتاة أحبت أو أقامت علاقة مع شخص ما؟ وما علاقتهم بامرأة فيما لو أقامت علاقة مع رجل وهي أرملة أو مطلّقة، ليصموها بأنها عايبة؟ لم يكن أديب يستهدف الأستاذ تحديدًا لأنه من طائفة أخرى، لكنّه أراد بدافع غيرته المقيتة أن يستنهض ضمير الناس ضدّي بتحريكه مستنقعًا كان أوشك على الجفاف، متوقّعًا من ذلك أن يكسرني ويجرّني إلى حظيرته كالنعجة ليمارس تسلّطه عليّ، فليس الزواج من طائفة أخرى أمرًا مذمومًا بالمطلق أو غير مألوف، لجهة الشاب تحديدًا، وهناك العديد ممن تزوّجوا من الشام وحلب وحمص، حتى في المدينة ذاتها كان هناك زواج من غير الطائفة، ربما زواج الشاب من خارج طائفته أمر مقبول أكثر من الفتاة، لأن الفتاة في النتيجة تتبع زوجها في عرفهم، وهذا الأمر يتشابهون فيه مع الجميع من كل الطوائف.

لكن حمادة في ذلك اليوم نفخ فوق الجمرة المدفونة تحت

رمادي فجعلها تتقد وتتوهّج من جديد، هل كان لعلاقتي بسعيد التي كانت قد بدأت تتوطّد دورٌ في إعادة الثقة إلى نفسي؟ كان سعيد يحدّثني عن معنى أن يكون الشخص ملك نفسه، أن يكون الجسد أمرًا خاصًا لا يحقّ لأحد، مهما بلغ من القرب أو السلطة، أن يفرض على صاحبه طريقة تعامله معه، كان يشكّل وفق مفهومه المجال الحيوي الأهم الذي من خلاله يُمارس القمع والقهر والاستغلال وكسر الإرادة وإدماء الروح. تجربتي بالسجن لا تُقارن بمن دخلوا المعتقلات بسبب مبدأ أو رأي أو موقف، أنا كنت أعاقَب لأنني أرفض الأوامر المهينة لكرامتي، ولأنني أجادل في دروس التوجيه المعنوي التي كانت تُتلى علينا، أدخل السجن لفترة قصيرة حتى تنتهي عقوبتي، ومع ذلك كانت الوسيلة الأكثر استخدامًا من أجل ردعي وعقابي هي انتهاك جسدي لأجل كسر إرادتي. هكذا كان يخبرني، وكنت أستمع وأتلهّف لأعرف أكثر.

في إحدى المرّات، بينما كنتُ أجلس في استراحة قصيرة خلف حاجز الخدمة لم يكن لدي طلبات خلالها، كنت أفتح كتابًا من كتب البكالوريا، التي قرّرت أن أتقدّم إلى امتحاناتها في قائمة الأحرار، في حضني، أسترق النظر إليه، أقرأ فيغافلني الموضوع وينشلني إلى جوّ الدرس وأنفصل عن المحيط، وهذا ما شكل لي إرباكًا عندما كان يفتضح أمري، خاصّة مع الرفيق عبد الجليل. عبد الجليل كان مسؤولًا في اتحاد الطلبة، وكان يحرص على دخول المقصف يوميًا ليكون بين الطلبة بحجّة أنه ينزل إلى القاعدة التي يمثّلها كي يعرف مشاكلها ويطّلع على همومها ويطالب لها بحقوقها، علمًا بأن لديه مكتبًا في المبنى الإداري، لكن مخالطة الطلبة أمر مهم بالنسبة

إليه، فهو يؤدّي عملًا حزبيًّا في النتيجة، ووطنيًّا بامتياز عندما يتسقّط أخبار بقية زملائه ممن تفوح من سلوكهم رائحة مريبة تشكل خطرًا على الوطن والوطنية، ويرفع تقاريره إلى الجهات المختصّة. لم أكن أعرف هذه التفاصيل عنه في البداية، لكنني عرفتها من جملة ما عرفت وتكشّف أمامي من خبايا الواقع الذي كنت جاهلة به، وكنت أنقله إلى سعيد على شكل أسئلة. كنت أعيش على الهامش، وأطلّ على مشهد حياة جديدة، حياة الطلبة التي لم أكن أنتمي إليها، بل كنت هناك لخدمتهم. كنت جهيدة البائسة التي تعمل لتعيش، بينما هم لا شغل لديهم غير أنهم طلاب جامعة، وطموحهم وأحلامهم كبيرة، يستطيعون توسيعها كما يرغبون. كان يعكّر أحلامي التفكير بحالتي فيما لو نجحتُ في البكالوريا ودخلتُ الجامعة كطالبة، كيف سيقبلني هؤلاء الذين كنت أقوم على خدمتهم؟ وهل سينظرون إليّ كما يليق بزميلة أن ينظروا إليها؟ حتى اسم جهيدة لم أكن قادرة على خلعه وإشهار نفسي على أنني زيزفون، فزيزفون هو الاسم الذي يربطني إلى الآخرين بعلاقات حميمة بعيدًا عن القيود والعلاقات الجامدة، لم أكن واحدة من بينهم أو أنتمي إلى عالمهم كي يفهموا ما معنى أن أكون زيزفون.

وقف عبد الجليل أمام حاجز الشغل، تطلّع في عينيّ مبتسمًا، ولم تكن ابتسامته جذابة، لكنه بدا لي حينها أنه يفرضها عليّ من فوق، من علیائه التي كان حريصًا على إظهارها. مرحبا جهيدة، بدّي كاسة ميلو وتكون كبيرة. ثم مدّ رأسه بفضول مرتفعًا قليلًا على أمشاط قدميه وسألني: ماذا تقرئين؟ ارتبكت، تلعثمت قليلًا وأنا

أحاول أن أخفي كتاب المنطق تحت الحاجز لكنه أعاد السؤال: ها؟ ما قلتِ لي، شو الكتاب هادا؟ قلت له إنه كتاب الفلسفة للبكالوريا الأدبي. مممم، مفكّرة تقدمي بكالوريا؟ برافو عليك، أحيّيكِ. بتريدي مساعدة؟ أنا جاهز أساعدك، وإذا بتحبّي بعطيك دروس خصوصية. لم أحر جوابًا حينها، بقيت صامتة قليلًا ثم شكرته من دون أن أعطي ردًّا، كنت أحرّك الميلو في الكوب عندما قال لي: لازم تاخدي البكالوريا وتدرسي جامعة، ولو أن هذا الجمال بيكفيكِ بلا شهادات. ناولته الميلو وبقيت صامتة، لا أعرف إن كان وجهي تلوّن حينها أو بدا عليّ الارتباك، لكنني شعرت بضيق، خصوصًا أن حمادة كان قد بدأ يصبح واقعًا جميلًا لديّ، لا أريد لحلمي به أن يتعكّر.

لم يمضِ إلّا عدّة أيام حتى فاجأني عبد الجليل بعرضٍ دغدغ أحلامي، قال لي سوف نقوم برحلة إلى دمشق، وبإمكانك أن تأتي معنا، أنا أحضر لك الموافقة باعتبارك من موظفي الجامعة ولست طالبة، ما رأيك؟ سننام ليلتين في دمشق ولست مضطرة على التقيد ببرنامج الرحلة خاصّة بما يخص النشاطات العلمية مع جامعة دمشق. حرّض عرضه حلمي القديم، حلم السفر الذي نسجته باكرًا في لياليّ المترعة بالحكايات، وصوت المذيعين يأتي من بعيد محمّلًا بالأسرار الجميلة الغاوية، هنا دمشق؟ ما أحلاها يوم زرتُها للمرّة الوحيدة أيّام المعرض، كان قد مضى على تلك الرحلة أكثر من عشر سنوات، يوم كانت أمّي ما تزال كالنحلة التي لا تكفّ عن الحركة والعمل، في ذلك الزمن الذي يرنّ في خلدي مثل رنين الفضة، عندما كان بيتنا ما زال دافئًا بالرغم من أن الحياة

كانت أكثر شقاء، لكنها لم تكن بخيلة مثلما هي الآن، ومثلما صارت عليه أمس. في ومضة خاطفة كالبرق وقد أضاء نفسي رسمُ خيالي مشهدًا مفرحًا لرحلة من هذا النوع، قلت في نفسي سأخبر حمادة ربما يلاقي لي إلى هناك ونتسكّع معًا في شوارع الشام وأزقّتها، حمادة يعرف الشام أكثر مني، فهو يزورها باستمرار أيام الامتحانات، قبلتُ العرض في سرّي سعيدة به، مع أن عرض عبد الجليل هذا لم تغب عن بالي دوافعه، لكنني سوّيت الأمر مع نفسي، قلت فليكن، لن يستطيع أن يأخذ مني ما أرفض أن أمنحه إياه وسوف أوارب وأتركه يتعشّم دائمًا بالغد، قلت له إنني أشكره وأرغب في هذا، إنما عليّ أن أجري بعض الترتيبات، أظن أنه خمّن في سرّه ما هي الترتيبات، فقال مسبقًا، بالنسبة للأوتيل لا تهتمّي فبإمكاني أن أدبّر لك غرفة في المدينة الجامعية بدمشق تبيتين فيها ليلتين مثل بقية الطالبات، ما رأيك؟ كان يتكلم بثقة وتباهٍ، فهو قادر على ذلك، مسؤول عن اتحاد الطلبة في الجامعة ولديه نظراء له في جامعة دمشق، لن يعجز عن تأمين عرضٍ كهذا. حاصرني من كلّ الجهات حتى لم يعد لدي مبرّر كي أؤجّل ردّي بالقبول، فوافقت وكان معي عدة أيام اتفقت خلالها مع حمادة. المشكلة الأخرى كانت في مسؤوليات البيت وإخوتي الذين يذهبون إلى المدارس، برهوم وشعبان وعواطف التي كانت تحتاج رعايتي أكثر من الآخرين، لقد كانت في الصف الثالث، وأبي يذهب إلى شغله في حراسة مرآب الآليات في الشركة التي يعمل بها.

في موعد الرحلة كنت مع جموع الطلاب الواقفين أمام مبنى كلية الهندسة، كان هناك ثلاثة باصات تنتظر أن يصعد إليها الطلاب،

كنت أتابع ابتهاجهم ونشاطهم اللافت في ذلك الصباح، وكيف كانوا يتوزعون على مجموعات غالبها مختلط من صبايا وشباب، وهم يضجّون بالفرح والمزاح وإلقاء النكات، بينما كانت هناك مجموعة صغيرة من الطالبات تنتحي جانبًا وكأنها تشهر إشارة بعدم رغبتها في الاختلاط، بينهن عدة طالبات يضعن الحجاب على رؤوسهن. كان عبد الجليل منهمكًا، بين يديه أوراق ومعه ثلاثة طلاب آخرون يلحقون به كيفما تحرّك، لم يكن يخفى عليّ أنه بالرغم من انشغاله كان يرمقني بشكل خاطف، وقد كنت أقف في مجموعة معظم طلابها يعرفونني، في الحقيقة كان معظمهم من الشباب الذكور وهذا ما سهّل عليّ الانضمام إلى مجموعتهم من دون أن يدعوني، فقد كنت وحيدة بدون رفيقة أو رفيق، أشعر بنوع من الغربة بينهم، فاقتربت منهم وهم فسحوا لي مكانًا بينهم. أعطى عبد الجليل أمر الصعود إلى الباصات، لكنه قال إن الصعود بحسب اللوائح التي بين يديه، فلقد تمّ ترتيب الأسماء على المقاعد مسبقًا، احتجّ الطلاب وعلت أصواتهم وازداد صخبهم، قال له واحد منهم: يا زميل، نحن رايحين رحلة مو حاجزين بالكرنك أو بالطيارة حتى توزعونا على مقاعد بكيفكم، بدنا نطلع بالباصات متل ما نحن بنحب. عندما اعترض عبد الجليل، أخذ الطلاب ينضمون إلى عاطف، الشاب الذي اعترض أوّلًا، وتجمّعوا في مجموعات أمام أبواب الباصات يهمّون بالصعود إليها، لكن عبد الجليل احتدّ وغضب وقال بصوت عالٍ وزاجر: ارجعوا إلى الخلف إذا بتريدوا، هذا إجراء تنظيمي وعليكم تنفيذه. لكن الطلاب لم يكترثوا بتهديده، بل أخذوا بالصعود مثلما كانوا يريدون، فلم يكن

أمام عبد الجليل إلّا الصمت، لكن وجهه كان يشي بغيظ متوعّد. ترك الباصات تنتظر أمر الانطلاق ودخل مبنى الكليّة، غاب مدة تقارب الساعة كان جوّ الرحلة قد ابتدأ خلالها بين الطلاب وبدأ مرحهم وهرجهم، ثم عاد وخلفه الطلاب الثلاثة الآخرون، صعدوا إلى الباص الأول ثم انطلقت الرحلة.

كنت في الباص الثاني مع مجموعة ظريفة من الطلاب والطالبات، معظمهم أعرفهم ويعرفونني، لم أشعر بغربة عن الجو، خاصة أن الشباب كانوا يلاطفونني ويمازحونني، أما الفتيات فكنّ حذرات مني، ما خلا البعض القليل منهنّ. كان الجو مرحًا بعد أن انطلق الجميع وتركوا العنان لأنفسهم بلا تحفّظ، راحوا يغنّون بروح جماعية متناغمة، يلوّحون للباص الذي خلفهم، حتى انزلق سائقا الباصين إلى الجو ودبّ فيهما حماس الشباب، فصارا يتجاوزان بعضهما بعضًا بالدور، وكلما توازى الباصان علت الصرخات وارتفعت الأيادي بالتلويح أو المناكفة بإشارات الفوز وغيرها، ثم يعودون إلى الغناء من جديد، كانت أغاني الشيخ إمام هي الأكثر ترددًا، وبين وصلة وأخرى يصدح صوت أحدهم كانوا ينادونه غابي، بأغاني التراث اللاذقاني الطربية، يا شجرة الليمون يا عينيّ، أو يا ماحلى الفسحة على شطّ البحر، فيتمايل الحشد الذي تشكّل فجأة بعد أن ترك الجميع مقاعدهم وانحشروا في الممر بينها ليكونوا كتلة واحدة تغني وتطرب وتتمايل. لم نشعر بالوقت إلّا وقد دخلنا مدينة طرطوس، انعطفت الباصات باتجاه الكورنيش ثم في مكان معين توقّف الباص الأول الذي يحوي عبد الجليل ورفاقه، فتوقّف الباصان الآخران ونزل الطلاب يهرجون

ويمرحون مثل خليّة النحل، قال عبد الجليل إن معنا مدة ساعة استراحة يمكننا التنزّه على الكورنيش ثم نجتمع ثانية في النقطة ذاتها حيث تقف الباصات، وانطلق الطلاب كلّ مجموعة في اتجاه، لم يلبثوا أن انضمّوا إلى بعضهم بعضًا عند فسحة صغيرة على الكورنيش واستأنفوا الغناء من جديد، كان البحر متلوّنًا بدرجات مختلفة والهواء باردًا، لكن الشمس كانت تمدّنا بالدفء وهي تتوسط السماء. كنت معهم، وكان أحدهم يلاحقني كيفما مشيت ويبقى قريبًا مني، شاب طويل نحيل بشعر كثيف أجعد يتكوّم فوق رأسه كالخوذة، أظهر اهتمامًا بي وصار يسألني إن كنت بحاجة إلى شيء، حتى إنه عرض عليّ سيجارة فاعتذرت لأنني لم أكن أدخن، صرت أتسلّى معه، بدلًا من أن أبقى وحيدة مثل الغريبة عن المجموع، فالفتيات كنّ جامدات معي ويتحاشين الاقتراب مني، لم أفهم سلوكهن حينها، صحيح أنني عاملة المقصف التي تقوم بخدمتهنّ لكن هذا لا يعني أنني أقل شأنًا منهنّ، فأنا شابة مثلهن ولو سمحت ظروفي لكنت الآن واحدة منهنّ، شعرت في نفسي حينها بنوع من القهر والغيرة، لكن الشباب بشكل عام كانوا مهتمّين بي، ومن لم يبادر بكلمة أو مزحة أو تعريف بنفسه كان يرسل إليّ علامات الترحيب بابتسامة وربما أكثر، لكن معظمهم كان لديه وميض ما في عينيه، لا أعرف إن كان اهتمام الشباب هو من جعل الفتيات ينفرن مني، فمن أنا حتى أنافسهن على زملائهن؟ عبد الجليل كان مشغولًا، وكان يصطنع عدم الاهتمام بي. عندما أشرفت الساعة على الانتهاء توجّهنا إلى الباصات وصعدنا مثلما كنا في بداية الطريق، لكن الباصات لم تنطلق، لم يعرف أحد

لمَ التأخير، وعندما كانوا يسألون السائق لماذا لا تنطلق يقول لم تأتني الأوامر، أنا أنفّذ الأوامر من الجهة التي تعاقدت معي. بعد قليل توقفت سيارة من نوع بيجو ستيشن بيضاء اللون، كان من الشائع أن تكون معظم السيارات الأمنية من هذا الطراز، نزل منها ضابط برتبة نقيب، وخلفها سيارة جيب نزل منها عناصر بلباس مدني. توجه عبد الجليل مباشرة إلى الضابط ورأيناه يصافحه، بدأ الطلاب ينزلون من الباصات ليعرفوا ما الأمر، قال الضابط لدينا أسماء ثلاثة طلاب مطلوبين إلى الفرع، وتلا أسماءهم، مباشرة كانت ردّة فعل الطلاب أن دفعوا بزملائهم الثلاثة إلى أحد الباصات وأخذوا يصعدون خلفهم، صار المطلوبون في آخر الباص محاطين بزملائهم، صعد النقيب إلى الباص ووقف عند الباب وراح يخاطب الجميع: يا شباب، افسحوا مجالًا لزملائكم الذين ناديت عليهم، الشغل معهم لمدة ساعة زمان ليس أكثر، سيرافقوننا إلى الفرع نستضيفهم على فنجان قهوة بينما نسألهم كم سؤال ليس أكثر، ثم نعيدهم. لكن الطلاب اجتمعوا على قلب واحد، لم يفسحوا مجالًا كي يأخذوا زملاءهم الثلاثة، كلّ الطلاب، وأظن أنهم كانوا مختلفين بميولهم السياسية أو انتماءاتهم الدينية أو حتى الطبقية والعائلية، أو حتى من لم يكن لديه ميل أو انتماء إلّا إلى ذاته، جميعهم تمسكوا بموقف واحد وشكّلوا ما يشبه الحاجز بأجسادهم ليحموا زملاءهم، لن يذهبوا معكم. بعد عدة سجالات ومفاوضات توصّل النقيب إلى أن يقبل شرط الطلاب، قالوا نذهب كلنا. مضى من الوقت أكثر من ساعتين، كان محسوبًا من المدّة المقدّرة للرحلة والتي بموجبها اتفقت مع حمادة على أن

نلتقي في ساعة محدّدة في الشام بعد توقّع وصولنا المفترض بدون عراقيل، صرت قلقة، من الموقف حينًا، ومن تأخّري عن الموعد معه حينًا آخر، فلم يكن هناك وسيلة اتصال بيننا غير الموعد المفترض في هامش من الوقت ومكان معلوم كان قريبًا جدًّا من السكن الجامعي، لأنني لم أكن أعرف التجوال في الشام وحدي.

دخلت الباصات الثلاثة إلى حرم الفرع، كانت فسحة متوسطة المساحة تصطف فيها بعض السيارات، وكان هناك متسع للباصات، فتحت الأبواب ونزل الطلاب جميعًا يتقدّمون زملاءهم المطلوبين، لكن النقيب طالب بهم، وعندما تقدّموا وهمّ الطلاب بالمسير خلفهم كانت البنادق موجّهة إلى الصدور. أرعبني المشهد، خفت وارتبكت وقفزت إلى بالي جميع القصص التي كنت قد سمعتها عن الممارسات الأمنية، وعن معنى أن يُدعى الفرد إلى فنجان قهوة في أحدها، كان يعني ببساطة أن فنجان القهوة مفتوح على الأبد، وأن شاربه مرشّح لمصير مجهول.

انتظرنا حتى تعب منّا الانتظار، كان الوجوم باديًا على الوجوه، وفي الوقت نفسه كانت هناك نظرات كراهية بين معظم الطلاب وبين عبد الجليل وشلته. بعد ثلاث ساعات أفرج عن الموقوفين، خرجوا بوجوه مرهقة متعبة وسحنات بائسة خائبة، لم يبدُ عليهم أنهم شربوا القهوة، بل كانوا كمن شرب الحنظل، عرفت فيما بعد أن إخبارية ذهبت إلى الأمن السياسي قبل انطلاق الباصات، ويبدو أن الأمن السياسي أحال الأمر إلى فرع طرطوس، الذي استدعى ثلاثة من الطلاب كانوا مصنّفين بالنسبة إليهم كمناصرين لأحزاب

ناشطة ضدّ السلطة، وأن التهمة التي كانت ذريعة توقيفهم للتحقيق في أنهم محرّضون على التمرّد.

تابعت الرحلة طريقها إلى الشام، لكن شيئًا تبدّل، حاول الطلاب التقاط لحظة المرح التي طارت من بين أيديهم مرة أخرى، نجحوا في إعادة الصخب والحركة لكن شيئًا كان قد فُقد، ولم تعد الأرواح تنطلق متناغمة في تحليق فوضوي كأنما السماء كلها لها، بل كان هناك ما يختبئ بين ذرات الهواء يرمي بثقله على النفوس، وكان الشباب الثلاثة الذين أوقفوا للتحقيق معهم يحاولون ضبط إيقاعهم على وقع الضجيج الذي يستبيح فضاء الباص، لكن التوتّر كان يشفّ من خلف تعابير وجوههم المتكلّفة، أقلّهم ارتباكًا كان غزوان الشلف، الشاب الذي عرض عليّ خدماته وقدّم لي سيجارة اعتذرت عن قبولها، كان نحيلًا فوضوي الهيئة، يلبس قميصًا فضفاضًا فوق سروال حائل اللون في أكثر من موضع، تبدو عليه علامات الفقر وعدم الاكتراث بها، أنفه دقيق وشفتاه رقيقتان كلما انفرجتا بانت أسنانه المدبّبة كأسنان قط برّي، يوحي وجهه بعمر أكبر من عمره خاصة عندما يضحك ويتجعّد جلد وجهه النحيل حول فمه وعينيه وفي جبينه.

عندما خفّ الصخب قليلًا وتوقّف الطلاب عن الغناء توزّعوا على المقاعد، أقبل غزوان عليّ وجلس بجانبي من دون استئذان، وشرع يحكي ويحكي من دون توقّف، كان يبدو أنه لا يعرف شيئًا عن القيود وأن هناك حدودًا بين الأفراد، لا يأبه بشيء حوله، راح يحكي لي عن حياته في لبنان، أخبرني أنه اشتغل هناك منذ أن أخذ

الشهادة الإعدادية، كان يسافر في كل صيف عندما تكون المدارس في عطلة إلى هناك ويشتغل عاملًا في أي مجال يصحّ له، وأنّ الحياة في لبنان تختلف عن الحياة في اللاذقية، هناك الحرّية التي نفتقدها هنا، الناس يقولون ما يشاؤون من دون خوف ويلبسون كما يحلو لهم، لو تشوفي البنات بالصيف ما أحلى لباسهن، وما أحلى أجسادهن، والشباب هناك مقبلون على الحياة، دائمًا لديهم حياة سهر ومرح، لكن كنت صغير، الآن بعد ما صرت بقدر روح وعيش متل الشباب بلّشتْ الحرب عندهم، خسارة. وكنت أستمع، لم أسأل أي سؤال، بل كنت أتلقّى هذا السيل من الكلام من دون أن أفهم ما مبرّره، سوى أن هذا الشاب، الذي بالرغم من نحوله الشديد وعلامات العوز التي عانى منها لمدة طويلة تبدو عليه علامات ذكاء حاد، يحمل شخصية ثرثارة فوضوية، وما فاجأني أكثر أنه كان يدرس في كليّة الطب. أخبرني كيف كان ينزل من ضيعته التي تبعد حوالي عشرة كيلومترات عن المدينة كل يوم باكرًا على دراجة هوائية تحمل صندوقًا كبيرًا وخرجًا يشبه الخرج الذي يوضع على ظهر الدابة توضع فيه غالونات الحليب من كل جهة، وفي الصندوق أقراص القريشة التي كانت أمّه تصنعها في البيت، يبيعها إلى المحلات التي تعاقدوا معها على تأمين الحليب كل يوم، ثم يعود محمّلًا بالأغراض التي يحتاجونها في البيت، يعطي أمّه المال والسلع ويعود ثانية ليباشر دوامه في الجامعة. تعاطفت معه حينها، فهو شاب كادح ويشقى كي يتعلّم. قلت له إني تأثّرت بحكايته وأحترم تجربته كما أحترم العمل، لذلك أنا أعمل أيضًا بينما أحضّر لامتحان البكالوريا، عندها وبكل جرأة مدّ يده

وأحاط كتفي ثم شدّني إليه حتى لامس وجهه وجهي وهو يقول: برافو. نفرت مبتعدة ولم أنبس بكلمة، ثم بقيت صامتة طوال الطريق.

وصلنا إلى الشام متأخّرين أكثر من ثلاث أو أربع ساعات، كان الوقت عصرًا والشام لا تهدأ الحركة فيها، السيارات والناس والمحلات، مررنا بمحاذاة بردى كانت مياهه شحيحة بالرغم من موسم الأمطار، تذكّرت المعرض الذي زرته مع أبي وإخوتي من أكثر من عشر سنوات في زيارتي الوحيدة لدمشق، كان بردى يومذاك يتدفق زاهيًا بألوان المصابيح الموزّعة على جانبيه وفي ساحة المعرض تنعكس على صفحته وكأنّها تتراقص مع الموسيقى والأغاني التي تصدح من جانب المعرض. شعرت عند وصولنا أن شيئًا تغيّر يشي به جوّ المدينة من دون أن يفصح عنه، كأن للمدن أسرارًا تحتفظ بها ولا تبوح إلّا لمن يفهمها ويعرف أن لها أرواحًا تعاني مثلما تبتهج.

تركني مُنيّر بعد أن رمى فتيله ليحرق أعماقي، قال لي سعيد مات مقتولًا، كان مصابًا بالرصاص وغارقًا في بركة دمائه، ثم غادر. مُنيّر وحده من يدير وقته، أولويّاته غير أولويّات الآخرين، وهو عندما يكون عائدًا من حفلة مصارعة لا يمكن التنبّؤ بمزاجه حتى لو كان ديكُه الرابح، لم يخبرني شيئًا عن الجنازة والدفن أو أين سيكون العزاء، لم ينقل إليّ ماذا يحكي الآخرون، كيف استقبلوا نبأ موت سعيد، بماذا علّقوا، التفاصيل التي كنت أتمنّى أن أسمعها فأبني جسوري الخاصّة التي تربطني بالفضاء المحيط بجسده المسجّى فوق دمائه ينتظر الإفراج عنه. بقيت على الشرفة واجمة تشتعل الأفكار في رأسي فتزيد من اضطرام روحي وتتعاظم فاجعتي. خالجني شعور رهيب بالنقمة والغضب والرغبة في الثأر، لكن ممّن أثأر وكيف أثأر ولماذا أثأر؟ كان يجب عليّ أن أثأر مرّتين قبل اليوم على الأقل، مرّة عندما أصيب والدي باعتداء خسيس على جسده فجعله شبه مقعد لباقي عمره يجترّ الهزائم خلف بعضها ويعيش صراعًا مريرًا مع أشرس الخيانات، خيانة جسده، ومرّة أخرى يوم ماتت عواطف بتلك الطريقة الغامضة، التي قدّموها إلينا عن سبب موتها بتقرير من الطبيب الشرعي، لكنني لم أعرف أن أنتقم أو أثأر، بل تابعت حياتي مثلما لو كنت أشاهد فيلمًا بطلته تشبهني.

أذرع الشرفة جيئة وذهابًا، أتوقّف أمام فكرة، أصحو على واقعي فجأة وتتأجّج النيران من جديد، أبكي بقهر وأنا أبتلع دموعي. كان

أبي قد صار في فراشه ولن يبرحه قبل الفجر، موعد استيقاظه المعتاد، عندما لمحتُ طيفًا يتقدم باتجاهي انبثق من جهة التنور، كان يتقدم بحذر فارتجف قلبي، لم أتحرّك أو أسارع في الدخول إلى البيت، خفت أن يكون في ردّة فعلي فيما لو فعلت استفزازًا له، لكنني تراجعت قليلًا بحيث أصبحت قريبة من الباب الذي أدخل من خلاله البيت، بقي الطيف يتقدم إلى أن وصل إلى حائط الشرفة وخاطبني بصوت منخفض: مسا الخير، هون بيت الخالة زيزفون مو هيك؟ جفلتُ من الصوت كأنني سمعته منذ زمن بعيد بنبرته ورنينه ولهجته، لم يكن صوتًا من أهل الضيعة، ولم تكن لهجة من لهجات ساكنيها. قال لي: الخالة زيزفون، وقعت عليّ الجملة مثل شلال جاشت مشاعري معها، خالة؟ لقد كبرتِ يا زيزفون، هذا الذي يرمي عليك السلام يبدو بعمر ابنك لو كان لديك أبناء، لكنك لم تنجبي، وها هو العمر انسلّ بخفة كلصّ أبى أن يغادر من دون أن يترك ندبة في روحك. أنجب؟ لقد أجّلتُ أحلامي كلها وأنا أنتظر الغد الذي سأسافر فيه إلى مدن بعيدة، لكنني لم أسافر ولم أغادر حتى البقعة الضيقة التي عشتُ فيها، كلّ شيء كان عندي مؤجّلًا إلى الغد، والغد لا يأتي، وسعيد الذي اكتشفته في داخلي كان قد فات أوان الغد معه، هل كنتُ أستمرئ حياة الاستنقاع تلك؟ لا لم أستمرئها لكنني عشتها ولم أكن أعرف حينها أنها استنقاع غافلني فيه الزمن فصحوت على زمن لم يعد للبدايات فيه مطرح.

مسا النور، أهلين، تفضّل. من حضرتك؟ ممكن أدخل؟ أنا بحاجة أحكي معك؟ طلب مني بصوت أخفض مما قبل فشعرت أن وراءه سرًّا. تفضّل يا ابني. قلتها بحرقة ولاقيته إلى المدخل الذي

يوصل إلى الشرفة من جهة الخارج بعد أن أشرت إليه. صافحني وجلس حيث دعوته على كرسي سحبته إلى الزاوية البعيدة من الشرفة كي لا يسمع أبي حديثنا، ارتمى عليه مثل منهك وصل للتوّ إلى الخط الأخير في سباق مجهد، اتضحت قليلًا معالم وجهه تحت نور مصباح الشارع القائم على مفرق الطريق، لمحت دمعًا يتلألأ في عينيه، كان يبكي، ما حكاية هذا الشاب؟ بدأت بالتعاطف معه قبل أن أعرف حكايته، مدفوعة بذلك الشعور الغريب الذي انتابني عندما رمى التحيّة عليّ. دخلت بحذر إلى البيت، أحضرت له قنينة ماء وكأسًا، شرب الماء وكنت أسمع طقطقة حنجرته وهو يبتلعه، وضع الكأس على سور الشرفة وقال لي: أنا نور، نور الديواني. ارتجف قلبي عندما سمعت لقبه، خطفني إلى الخلف سنوات طويلة. قال لي أنا نور، ابن عابد، هل تذكرين الأستاذ؟ إنه والدي، لقد حدّثني عنكم كثيرًا، حكى لي الحكايات عن أوّل تجربة له في العمل عندما عيّنوه مدرّسًا في هذه القرية، وحكى لي عن أهلها وطيبتهم، وحكى لي عن العم سعيد. ثم غصّ نور في الكلام، لم يستطع أن يكمل، راح يبكي، ورحت أبكي معه.

سألته ما الذي جاء به اليوم إلى هنا؟ فراح يتدفّق مثل السيل الجارف، يحكي شذرات من هنا وهناك، لا يعرف كيف يدير حكاية متكاملة وكان عليّ أن أرتق الثقوب وأوصل قطع الحكاية ببعضها بعضًا وأنا أتلقى المفاجآت الغريبة واحدة تلو الأخرى. كنت كمن دخلت غابة من الأسرار، أشعر فيها باللّهفة والوحشة في وقت واحد، بالفضول والترقّب ومعرفة المزيد، يتملّكني الخوف من اكتشاف ما لا أستطيع احتماله، شعرت بأن القدر يلعب معي أو

يهزأ مني، أو ربما يخفي ما لا يسرّني، لكنني أريد أن أعرف وأعرف وأخنق جهلي، هل كنت طوال عمري أعيش مع الوهم؟ أم كانت حياتي سرابًا؟ ما هذه العبثية المثيرة؟

نور كان في السنة الأخيرة من الهندسة المعلوماتية، يدرس في جامعة تشرين كانت تنقصه علامتان في مفاضلة القبول عن المعدّل المطلوب في جامعة دمشق، وهو راغب في هذا الفرع، سجّله أبوه الأستاذ عابد في الجامعة، وأوكل مهمة متابعته من الناحية النفسية والروحية إلى رفيق عمره ودربه سعيد، هكذا أخبرني. قال لي نور إن سعيد كان يحكي له عني كلما جاءا على ذكر الضيعة والحياة فيها، وقال له مرّاتٍ إذا احتجتَ إلى شيء ولم أكن موجودًا فاذهب إلى زيزفون، سوف تساعدك.

أخبرني نور بأنه لا يستطيع البقاء هنا، هو لا يريد أن يحمل سلاحًا ويدخل في هذه الحرب القذرة، أكره الحرب، أكره الدماء، أكره العنف، أريد ان أحقّق حلمي وألّا أفجع والديّ بي. قال لي سأحكي لك قصّتي وقصّة أبي عندما يحين الوقت، لكنني اليوم مثل اليتيم الملاحق لا أعرف أين أذهب، لا أستطيع السفر فاسمي معمّم على الحواجز وسوف يأخذونني خالة زيزفون، حتى موبايلي أحرقت بطاقته ولم يعد لدي منذ أمس وسيلة تواصل مع أهلي، عمّو سعيد كان سندي وملجئي، ما الذي حدث له؟ أكاد أجن.

أنا من كانت على حافّة الجنون، كل هذه المفاجآت القاسية دفعة واحدة؟ كل هذه الحقائق التي أتلقّاها في وقت لم يعد هناك مجال للأسئلة فيه تصدمني وتضعني في حيرة أمام كل شيء، بتّ أشكّ في

نفسي، هل أنا عشت فعلًا أم كان عيشي وهمًا وخداعًا؟ ما الذي يربط بين الأستاذ وسعيد حتى تستمر علاقتهما كل هذه السنين؟ أكثر من أربعين عامًا كانت الحياة تمضي وأنا أمضي معها متوهّمة أن ما أعيشه هو الحقيقة، كم من الحقائق إذن كنت غافلة عنها؟ بعد صمت عاد نور وسألني: خالة زيزفون، ماذا أفعل؟ انصحيني. لا أستطيع الانتقال إلى مكان آخر، لا أعرف أحدًا هنا، ثم إنني غريب وأنت تتفهّمين ما معنى أن أكون في هذه المنطقة وأنا ابن الشام في هذه الفترة العصيبة، أنا حزين ومتأسّف في الوقت نفسه لأنني أحكي كلامًا كهذا لكنه حقيقة وهذا ما يؤلمني مثلما يؤلم أبي. أبي حزين ومتألم على وضع البلد وكيف صار الناس منقسمين إلى فرق تتحفظ تجاه بعضها بعضًا إن لم يكن أكثر، حتى في الشام هناك أحياء غادرها الوافدون إليها من مناطق أخرى وأكثرهم من الساحل، لم يعودوا يشعرون بالأمان بعد أن صار الاتهام ينضح من وجوه البعض تجاههم، وهم كذلك صاروا يرون في الآخرين خطرًا متربّصًا بهم سينقض عليهم عاجلًا أم آجلًا، نسفت سنين الجيرة كلها وانهارت ذاكرة العِشرة والحياة المشتركة، فجأة منذ أن بدأت الانتفاضة وساد العنف، ارتفعت الحواجز بين الناس واستشرى الشك والريبة في نفوسهم. أبي متألّم جدًّا، كان يحكي مع العم سعيد ويحاولان معًا فهم الوضع وفعل أي شيء، لكن الأمر أصبح أكبر منهما حتى مع رفاقهما مجتمعين.

وضعني نور في موقف صعب، فأنا لست وحيدة في البيت، يسكن والدي المقعد معي، ويتردّد عليه مُنيّر طيلة النهار، وأحيانًا قد يأتي أحد أصدقاء والدي ممن ما زالوا قادرين على التنقل ويزورونه

حتى من دون موعد، فهم يعرفون أنه لا يتحرّك وسوف يجدونه في أي وقت جاؤوا. وفي الوقت نفسه أخشى لو عرف من يكون وما هو وضعه أن يحكي لأخي شعبان الذي قد يقدم على تصرّف أرعن وسلوك لا تحمد عقباه، أعرف شعبان أكثر من نفسي.

ليس بإمكاني أن أتجاهل حالة نور، لا بُد أن أتصرّف، سألته متى تتوقّع أن يُنجز الشغل الذي تنتظره؟ قال لي بأنهم وعدوه بألّا يتأخر، سوف يتّصلون به لكنه أحرق بطاقة جواله، لا تهتم، ستتصل من موبايلي، اسمع، سأقدّمك غدًا لوالدي على أنك ابن صديقتي خيريّة، لقد كانت معي في الإعدادية وهو يعرفها، لكنه لا يعرف شيئًا عنها بعد أن انتقلوا، سأقول له إنها تقيم في الشام وإنك هنا كنت تدرس في الجامعة وجئت للاستفسار عن نتائج الامتحان، سوف أخترع له أشياء وأجعله يقتنع لكنك ستساعدني، حاول ألّا تطيل المكوث معه حتى لا تتورّط بأسئلة إضافية.

جاء نور في الوقت الذي أحتاج فيه إلى من يشاركني حزني على سعيد، كاد القهر يقتلني، ليس أصعب من الحزن وحيدة لا أستطيع أن أشهر فجيعتي حتى لنفسي، فأنا مضطّرة إلى تبرير مزاجي، إلى شرح كآبتي، لا أحتمل سماع سؤال عمّا بي، فما في صدري أكبر من أن يفهمه أحد وأكثر سرّية من أن يسمعه أو يقبله أحد. عندما بكى نور بكيت معه، وددت لو أضمّه وأدفن وجهي في صدره وأسمع كلمة مواساة تخصّني وحدي، كأن يقول لي سلامتك من الحزن، تعيشي وتترحمي يا خالة، كنت بحاجة إلى أن أجهر بخصوصية سعيد في حياتي ليحقّ لي الحزن عليه.

صار نور يُحدّثني عن عائلته، عن أبيه الذي تزوّج بعد خروجه من المعتقل. الأستاذ كان معتقل يا نور؟ نعم، بقي في الحبس أكثر من عشر سنوات، وعندما خرج لم يكن من السهل عليه وعلى بيت جدّي البقاء في حارتهم التي يسكنون فيها، فقد كانت بيئته محافظة وكان أبي شيوعيًّا، هكذا أخبرني بعدما كبرت، عندما دخلت الجامعة. تزوّج ولم ينجب غيري إلّا بعد أكثر من عشر سنوات، صار لي أخ اسمه عبيدة، أعرف مدى تعلّقه بي هو وأمي، لكنني يا خالة لا أستطيع البقاء في هذا البلد، سأغادر بأي طريقة، ربما أنجح في الوصول إلى مكان أستطيع أن أبدأ فيه وأتابع دراستي أو أشتغل ثم أحاول أن أجلب أبي وأمّي وأخي لعندي، هذه البلاد ليست لنا، إنها لمن يمجّدون الحرب وأنا لا أطيقها.

عمّو سعيد كان حذرًا في الفترة الأخيرة وقلقًا بعض الشيء، لكنه لم يكن يعاني من أي مشكلة صحية، فقط كان متحفّظًا أكثر من السابق بشكل خاص من أجلي، لمست قلقه علي، لم يكن يسمح لي بالخروج إلّا في المساء أتنزه قليلًا بجانب البيت، وأحيانًا كان يسمح لي بالخروج إذا كانت الحركة قليلة، أو عندما يأتيه بعض الأشخاص القلائل الذين يزورونه، كنت أخمّن أن بينهم سرًّا ما، وأتفهّم أنه يريدني أن أبتعد وخائف عليّ في الوقت نفسه، وكان يخابر أبي باستمرار ويتكلّمان بمواضيع لا أفهمها كثيرًا، لكنه كان يبدو أنه يكابد همًّا يشاطره والدي إيّاه، دائمًا كانا يقولان البلد مقبلة على كارثة، بل في السنة الأخيرة كانا يتحدثان بنبرة أخرى، كانا يائسيْن من الوضع ولا يعرفان كيف يمكن أن تنقذ البلاد بعد أن وصلت إلى الانهيار الأخير، ويقولان لم تعد هناك سوريا

واحدة، صارت محتلّة ومقسّمة ولم يعد قرار السوريين بيدهم، وكانا يتحدّثان عن السنين البعيدة، يبدو أن ذكريات كثيرة كانت تجمعهما قبل وبعد اعتقال أبي. لا أصدّق أنه مات، ولا أعرف شيئًا عن موته كنت كالفأر مختبئًا خلف الدغل المطلّ على الغرفة أسمع أصواتهم وهرجهم، يفتّتني الخوف والحزن وأبتلع دموعي كي لا يسمعوني. كنت خائفًا ووحيدًا وعاجزًا عن فعل شيء سوى البكاء، أرتجف في مكاني والدموع تغشي عينيّ، لا أستطيع أن أخبر والدي بنبأ فاجع كهذا. ثم راح يبكي من جديد، ورحت أبكي معه بعد أن كنت قد أخمدت بكائي ودفنته في صدري، لكنه عصيّ على الدفن.

مسّدت على شعره، وقلت له سيكون لنا أحاديث أخرى، لكن الآن عليّ ترتيب مبيتك هنا، سأدخل أطمئن على أبي وأجهّز لك المكان الذي ستنام فيه، لا تخرج غدًا من غرفتك قبل أن أفتح عليك الباب.

وابتدأت قصة أخرى في مسيرة حياتي، منذ اللحظة شعرت أنني مسؤولة عن إرث سعيد، ومدينة في الوقت نفسه للأستاذ الذي كان يشجّعني على القراءة والمعرفة ويحضر لي القصص والروايات، وأشعر زيادة على ذلك بأن عليّ دينًا آخر يجب أن أردّه، إنه التهمة الباطلة التي نالته ولم يكن موجودًا ليدافع عن نفسه، ترى هل أخبره سعيد فيما بعد بما جرى، وكيف أن أديب بكل خسّة ونذالة حاول النيل مني ومنه، وأنني انتقمت لنفسي بالقصاص من معتقدات أولئك الجاهلين النائمين على عفنهم من

دون أن تحرك رائحته العطنة وجدانهم كي ينظّفوا أنفسهم منه؟ لم يعد سعيد موجودًا كي أسأله، حتى لن أسأل عن الأمر بالمطلق فتلك مرحلة مضى عليها زمن طويل، إنه عهد جهيدة الذي ولّى، لكنه يعود لينبش ذاكرتي من جديد.

*

من الدفتر

مع عبد الجليل في دمشق

كان حمادة ينتظر قريبًا من باب السكن الجامعي عندما وصلت الباصات وتم فرزنا إلى الأجنحة، لمحته من بعيد وأشرت إليه أن يبقى حتى أوافيه بعد قليل. ربما انتظر لمدة ثلاث ساعات، أو إنه كان يروح ويأتي، كانت تماضر من الطالبات اللواتي انضممن إلى باص القيادة، حيث كان عبد الجليل ورفاقه الحزبيّون أو أعضاء اتحاد الطلبة، ولقد كلّفها عبد الجليل بالإشراف على مجموعة البنات في السكن ومراقبة التحرّكات على ما يبدو. قامت تماضر بتوزيع البنات على الغرف، لم يكن عددهن كبيرًا، توزّعن على الغرف التي كانت قد رُصدت لمبيتهن، أمّا أنا فقد أعطوني غرفة جانبية قريبة من مطلع الدرج، تبدو كما لو أنها غرفة للخدمة فيها سرير معدني وفراش عتيق فوقه بطانيتان، لا يوجد حمّام مع الغرفة، دلّتني تماضر إلى الحمّام الخاص بالطابق، وأخبرتني بطريقة متعالية بأن أكون جاهزة عند الساعة السادسة لأن البرنامج مخصّص لجولة في المدينة، وغدًا تبدأ الفعاليات الطلابية. قلت لها إنني سألتقي بأحد أقربائي وسوف أزورهم، لذلك قد لا أذهب معهم في الجولة،

لم تعطني ردًّا، بقيت صامتة وغادرت، اعتبرتُ صمتها نوعًا من الموافقة فلو كان ممنوعًا لكانت أخبرتني، ربما في قرارة نفسها، مثلها مثل بقية البنات، تحبّذ ألّا أكون بينهم، فأنا جهيدة عاملة الخدمة، وهنّ الطالبات الصبايا اللواتي يتفوّقن عليّ بتعليمهنّ ومستقبلهنّ الواعد، أمّا أنا فمن أكون بالنسبة إليهنّ؟ وربما أكثر من ذلك كنّ يحاولن بطريقة مواربة إبعادي عن زملائهن الشباب بعد أن لمسن اهتمامهم بي، لا أعلم، لكن هذا ما فكّرت به لاحقًا.

سريعًا غسلت وجهي وسرّحت شعري وخرجت من الغرفة باتجاه السلالم متلهّفة للقاء حمادة الذي تعب من الانتظار، في الطابق السفلي كان عبد الجليل وبعض من رفاقه مجتمعين أمام البوّابة، ناداني وسألني إلى أين؟ قلت له إنني أخبرت الزميلة تماضر بأنني سأزور أقربائي، تبيّن أنه على علم بالأمر، سألني كيف ستعودين ومتى؟ يجب أن يكون معلومًا بالنسبة لك أن أبواب المدينة الجامعية تقفل عند الساعة التاسعة. قالها بنبرة تستبطن وعيدًا ما، أخبرته بهدوء سوف أعود قبل الموعد.

لم أتوقّع أن عبد الجليل كان يراقبني، أو يسخّر أحدًا لمراقبتي، أخمّن أنه لاحقني وراقبني فقد عرف أن حمادة كان بانتظاري، وهو يعرف حمادة جيدًا، كانا أولاد حارة واحدة وأمضيا فترة من طفولتهما معًا حتى في معظم مراحل الدراسة كانا معًا في المدرسة، لكن عبد الجليل استطاع أن يدخل كليّة الطبّ أما حمادة الذي كان مرتبطًا بالشغل باكرًا فلم يكن مقدّرًا له أن ينتسب إلى تلك الكليّات، هكذا أخبرني حمادة، قال لي إن أباه وأمّه كانا يميّزانه

عن باقي إخوته، خاصّة البنات، وأنه كان يقيّد أخواته ويتدخّل في لباسهنّ وسلوكهنّ، حتى إنه فرض عليهن الحجاب عندما أصبحن في الثانوية. أمضيت وقتًا يشبه الأحلام مع حمادة، تسكّعنا في الشام القديمة، أخذني إلى باب توما والقصّاع، وإلى الحميدية وسوق مدحت باشا والبزورية، والجامع الأموي، وعرّفني إلى القلعة، ومشينا باتجاه محطة الحجاز ونزلنا بجانب التكية السليمانية، تمشينا بمحاذاة بردى حتى وصلنا إلى المكان الذي يقام فيه المعرض، حكيت ذكرياتي بنشوة عارمة لحمادة، مع إحساس بالزهو فأنا تعرّفت إلى الشام باكرًا وزرت المعرض باكرًا أيضًا، علمًا بأن زيارتي له وأنا بعمر صغير لم تكن لتمنحني أكثر من ذكرى جميلة تدغدغ الأحلام التي كنت أفبركها في خيالي في ذلك الزمن البعيد الغارق بالحكايات. كان حمادة يحوط كتفي بذراعه ويشدّني إليه فيتوهّج جسدي كله وأشعر بحمى ناعمة تستبيحه بينما أرتجف وكأنني في الصقيع، هل هذه رجفات العشق؟ هل يكفي أن يتلامس جسدان بتلك الطريقة البسيطة حتى تشتعل النيران فيهما بمجرد الاحتكاك؟ لا بدّ أنه الحب يا زيزفون، هذا الشعور الجميل لازمني إلى أن وصلت إلى بوّابة السكن الجامعي، كان قد بقي عشر دقائق فقط على إغلاقها، قبل البوّابة بأمتار قليلة كانت القبلة الأولى الخاطفة كالبرق الذي أرعد ورماني بصاعقته فدخلت محمومة إلى السكن، في الطابق السفلي أيضًا كان عبد الجليل، كان يقف مع تماضر باعتباره المسؤول عن أمن وأمان الطالبات، فهو لا يستطيع أن ينام قبل التأكد من أن كل شيء على ما يرام، وأنني رجعت إلى السكن، وفي عينيه نيّات لم أفهمها إلّا في

اليوم التالي.

عندما دخلت بهو الطابق السفلي ناداني، جهيدة.. كان هذا يكفي لأفهم أنه يريدني أن آتي إليه، تقدّمت نحوه، مسا الخير. مسا النور، انتظري قليلًا حتى أنتهي من الزميلة تماضر، أريد ان أتكلم معك بأمر. لم يكن من المألوف أن يظهر أحد الطلاب بلباس رسمي، لكن عبد الجليل كان حينها يلبس طقمًا غامق اللون ويعقد ربطة عنق لونها قرمزي فوق قميص فاتح، كان يبدو مثل صوص خارج من بركة ماء، بدا ضئيلًا يكاد يضيع ضمن ثيابه التي لم تكن تليق به، يبدو أن لديه سهرة في الخارج. وقفت جانبًا أنتظر وكنت متلهّفة للصعود إلى الغرفة التي وضعوني فيها لأستعيد لقاء اليوم في بالي وأحلم بلقاء آخر في الغد، كنت بحاجة لأن أختلي بنفسي وأمرّن مشاعري لتستفيق من غفلتها وأؤكّد لنفسي بأن الحبّ موجود بالقرب مني، بل أنا غارقة فيه وأن زيزفون التي ولدت في نفسي غير جهيدة التي أودعتها في خزائن الماضي وأحكمت إغلاقها. كان لديّ الكثير من الوعود والأحلام الريّانة تنتظرني لتتضوّع في خلدي عندما أطفئ النور وأختلي بنفسي في عتمة غرفة ستنهار جدرانها وتفتح على الكون كلّه بمجرد أن أنادي في سرّي حمادة. لكن عبد الجليل كان لديه عرض آخر، التفت إليّ وناداني بنظره عندما غادرته تماضر وغابت في السلالم الصاعدة، عندما صرت قريبة منه قال لي: اصعدي إلى الغرفة وبدّلي ثيابك أنا عازمك على العشاء بالمطعم. هكذا، بلا مقدّمات ولا أي حذر، دلق ما في جوفه أمامي مثلما لو كان واثقًا من أنني لن أعارض. بقيت واقفة أمامه لا أعرف بماذا أردّ، قال لي متجاهلًا صمتي، لا يليق أن تذهبي بهذه الثياب

إلى العشاء، أكيد معك غيرها، هيّا لا تتأخري. مع لهجته واستباحته إرادتي شعرت بالدماء تفور في رأسي، تملّكني الغضب وراح قلبي يخفق في صدري، لا أعرف كيف أردّ عليه، مرّت في خاطري كل الاحتمالات السيئة، كلها تدور في فلك الوحشة والخوف فأنا لا أعرف أحدًا في الشام غير حمادة لكنني لا أعرف أيضًا كيف أصل إليه، كان موعدنا الثاني في الغد عند الثانية عشرة ظهرًا، هذه كانت كلّ ذخيرتي في مدينة يضيع الغريب فيها، كانت معركتي خاسرة فيما لو فكّرت بالرفض، حاولت التمسك بحجّة أنني متعبة وأن بإمكاننا تأجيل الموعد إلى اليوم الثاني لكنه كان مصرًّا، هيّا جهيدة لا تضيّعي الوقت، قلت له والبوّابة؟ كيف سأعود بعد أن تغلق؟ هل أبقى في الشارع؟ أخاف ألّا يفتحوا لي. ضحك من جهلي، كيف أسأل سؤالًا غبيًّا كهذا؟ هل أشكّك بسطوته والامتيازات التي يملكها؟ هو المسؤول عن هذه الرحلة وعن كل أنشطتها، وهو المخوّل بتدبير كل الأمور، لن يعجز عن فتح بوّابات دمشق كلها وليس بوّابة سكن الطالبات. حاصرني، وحاصرني معه الخوف من أن أرى نفسي في الشارع إن بقيت على عنادي، غبت عنه لبعض الوقت، لم أفعل شيئًا غير تدريب نفسي على قهر دموعي، لا، لن أبكي، لن أجعله يلمح ضعفي، بدّلت ثيابي، اضطررت إلى ارتداء الثوب الذي ادّخرته للقاء حمادة، هو أصلًا من البالة لكنه جميل ويمنحني مظهرًا مغايرًا لما اعتاد الآخرون أن يروني عليه، نزلت إليه لا أملك أي خطّة سوى قرار وحيد، لن أدعه ينال مني وليكن الحسم في أرض المعركة.

9

أخليت غرفتي كي ينام فيها نور ونمت في غرفة الجلوس، كان بيتي يتألّف من غرفتين للنوم، واحدة لي وأخرى لأبي، وغرفة للجلوس، وكان أثاث بيتي متواضعًا مثله، في غرفة الجلوس هناك صوفا وأربعة كراسٍ من الخشب وضعت عليها طراريح إسفنجية، نمت على الصوفا. في الواقع لم أنم، فمن أين يأتي النوم وقد صار أبدٌ ومستحيل يفصلان بيني وبين سعيد؟ أبدٌ مترع بالأسئلة المفتوحة على المجهول الحارق، كنت أتخبّط بين ذاكرتي وبين خيالات تقذفني إلى احتمالات تودي إلى الجحيم، تسيطر على خلدي معها صورة سعيد مسجّى على أرض غرفته وبركة الدماء تتّسع وتتمادى تحته حتى تكاد تغرق العالم، فلا يبقى في ساحة بصري غير الدم ووجه سعيد يعوم على سطحه بعينين مفتوحتين كفوهتي بركان، أناديه ولا يسمعني. لم أنم، وعندما بدأ الفجر يتسلّل بضوئه الباهت من خلال نوافذ الغرفة كان قد حان موعد استيقاظ أبي، وكان عليّ تجميع طاقتي التي بدّدها السهر والقلق والأرق كي أجهّز له احتياجاته والدخول في مسلسل الكذب الذي لا أعرف كم سيطول، وزيادة على ذلك تنتظرني مسؤوليّات أخرى تجاه نور، شعرت بأنني أوشك على الانهيار والسقوط، فحتى حزني لم أستطع أن أعيشه كما يليق به، لن أستطيع امتلاك لحظة أخلع فيها كل مسؤولياتي التي لا تؤجّل وأنفرد بنفسي، لم يعد لديّ غير الليل أنفقه بهواجسي وبكائي والتفكير بالغد الذي يبدأ كل لحظة

باللحظة التي بعدها، فيحرمني من التفكير بغدٍ آخر كنت نويت عليه وأنا في هذا العمر، العمر الذي أصبحت فيه البدايات بالغة الصعوبة، لكنه حلمي الذي عشت به وعليه، حلم السفر المؤجّل والحاضر في بالي على الدوام، لا أعرف كيف مشت حياتي على مشارف الحلم من دون أن يخبو وهجه، لكن المسافة بيني وبينه بقيت ذاتها لم تقصّرها الأيام. مضت حياتي كفيلم صنعه المخرج من دون خطّة، كأنه رمى بالأحداث أمام الممثلين وقال لهم اصنعوا المشاهد، وما زال الفيلم يطول ولا ينتهي كالمسلسلات المكسيكية التي كانت تفرض على الناس ترتيب يومياتهم وأنشطتهم وفق توقيتها، كان موعد المسلسل الذي بطلتُه تلك الغجريّة المسماة كاساندرا يحيل المدينة إلى مدينة خاوية حتى من زقزقة العصافير وصوت السيارات، تخلو الشوارع أكثر من خلوّها في أوقات الإفطار في شهر الصيام، هكذا مرّت حياتي لأفيق على سني عمري التي مرّ معظمها وقد تغيّر كل شيء فيها ما عدا حلم السفر. الشيء الوحيد الذي حقّقته في الشهور الأخيرة كان تصحيح اسمي في النفوس كي يحمل جواز السفر الذي سأستخرجه اسم زيزفون، لا أريد لبداية جديدة وأنا في هذا العمر أن تكون باسم جهيدة، لم يعد لديّ متّسع من العمر كي أجاهد من أجل إقناع الآخرين بأن اسمي زيزفون، وشرح قصة اسمي كجواب شافٍ على أنني أحمل اسمين.

مرّت الخطوة الأولى بأمان أمام والدي، أخبرته بقصّة الضيف الذي وصل أمس متأخرًا، وبأنه ابن رفيقتي في المدرسة، وفبركت قصّة مقنعة، لم أتوقّع أنّ الوضع الجديد سوف يجلب معه قليلًا من البهجة إلى والدي، لقد شعر بأن شيئًا كسر روتين حياته

الخاوية، بدّد صقيع أوقاته المتطاولة وشَغله عن خيانة جسده التي لم يستطع التأقلم معها بعد كل هذه السنين، منذ اللحظة التي دخل فيها نور عليه وتقدّم بارتباك بدا له أنه حياء ينمّ عن تربية جيّدة، تغيّر وجه أبي، انسلّ خفية شيء كان يقبض على تلابيبه فيمنحه ذلك الوجه المهموم الشائخ حدّ الموت، وحلّ محلّه شيء آخر جعله يبدو أكثر إشراقًا وصوته أكثر وضوحًا، حتى سمْعُه تغيّر وصار أكثر إرهافًا، في تلك اللحظة عرفت مدى جفاف أعماقه وكم كان بحاجة لقطرة ماء تبلّلها وتنعشها، لقد تغيّرت حياته المملّة حدّ السأم، أربكني هذا الأمر، خفت من تجذّر وجود نور في حياة أبي ثم اختفائه منها فجأة في لحظة قد تكون غدًا أو بعد غد، أو مهما طالت لعدّة أيام، كيف سيكون صدى الحالة في وجدان أبي؟ صرت أكثر قلقًا وأكثر حذرًا وأشدّ توجّسًا، أخاف من أي فكرة أو أي يقين، ما إن تقنعني فكرة حتى أدخل في الارتياب بعدها وأتخبّط في تصوّر النتائج التي ستنجم عنها، لم أعد أعرف السّكينة، ومن قلب هذه الدوّامة انبثق قلق جديد، إنه مُنيّر، ماذا سأقول له وكيف سأضمن سكوته بألّا يفشي سرّ هذا الزائر في القرية؟ أعرف أنه قليل الكلام، لكنني لا أثق بمقدرته على الفصل بين الأمور من حيث أهميتها، كلّها متساوية بالنسبة إليه، ليس هناك أمر كبير وآخر صغير، أمر خطير وآخر قليل الشأن، هذه المفاضلة لا تعنيه لذلك زاد توتّري وبتّ تحت وطأة الشعور الدائم بالخطر يلازمه حذر شديد وترقّب كارثة سوف تقع، زاد في خوفي الجو العام الذي ينحدر باستمرار نحو الأسوأ، فالناس لم يعودوا كما هم، وصاروا مشحونين يتربصون ببعضهم بعضًا،

ومعظم البيوت منكوب بفقدان شاب أو ربما أكثر من أبنائه، تبدو الحياة كما لو أنها على وشك الانفجار، ما يخيفني أكثر كان كثرة السلاح بين الأيدي، ليس في القرية وحدها بل في المدينة، كنت أحدّث سعيد عن هذه الظاهرة وكان يبدو شديد القلق والخوف من القادم، كان ما يؤرقه أكثر أن الناس وصلوا إلى مستوى من تردّي وعيهم بات الخطر معه يتفاقم كل يوم، هذا حصيلة سنوات طويلة يا زيزفون، سنوات من الاشتغال على تفريغ وعي الناس وإشغالهم بأمور تلهيهم عن مشاكلهم، قال لي مرة إن هذا اللهاث من أجل التسلّح والالتحاق بالتشكيلات القتالية التي أنشئت له ما يبرّره عند هؤلاء البسطاء، فكما قلت لك سابقًا الجهل يولّد الطاعة، وهناك من يؤجّج الصدور ويضلّل العقول التي هي بالأساس شبه مغيبة، لا بدّ لهؤلاء البسطاء من ركيزة يشعرون معها بوجودهم وهذه الركيزة مهدّدة، غالبيتهم باتوا لا يرون في هذه الحرب غير تهديد وجودهم، ما يؤلمني يا زيزفون أن الحلم الجميل الذي لامس أعماقي بسحره وغسل سنوات الخذلان والإحباط التي عشتها تبدّد، سرقوا حلمي كما سرقوا أحلام كل الشباب الذين غضبوا وثاروا وانطلقوا ينادون للحرية وينشدون وطنًا يليق بطموحاتهم ويجسر الهوة بينهم وبين واقعهم التعيس، ماتت الأحلام وسرقها تجّار الحرب والدم والثورات، أفهم خوف معظم سكان مناطقنا من المستقبل وانتعاش طائفيتهم بشراسة، لقد أيقنوا أنهم المستهدفون خاصة بعد استعار الثأرية والوحشية والقتل بأبشع صورها وأكثرها إجرامًا. إن كانت الجهود في البداية صعبة لإقناع الناس بأن انتفاضة بقية المدن ليس بسبب الطائفية،

فإن الأمر صار أصعب الآن بعدما ارتفع صوت الطائفية والتكفير فوق كل الأصوات، لا تسأليني بعد اليوم لماذا كل هذا التسليح، إنه الخوف، خوف الجاهل يا زيزفون، الجاهل بالأمر يخاف منه ويلوذ بجماعته درءًا للخطر القادم، ويطيع الأوامر مهما كانت، فهو يقدّم الولاء مقابل الحماية، وهذا ليس في مناطقنا فقط، بل في كل المناطق حيث تستنسخ الظروف نفسها والسيطرة بالطرق نفسها. وكنت إذ أسأله يعني ماذا؟ هل ستبقى البلاد تنحدر نحو الهاوية؟ كان يزفر ويقول لي شبه غائب عن الواقع: ليت الأمور بيدي، لقد صار الأمر أعقد مما نتصور، لم يعد بيدنا أي قدرة على المبادرة.

لم يطل خوفي حتى صرت بمواجهة الموقف. جاء مْنيّر باكرًا، كان قد اعتاد على أن يجد الباب مفتوحًا لكنه وجده مغلقًا فأزعجه أنه اضطّر لقرعه، عندما فتحت الباب قال بنبرة استنكار: وليش مسكّرين الباب؟ قلت بصوت منخفض لدينا ضيف. كان من المستحيل إخفاء الأمر عنه، فهو دائم الحضور في البيت، مهما غاب فسوف يعود، ولم يكن يغيب طويلًا إلّا في وقت المصارعة. لم ينتظر حتى أسمح له بالدخول فهو لا يحتاج إلى هذا الإذن، وقف بباب غرفة الجلوس ونظر إلى نور، ثم إلى أبي، الله يصبّحكم بالخير، كيفك عمّي بو إبراهيم اليوم؟ أزحته بيدي قليلًا ودخلت الغرفة ثم قلت له، مْنيّر هذا ابن رفيقتي من زمان، جاي من الشام ورح يبقى عندنا كم يوم. نظر إلى نور الذي ارتبك قليلًا، وقال له: الله يعطيك العافة. لحقني إلى المطبخ حيث كنت أعدّ الفطور، قال لي الدّفن اليوم العصر، قالوا إن الطبيب الشرعي كتب تقرير

أن سعيد مات مقتولًا بخمس رصاصات. كدت أقع على الأرض، فقدت توازني وشعرت أن الدنيا تدور بي وتخنقني، غار الدم في عروقي، خفت من إغماءة أخرى كتلك التي أصابتني عندما كنت في بيت أخي برهوم.

تابع مْنيّر كلامه لكنني لم أكن أسمع ما يقول، كانت الأصوات تتصارع في خلدي وكنت بحاجة لأن أصرخ، أسدّ أذنيّ بكفيّ وأصرخ كي لا أسمع صراخي، أصرخ من قهري، من غيظي، من عجزي، من وحدتي، من قسوة صمتي. أريد أن أصرخ بوجه منيّر بأن كفى، اسكت ولا تخبرني بشيء بعد هذا، لكنني لم أفعل، كل ما فعلت أنني استندت إلى المجلى ورحت أوزّع الصحون في الطبق. صحوت على آخر جملة قالها: خطيْ، ما عنده حدا ياخد بثاره. انتفضت كالملدوغة، من مين يا مْنيّر؟ ليش مين قتل سعيد؟ شعر بأنه تورّط بما كان يجب ألّا يتورّط به. ما بعرف والله، بس بالفترة الأخيرة كتير كانوا يجوا على سيرة سعيد، كانوا يحكوا عنه كتير. مثل شو يا مْنيّر؟ الناس الكانوا يجوا على مصارعة الديوك كانوا يقولوا إن الشيخ أديب يعرف أشياء كثيرة عن سعيد، كانوا يقولوا طلع ما نو مجنون، طلع خائن وعم يساعد النازحين ويقول عنهم مانهم إرهابيين، بل ناس فقرا ومظلومين ولازم يتساعدوا، وكانوا يقولوا إنه كل النازحين اللي هون، ولاد ونسوان يعني، وين رجالهم؟ أكيد حاملين سلاح وعميقاتلوا ويقتلوا ولادنا. أديب مَيحكي هيك يا مْنيّر؟ إي.. إي، الشيخ أديب. صرخت به: لا تقول الشيخ أديب، من أين له المشيخة؟ أنت شايف عنده أخلاق؟ ابتسم مْنيّر ابتسامة مريرة، كانت من المرّات النادرة التي استطعت فيها ان

أقرأ انفعالًا على وجهه، قال: لا والله، ماحدا بيعرفه قدّي. أنا اللي بعرفه يا زيزفون، والله هالشايفتيه مخبأ جوّاته ذئب وبيضحك عالناس، هذا بعمره ما بصير شيخ لأن ما في بقلبه رحمة، مين رح ينسى قديش عذّب عالم لما كان بالفرع؟ يدري الله قديش في ناس ماتوا تحت إيديه. قال جملته الأخيرة بصوت يشبه الهمس. فاجأني مْنيّر وأذهلني، هذا الرجل الذي أصبح على أبواب الخمسين وقد أمضى عمره هائمًا في البرّية لا يمارس شيئًا في حياته غير الرّهان على ديكته، العابث بالزمن والحياة، المتشبّث بيومه ولحظته فقط، لا يعنيه أمس ولا غد، هذا الذي أمضى حياته بيننا لا يستطيع أحد استقراء وجهه غير أنه شخص بليد لا أمل منه، حتى إنه أعفي من الخدمة الإلزامية بعلة القصور العقلي، أذهلني، حطّم يقيني وثقتي بنفسي، كيف بعد هذا العمر الطويل من العِشرة لا أعرفه ولا أفهمه على حقيقته، فأية بلهاء أنا؟

يعني برأيك مين قاتل سعيد؟ والله ما بعرف، بس يعني شو الفايدة إذا انعرف مين القاتل؟ الناس متقتل بعضها وماحدا بقى له قيمة بهالبلاد، هالبلاد للقوي والذي معه سلاح وبس، هادا يحق له يقتل وينهب ويسرق ويعتدي على أعراض الناس وماحدا بيسأله ليش؟ بدّك تروحي على الدفن؟ رماني سؤاله مرة أخرى في دوامة حزني، بلى سأروح يا مْنيّر، لكن ماذا أفعل بالأمانة التي عندي؟ طرحت السؤال على نفسي، لكن مْنيّر فاجأني مرّة أخرى بأنه قرأ أفكاري، قال لي: بالنسبة لضيفك لا تاكلي همّه، أنا ببقى بسلّيه، وبضلّ عند عمّي بو إبراهيم بين ما ترجعي، بالنسبة للدفن والجنازة أنا عملت المطلوب مني، كل شي بقدر عليه عملته وما

انتظرت حتى يكلّفوني. وبس ترجعي بنحكي مرة تانية، الليلة ما في مباراة بين الديوك، أنا ماني رايح كرمال عمّي سعيد الله يرحم روحه. لمست في جملته الأخيرة وعدًا ما، ماذا سنحكي بعد الذي حكيناه؟ بدا لي أن مُنيّر ينزع كل أقنعته أمامي دفعة واحدة، بل يبدو لي أنّي أمام إنسان آخر بالكاد أتعرف عليه.

*

من الدفتر

كيف هرولت الأيام

اليوم وأنا أستعيد ذكرياتي، أستغرب من نفسي وكيف امتلكت تلك القدرة والموهبة في مراوغة عبد الجليل، صحيح أنني نجحت، لكن الثمن كان باهظًا.

تغيّرت أمور كثيرة بعد تلك الرحلة، ليس بالنسبة إليّ وحدي، بل بالنسبة لكل ما حولي، كنت أستشعر هذا التغيّر بالمزاج العام للطلاب، لم أكن أعرف بالضبط ما الأشياء التي تغيرت لكن الأمور كانت تمشي بطريقة لافتة من دون أن أفهمها، الأمر الوحيد الذي فهمته كان غياب حمادة، لم يعد يتردّد على المقصف، صار هناك شاب آخر يأتي، بوجه متجهّم صموت لا يرفع رأسه عندما يكلمني، يضع البضاعة على الأرض، يحمل الأغراض البديلة ويمشي. صرت ألتقي بحمادة خارج المقصف، كل مرّة نتّفق على الموعد القادم، قال لي إنهم أنهوا العقد معه، لم يعرف السبب لكن الباعة الذين كان يشتغل لديهم صاروا يكلّفونه بمهمّات أخرى. ربما كان يعرف السبب لكنه لا يريد أن يخبرني.في الوقت نفسه صار عبد الجليل

أكثر عدائية معي، بالرغم من أنه لم ييأس من تجاوبي، كان عبد الجليل يكبر ويزداد شعوره بأهميّته، وصار يضع نصب عينيه هدفًا لم يتكتّم عليه، أن يجعلني أندم إذا ما بقيت مصرّة على المراوغة، في ذلك الوقت تعرّفت على مجموعة من الطلاب صبايا وشباب، كانت قد دعتني إحداهن إلى سهرة مع شلتها كما قالت، سُهاد، ذات الشعر البني القصير والجسد الممشوق، التي تلبس الجينز مع صندل من دون كعب، تضجّ نشاطًا وحيوية، عيناها لا تهدآن، تبدو متوثبة باستمرار وكأن الوقت سينفد من بين يديها كل دقيقة، كانت لطيفة معي على غير عادة بقيّة الصبايا، لم تكن تشعرني بالفوارق بيني وبينها أو بيني وبين البقية، دائمة الابتسامة لطيفة بطلبها، لم تقلْ مرة واحدة طلبها من دون أن تنهيه بكلمة لو سمحتِ، أو إذا بتريدي، أو تسلم يدك، وكانت خفيفة الظل وتمزح معي دائمًا، قالت لي يومها أنا أرافقك إلى البيت الذي سنسهر فيه، لكن علينا أن نتّفق على الموعد ومكان اللقاء، أحببت الفكرة وقبلت العرض بكل ممنونية، كنت بحاجة إلى أصدقاء بعدما انتقلنا إلى اللاذقية، لم يكن لديّ صداقات، فقط معرفة ببعض الجيران حيث استأجر أبي البيت الأول، كان في حي القلعة، وهناك تعرّفت على بعض الأسر المقيمة من المدينة وغالبيتها كانت تملك البيوت، وبعضها الآخر كانوا وافدين من الأرياف، معظمهم يعملون في مهن متواضعة، إمّا عمّال في بعض الشركات أو أفراد جيش برتب متدنية كرقباء أو مساعدين، ومنهم من كانوا في سلك الشرطة، موزّعين في الأزقّة القديمة حيث يستأجرون غرفة مع منافع مشتركة، أو في حالات قليلة غرفتين بمنافع خاصة وهؤلاء

كانوا قلّة، لقد تعرّفت على معظمهم، فهم بالرغم من كونهم يعيشون في وسط المدينة، إلّا أنهم كانوا يبحثون عن بعضهم بعضًا ويقيمون فيما بينهم علاقاتهم الخاصة. من بينهم بيت أبو وسيم الذي كان يعمل مستخدمًا في مديرية الزراعة، كان لديه أكثر من ستة أولاد بين بنات وصبيان، كانت ابنته الكبيرة رشا في الثانوية، ولقد درستُ معها مرارًا عندما قرّرتُ أن أتقدّم للامتحان، نجحت رشا بالرّغم من ظروف بيتها الصعبة وأصرّ أبوها على أن تنتسب إلى الصف الخاص لأن طريقه قصير وتعيينها بوظيفة عند الدولة مضمون، فأذعنت رشا وتنازلت عن حلمها في دخول الجامعة، وتزوّجت بعدها بفترة قصيرة من شاب ينحدر من الريف أيضًا، كان موظفًا في إحدى مؤسّسات الدولة.

ذهبتُ مع سُهاد إلى السهرة، مشينا في شوارع عديدة ودخلنا زواريب وأزقّة، وأنا تأخذني الدهشة بمعرفتها هذه الأحياء والأزقّة، قالت لي هذه الحارة تسمى الصليبة، ودخلنا زقاقًا معتمًا بعض الشيء، ينيره مصباح باهت الضوء على ناصيته، في عمق الزقاق، الذي بدا لي مغلقًا في نهايته، ولجنا مدخلًا معتمًا فشعرت ببعض الخوف، قالت لي سهاد لا تخافي، هي البيوت القديمة هكذا لا يوجد فيها مصابيح في المدخل أو على السلالم، كل بيت يشعل من الداخل النوّاسة الموضوعة أعلى بابه عندما يطرق أحدهم الباب. في الطابق الثاني نقرتْ على باب عتيق ففتح لنا منصور، كنت أعرفه من المقصف، كان شابًا مختلفًا عن البقية، لا أعرف بماذا لكنه كان مختلفًا، سحنته تختلف بعض الشيء عن سحنة أهل الساحل ولهجته أيضًا، عرفت في تلك السهرة أنه من مدينة

درعا، كان منصور قد استأجر هذا البيت القديم المؤلّف من غرفتين مع طالب آخر من بلدته، وكان لطيفًا جدًّا.

رأيت مجموعة من الطلاب كنت أعرف معظمهم من المقصف، كانوا يضجّون طاقة وحيوية، مرحين، يمزحون ويضحكون ويغنّون، يدخّنون السجائر الرخيصة المحلّية، الشرق والحمراء ورامیتا، ويتناقشون في قضايا لم أكن أفهمها، أحاديثهم تتكرر فيها مفردات كالبورجوازية العفنة، والطبقة الكادحة والصراع الطبقي، ويحكون عن المستقبل الذي سيجلبونه عنوة إليهم، عن التغيير الذي يجب أن يحصل. كان من بينهم ثلاثة طلاب يدرسون في كليّة الطب سهاد واحدة منهم، حكوا إلى الآخرين عمّا حصل معهم قبل يومين، فقد كانوا، وهم طلاب طبّ يحلمون أن يكونوا أطباء الفقراء ويجوبوا المناطق الفقيرة ويعالجوا الناس مجّانًا، كانوا يريدون أن يقتحموا المشاكل التي يعاني منها المجتمع مرّة واحدة، فقرّروا أن يُجروا دراسة ميدانية إحصائية عن الوضع المعيشي للناس كما قالوا، بأن يزوروا بيوتًا من عدة أحياء في المدينة، خاصّة الأحياء الشعبية، ويسألوا الأفراد عن طبيعة طعامهم ليعرفوا ما هي نسبة الأسر التي توفّر الراتب الغذائي لأفرادها في المجتمع، وكنت أسمع بكلمة الراتب الغذائي للمرّة الأولى. استحسن الموجودون الفكرة وأثنوا على زملائهم، لكن سهاد تابعت مستنكرة بانفعال علا معه صوتها، قالت تصوّروا لجأنا إلى أساتذتنا في الجامعة كي يرشدونا إلى كيفية إجراء البحث والدراسة وأن يعطونا فكرة عن الراتب الغذائي للفرد وكيف يمكن تقديره من خلال الطعام، نحن ما زلنا طلّابًا في السنة الثانية ويلزمنا الكثير من المعرفة، لم نتوقّع ردّ فعل

أساتذتنا مع العلم أننا زرناهم في عياداتهم في آخر الدوام، لقد طردونا، معقول؟ تخيّلوا طردونا عندما عرفوا مشروعنا. ابتسم منصور وهو يستمع إلى الحكاية ويتابع انفعال سهاد وكأنها تعيش الموقف لحظتها، عندما انتهت من سرد القصة قال لها بصوته الهادئ الرخيم: يعني كنتم متوقّعين أن يهلّلوا لكم ويحضنوكم على مشروع من هذا النوع؟ أنتم لا تعرفون إلى أين تمشون، هذا الموضوع حبيبتي ممكن يوصلكم إلى السجن، ماذا يعني لو تبيّن من خلال استقصائكم أن أكثر من ثلاثة أرباع الشعب يعيشون دون الراتب الغذائي بكثير؟ أنتم ستكشفون الغطاء عن المستنقع الذي يعيش فيه الناس، وعندما تفوح رائحة المياه الآسنة سينتبهون إلى استنقاعهم، كيف تفوتكم هذه النقطة؟ لكن سُهاد اعترضت على الكلام وردّت بانفعال: لكنهم أطبّاء ومعلّمون في الوقت نفسه، يجب أن يكونوا أكثر الناس تصدّيًا للمسؤولية تجاه المجتمع، هل هناك أهم من الصّحة والتعليم؟ بالضبط، الصّحة والتعليم من الضروريات، بل هي حق لكل الناس، لكن لا تنسي يا سُهاد أن الاستبداد الذي نرفضه ونتكلّم عنه وعن ضرورة محاربته أكثر ما يثيره هو الكلام في الحقوق واحتياجات الناس، الأساتذة الذين طردوكم يعرفون هذه الحقيقة وهم يخافون على مكتسباتهم ومعيشتهم، لا تطلبي من كل الناس أن يكونوا متحمّسين لحمل القضايا ودفع ثمنها بالقدر نفسه، أو حتى مهتمين بها. أردف واحد من بينهم يومها قائلًا إنهم لو أظهروا نشاطهم بهذا السفور فإن النتيجة وخيمة، خاصة أن عبد الجليل يقظٌ تمامًا وله عيون بين الطلاب يرصد أنشطتهم ويستقصي عن اهتماماتهم وعلاقاتهم،

ولن يتوانى عن كتابة التقارير ورفعها إلى الجهات الأمنية. عليكم بالحذر يا رفاق. بقيت كلمة رفاق ترنّ في خلدي، فهم لا يستعملونها فيما بينهم في الجامعة.

لم أشعر في تلك الليلة بأنني بعيدة عن روح المجموعة، كانوا حريصين على تعزيز شعوري بأنني واحدة منهم، ليست هناك أي فوارق بيني وبينهم، ولا يملكون ما يميّزهم عني، بل كانوا يظهرون مزيدًا من الاهتمام وأمعنوا بالاحتفاء بي أيضًا حتى راودني إحساس بأن السهرة كانت لأجلي. وبالرّغم من الأمور العديدة التي كانوا يتحدثون عنها وتدور بينهم نقاشات حامية حولها، أمور تبدو عظيمة وغاية في الأهمية مثلما كان رجعها في نفسي، كانوا فوضويّين مفرطين في اللامبالاة، بل متهتّكين إلى حدّ ما في تصرّفاتهم، كان في السهرة أربع بنات، وستة شباب، ولم تكن البنات خجولات أو يتصرّفن بتحفّظ أو حياء، لم تكن هناك حدود بينهم جميعًا، وكأنهم حطّموا كل القيود وانطلقوا بأجنحة تصطفق وتصطخب. في الأيام التي تلت صرت أنتبه إلى دخولهم المقصف، كانوا كما لو أنهم لا يعرف بعضهم بعضًا، الواحد منهم أو الواحدة يمكنه دخول المقصف وتجاهل من كان بالأمس معه يسهر ويدخّن ويمازح ويرقص ويغنّي، وربما يحصل أكثر من هذا القرب بين صبيّة وشاب، كل واحد يمكن أن يكون برفقة آخرين على طاولة أخرى يديرون أحاديث أخرى وكأن لا شيء يربطهم برفاق الأمس، أذكر أن شعورًا بالامتعاض راودني لفترة عندما لم أفهم كيف كانوا يحتفون بي ويرحّبون بوجودي بينهم، ثم يعاملونني بتلك الحيادية وكأنهم لا يعرفونني إلّا كعاملة الخدمة في المقصف في الأيام التي تلت.

بعد تلك الليلة في أول لقاء بيني وبين حمادة، حكيت له عن السهرة، كان موعدنا أمام سينما الأهرام، ومن هناك مشينا في الشارع النازل باتجاه البحر حيث الكورنيش الذي اعتدنا التنزّه على رصيفه وأكل الذرة المشوية والمسلوقة، أو نشتري الفول السوداني المحمّص الساخن من أحد الباعة الذين كانوا ينتشرون على رصيف الكورنيش، كان معظم باعة الفول ببشرة سوداء وسحنة لا تشبه سحنة أهل المنطقة، وكان الناس يسمّون هذا النوع من الفول فستق عبيد، أو عبيد فقط، تأخرت حتى فهمت كيف أحيل اسم الفستق إلى عبيد. وكل مرّة كنت أتذكّر ما كنا نحكي، سعيد وأنا، عن بعض الذكريات في مرحلة صرنا نحنّ إليها أمام الواقع الذي آلت إليه الأمور في بلدنا، نستحضر حكايات بعض الشخصيات التي كان وجودها يبدو مكمّلًا لمشهد الحياة وكانت حبّابة واحدة منها، حبّابة التي يذكّرني بائع الفستق بها بسبب لون بشرته وتقاطيعه الواضحة. كنت شاهدتها كثيرًا في شوارع جبلة خلال دراستي، امرأة ضخمة القدّ بدينة بتقاسيم ضخمة يقترب لونها من لون القهوة، قصّتها دائمة الحضور في أحاديث المجتمع المحلّي في جبلة ونادرًا ما كانوا يأتون على ذكر اسمها من دون إلحاقه بجملة: ملعونة الذكر، كانت تشتغل بتبييض النحاس، ولديها طفل يلازمها يقولون إنه ابنها، وإنها حبلت به من قرباطي، كان القرباط جزءًا من المشهد العام في المدينة، فهم لا أحد يعرف متى يضربون خيامهم على تخومها ويسرحون في الأحياء والحارات، نساؤهم يحملن أطفالًا على ظهورهنّ ضمن بقجات مربوطة بطريقة محكمة إلى جيدهن، يعرضن على الناس أن يطالعن البخت، أو يقرأن الكف أو يرمين

أحجارهن التي تسمى الودع، والرجال يقومون ببعض الأعمال التي يجيدونها، ومنها معالجة الأسنان المنخورة، بين قلع أو تلبيس بالذهب، كما يشتغلون بتبييض الأواني النحاسية التي كانت شائعة بكثرة في ذلك الزمن، كان الأطفال يخافون من القرباط ويهرعون إلى الاختباء في البيوت بمجرّد أن يلمحوا إحداهن من بعيد، حتى إني لم أتخلص من خوفي منهم إلّا بعد أن كبرت، كنت أصاب بالذعر كغيري عندما ألمح إحداهن فهي حتمًا جاءت لتخطفني، لكنني عرفت عندما كبرت أنهم جماعة لها عاداتها ومنظومتها، وهم مسالمون ولا يريدون أكثر من أن يعيشوا حياتهم وفق هذه المنظومة. حبّابة لا أحد يعرف عن قصّتها شيئًا سوى أنها حبلت من القرباطي الذي أحبّته، أو ربما أقامت معه علاقة عابرة، وهو كغيره من جماعته لا يرتبط بالمكان، ترك بذرته في بطنها ورحل من دون عنوان ولا ميعاد، مشى يتبع صدى ناموس جماعته التي لا ترتهن للمكان، فأنجبت طفلًا لم يدعها الناس تعيش أمومتها معه كما يليق بأم أن تعيش. قال لي سعيد عندما كنا نأتي على سيرة حبّابة إنّها لو كانت تلاقي القبول منذ البداية ممّن حولها ربما لم تكن عاشت علاقة من هذا النوع مع عابر سبيل في حياتها، فالناس موغلون في عنصريتهم يا زيزفون، ما سمعتِ قديش بتتكرّر هاللعنة على ألسنة الناس: سوّد الله وجهك؟ أخبرته بأنني عندما كنت أذهب إلى ساحة العيد خلف جامع السلطان إبراهيم، وقت كان أبي يصحبنا صغارًا إلى هناك، كان صاحب الشقليبة يغني ونعيد خلفه يا ولاد محارب، ونحن نقول يويو، شدّوا القوارب، يويو، ويصل إلى مقطع يقول فيه، براهيم ما مات يويو، خلّف

بنات، يويو، بناته سود يويو، متل القرود، يويو، بناته بيض يويو، متل العفاريت، يويو. في الحقيقة لم تكن تلفتني هذه التعابير أو الأغاني بل كنت أردّدها كبقية الأطفال وبقيت في ذاكرتي مرتبطة بأيام جميلة ابتعدت حتى كدت أنساها، لكن سعيد صحّاني عليها، وفي العودة إلى حكاية حبّابة التي قاطعها الناس إلّا بمنطق الشفقة والفضل عليها كما المرأة العايبة، حبّابة كان ممنوعًا عليها دخول بيوت الآخرين، لكنها لم تكن ترضى أن تعيش وفق قانونهم فتُحرم من مشاركتهم العيش لكن عليها أن تقبل صدقتهم مثلما يرمون للكلاب طعامها، تعلّمت حرفة تبييض أواني النحاس وصارت تعيش وتربي ابنها من شغلها.

أخبرت حمادة بالسهرة ونحن نأكل الذرة قبل أن يصحبني إلى بيتهم كما كنا اتفقنا، فأتعرّف إلى أمّه وإخوته، أما أبوه فكان في الصيد، وكنت متحمّسة لتلك الزيارة، كان أمرًا مألوفًا حينها حتى في كثير من بيوت المدينة أن تأتي البنت وتزور صديقها الشاب، بل حتى الصبيّة كان يمكن لها أن تستقبل زملاءها في البيت في بعض الأحيان، خاصّة بالنسبة إلى طلاب الجامعة إذ كان الأهل ينظرون بعين التقدير والإعجاب إليهم حينها، خاصّة في البيئات الفقيرة التي تحلم بتعليم أبنائها لكن معظمها كان لا مقدرة له على تحمّل تكاليف الجامعة. كان حمادة أيضًا يجيد الاستماع، أمهلني حتى انهيت حديثي ثم قال: زيزفون. أنت في غنى عن هذه العلاقات والأنشطة. ظننت أن ردّه كان بدافع الغيرة ومحاولة تقييد حرّيتي، لكنه أوضح بكل هدوء: يا زيزفون، هل أنت مستعدّة لأن تدفعي ثمن موقف من قضايا كبيرة لا تعرفين عنها الكثير، ولست منتسبة

إلى أي حزب أو جماعة؟ سألته عن أي حزب يتكلّم، ولماذا هناك ثمن يجب أن يُدفع؟ قال لي إن هناك أحزابًا معارضة تشتغل في السرّ لكن الحكومة تتابعهم وكل من ينكشف فمصيره مجهول، لا أحد يعرف في أي سجن سينتهي، خاصّة الأحزاب اليسارية. وددت حينها أن أسأله عن الأحزاب اليسارية لكنني لم أفعل، كنت أتلهّف الوصول إلى بيتهم والتعرف إلى أسرته، اكتفينا بالحديث حول الحذر الذي يجب أن أتمسك به وألّا أتورّط وأنزلق إلى ميدانهم، قال لي حينها: شوفي أنا أكره الخطأ وأكره القيد وكل ما يعيق فرديّتي في أن تعبّر عن نفسها، لكنني لا أحبّ الانتساب إلى أحزاب سياسية، أحرص على استقلاليّتي ولي نظرتي الخاصة، أصلًا أنا لا أحبّ السياسة ولا أصلح لها. كنّا في ذروة التفاعل مأسورين بالحديث عندما صرنا على مشارف حارته، قال لي الآن سننعطف إلى اليمين وسوف ترين كيف حارتنا نوّرت بوجودك يا حلوة، ومدّ يده بحركة خاطفة إلى شعري، في اللحظة ذاتها كان عبد الجليل مقابلنا على مسافة لا تتعدّى الأمتار القليلة وجهًا لوجه، ولم يعد بإمكاننا مداراة الموقف أو تغيير اتجاهنا. توقّف أمامنا: مسا الخير، كيفك يا حمدو؟ الآنسة جهيدة ضيفة عالحارة؟ والله نوّرتِ الحارة يا آنسة. كان وجهه حينها أقرب إلى وجه الثعلب، تحوّل فمه إلى شدق مفتوح يلهث واللعاب يسيل من زاويتيه وناباه بارزان، كدت أقع على الأرض وصورته هذه تتمكّن من خيالي كلما أمعنت النظر في وجهه فتكبر وتحتل رأسي.

10

كانت الساعات القليلة التي أمضيتها في التعزية كفيلة بأن تحيلني إلى ركام وسحابة غبار بما أحدثت في داخلي من تصدّعات وانهيارات، وقفت مع النساء الواقفات بعيدًا عن الرجال المجتمعين على حدود الحفرة التي سيلقى فيها جثمان سعيد، يتقدّمهم الشيخ أديب لأجل أداء صلاة الميت على روح سعيد. يا الله!!! أديب سيصلّي على سعيد؟ أي قهر وأي ضلال هذا؟ لم أصدّق عينيّ عندما لبس أديب قناع الخشوع وراح يرخّم صوته تارة ويشبعه بحّة تارة أخرى حتى يوشك على البكاء، كان الرّجال خلفه صامتين كالأصنام، بدأ أديب يتلو دعاءه واقفًا أمام الكفن موازيًا وسطه، سبحان من قهر عباده بالموت، كنت أرتجف عندما أسمع هذه العبارة، فقط حين أسمعها تحضرني سيرة الموت وفكرة أنني سأموت يومًا ما، فلماذا أموت وأنا مقهورة؟ أيقنت أن الحياة التي قال عنها سعيد تمنح للإنسان مرّة واحدة، هذه الحياة التي مُنحتها يجب أن أعيشها وأعتصرها وألوي عنقها لأنها ستسلمني للموت في النهاية وأنا صاغرة، لم أصدّق أنها قوّة الموت، بل جبروت الحياة، فالموت يأتي مرّة واحدة في لحظة خاطفة يمسح على أرواحنا وينتهي كل شيء، أمّا الحياة فجبّارة تبقى تلاعبنا على مدى عمرنا، تغوينا، تجرحنا، توجعنا، تدغدغنا، نطلبها فتتمنّع، نتجاهلها فتنقضّ علينا، تمارس لهوها بنا حتى نصير عجينة طيّعة بيدها ثم تلقينا في قبضة الموت، فأيّهما أشدّ مكرًا؟ وكنت

أسأل نفسي عن الله الذي نحن عبيده ويقهرنا، لماذا يقهرنا؟ الله الذي في قلبي لطيف محبٌّ قريب منّي، بل مسكونة به وعندما أريد مخاطبته كنت أدعوه من أعماقي، فهل سيقهرني مثلما يقول أديب؟ لقد بحثت عنه واقتربت من حقيقته عندما خلعت عنّي كل ما لقّنوني إياه عنه وعن الدين الذي يوصلني إليه والمشايخ الذين يشفعون لي عنده.

أيها الناس امتثلوا واعتبروا وبمثل هذا الحقّ اتّعظوا، فقد توفّي منكم أخ صالح وعبد مؤمن إلى رحمة الله فترحّموا له يرحمكم الله. يُهمهم الرجال خلفَه "الله يرحمك يا سعيد ويغفر لك ويحسن مثواك، آمين". أشعر بالبكاء يخنقني، لا أعرف كيف أوارب ضعفي وأخفيه عن النساء الفضوليات المجتمعات يندبن الميت وبعضهن لا يعرفنه ولم يلتقين به مرة واحدة، إنما سمعن قصصًا عنه، ومن لم تسمع كانت الأخريات يحكين لها وهن واقفات خلف الرجال ينتظرن مواراته التراب، ليرفعن عقيرتهن بالولولة والندب والتحسّر والبكاء والعويل، كانت قصّة موته مقتولًا تثير شهيّتهن للكلام وتقصّي الحقائق والإدلاء بدلوهن، كنّ يهمهمن ويهمسن لبعضهن خلسة، وكنت أسمع نثرات من همسهنّ، سمعت أنه في مسلّحين ميتسلّلوا بالليل بيناتنا وهم قتلوه، كانت إحداهن تهمس في أذن الأخرى. نادى أديب إلى الصلاة، الله أكبر. وتهدر الأصوات خلفه الله أكبر. كنت أشرد قليلًا في أثناء صلاة أديب والرجال خلفه يرفعون أيديهم كل حين إلى آذانهم ويردّدون الله أكبر، إلى أن قال: اللهم، هذا المسجّى أمامنا، سعيد، هو عبدك وابن عبدك صقّور المعرجاني، وابن أمَتك باهيّة النمر، وقد خرج

من الدنيا وسعتها إلى وحشة القبر وما يلاقيه، وقد نزل بك وأنت خير المنزلين، وأصبح فقيرًا إلى رحمتك، وأنت الغني عن عذابه.. شعرت أن الدنيا تدور بي وأنني سأقع مغشيًّا عليّ، توجّهت إلى صخرة صغيرة ناتئة على يمين الحشد وجلست فوقها، سعيد لم يكن لديه سيّئات، لم يكن يؤذي أحدًا، كان يشعر بآلام البشر حتى لو كانوا في أقاصي الدنيا، يهينه أكثر ما يهينه الظلم وهدر كرامات الناس، كان مطعونًا حتى الشغاف في السنوات الأخيرة من هول ما يحصل من قتل رخيص في البلاد، تذكّرت وأنا على هذه الحالة من الفقدان ومشهد الموت، الذي يريد له أديب أن يكون عبرة من خلال سعيد، أنه قال لي ذات مرة: هذا التفوّق في إنجاز الموت بأكثف صوره، وهذا التنافس الشرس في ريادة الجدارة في التوحش، وهذه البدع الموغلة في العدم المتعطّشة للدّم النهمة للقتل، كلها مكنونات نفوسنا التي تراكمت منمّقة باسم تاريخ مجيد كنا فيه الأسياد. بلى كنا الأسياد، إنما على عروش من الجماجم.

هذا تاريخنا، تاريخ طغاتنا ومرشدينا ووعّاظنا، تاريخ من استولوا وتلاعبوا بحياتنا، فصرنا ببساطة وحوشًا تمشي على قدمين. كانت المجازر لا تكفّ عن الوقوع في كل مكان، مباراة في القتل، وكلما ازداد التوحُّش ازدادت معها شهيّة القتل، كان يبكي كلما سمع صوت الرصاص يلعلع في الجو وعلى الطريق يمرّ موكب شهيد.

قال لي شوقي مصائبنا يا زيزفون، الجميع نسوا أن هناك مشاكل وقضايا عانوا منها، نسوا الفقر والإذلال وهضم الحقوق، نسوا الفساد والمحسوبيّات، نسوا فقرهم وجوعهم وعريهم وبردهم،

نسوا صحّة ولادهم وتعليمهم، نسوا كل شيء وصاروا متخندقين وراء جماعتهم وسلاحهم. "أنا أشعر باليأس لأن الصوت العاقل لم يعد مسموعًا، أنا من ناحيتي متّهم بالجنون ومهما حكيت ما حدا بالضيعة سيسمع كلامي، لكن لما أحكي مع الأصدقاء خلال زياراتهم يزيد يأسي لأن الجميع وصلوا لمرحلة الإحباط من كل شي". كنت أشاركه هذه المشاعر السوداويّة وأشعر أن الأفق أسود بعد التردّي المريع الذي وصلت إليه أحوال الناس خاصة انهيارهم الأخلاقي، لم يعد الناس كما كانوا، أو ربما كانوا دائمًا هكذا لكننا لم نكن ننتبه إلى هذه الملامح؟ قال لي سعيد لقد كشفت الحرب الغطاء، تبين أننا لم نكن محصّنين يا زيزفون، وأن الكثيرين ممن دفعوا أثمانًا باهظة في رحلة نضالهم ضد الاستبداد لم يستطيعوا أن يغيّروا في وعي الناس. وعندما كنت أسأله لماذا إذن أظهر الواقع أن الدين كان هو الأقوى والمتجذّر في ضمير الناس، خاصّة التوجه الإسلامي وقاعدته الواسعة في المجتمع؟ مع أنهم تلقّوا الضربة الموجعة أكثر من غيرهم منذ معركتهم مع النظام أواخر السبعينيات؟

قال لي إن الجماعة تتميّز بتنظيمها القوي والدّعم الكبير الذي كانت تتلقاه، وانفتاحها وتعاونها مع بقية التنظيمات خارج البلاد، الجماعة اشتغلوا على حالهم يا زيزفون، والضربة الموجعة التي تلقوها حينها زادت من تماسكهم وإصرارهم على المضي في مشروعهم، ومن يومها وهم يشتغلون على كسب تعاطف الناس معهم وتأييدهم، خاصة أن معاناة الناس كانت تزداد سنة بعد سنة وطغيان النظام والتضييق عليهم، النظام كان همّه الوحيد أن يقضي على أي خطر محتمل يقرب من عرشه، والباقي ما في مشكلة

لو نشطت الدعوات إلى التدين بشرط يكون تحت نظره. ما شفتِ كم صار عندنا مساجد ومدارس تحفيظ قرآن وحسينيات؟ طيب بلا ما نروح لبعيد، أنت برأيك أن أهل ضيعتنا كانوا بيوم من الأيام متمسّكين بالشعائر الدينية، بعيدًا عن الأعياد الخاصة التي يعملونها، كانت البنات تتحجب مثلًا؟ شوفي كيف فتحوا مدرسة شرعية فيها وفي أماكن تانية كمان، بتعرفي أنا ما بخالط الناس، لكن الأخبار بتوصلني، قالوا لي إن البنات مراهقات، بالإعدادية بيتحجبن قبل ما يدخلن إلى المدرسة، ولما يطلعن منها بيشيلن الحجاب مرة تانية، هالنمط من السلوك بعيد عن روح العادات والقيم لأهل المنطقة، لكن الفقر يا زيزفون جعل من الناس سهل قيادهم، الفقر والجهل والتخويف من الآخر، هالمدارس الشرعية مدفوعة بعقائد ونوايا، وعدوا الطالبات أن يضمنوا لهن مقاعد بالجامعة، بعدين يمكن في مساعدات تانية أنا ما بعرفها، قلت لك قبل اليوم أن الجهل بيجعل الواحد ما يعرف غير الخضوع، ونحن هيك صاير فينا.

لا أعرف كيف راح شريط من الذكريات يكرّ في بالي ويستولي على ساحة بصري ويشلّ تفكيري، صرت كأنني في وادٍ آخر بعيد عن الجموع الواقفة أمام القبر.

أعادني إلى الواقع صوت أديب وهو يكمل الدعاء، اللهم اغفر لعبدك وأخلف على أهله وذويه وأفرغ عليهم الصبر جميعًا يا رب العالمين. اللهم كن مع جيشنا وانصره على أعدائه وأنزل بركتك عليه وارحم شهداءنا وكن مع قائدنا في هذه المحنة التي نمرّ بها،

وخذ بيده في وجه المؤامرة التي يتعرض لها وطننا، اللهم انصره وباركه بقدر ما هو مع الحق والضعفاء والمساكين، وانصره على أعداء الوطن والدين.

شعرت أن قلبي ينهصر في صدري، وأن سعيد يختنق في قبره وهو يسمع دعاء أديب، كدت أختنق وأنا ألجم دموعي وأعيدها إلى صدري، في هذه اللحظة انتبهت إلى بعض من الرجال يقفون جانبًا لا يشاركون في الصلاة، لكن الحزن كان باديًا عليهم، كانوا صامتين في خشوع مهيب كأنما يؤدون صلاة أخرى، عرفت من بينهم سهيل الذي كان يدرس الرياضيات عندما كنت أشتغل في المقصف، تغيّر كثيرًا، لقد كبر أولئك الذين عاصرتهم وهم في عنفوان أعمارهم وشبابهم، وكبرت أنا أيضًا، سهيل الذي ما إن تخرّج من الجامعة وتعيّن مدرّسًا حتى سيق إلى الخدمة الإلزامية، وبعد انتهاء خدمته وعودته إلى الحياة المدنية لم يهنأ أبوه وأمّه به، كانت البلاد قد دخلت الفوضى والتشديد الأمني بعد سلسلة الاغتيالات التي كانت تجري بين حين وآخر بحق أشخاص من النخب المحسوبين على العلويين، وبدأت المواجهات والصراع بين النظام وبين جماعة الإخوان المسلمين، وازدادت الملاحقات بحق كل النشطاء السياسيين، واعتقل سهيل، غاب عن الدنيا والعالم أكثر من اثنتي عشرة سنة. يا الله، كيف تُحسب الأعمار؟ هل السنوات التي أمضاها سهيل ورفاقه في سجنهم معزولين عن العالم لا يعرفون دورة الليل والنهار، ولا دورة الفصول ولا كم مرّ من السنين، هل تحسب من أعمارهم؟

بداية لم أعرف سهيل وأنا أتطّلع إليه من مكاني وفي داخلي إحساس بأنني عرفت هذا الشخص في يوم ما، لقد ترك الزمن ندوبه على وجهه وابيضّ شعره وبدا كما لو أن هموم الأرض مجتمعة جثمت على صدره، عندما تأمّلته أيقنت أن السجن لا يجمّد الأعمار، بل يحرقها، يجعلها تمضي بسرعة ضوئية فيصل السجين إلى شيخوخته باكرًا، تنقصه مراحل من عمره فمن أين يستردّها؟ ومن يدفع له ثمنها؟ كانت هناك وجوه عرفتها لكنني لم ألتق بها منذ زمن، فأنا بعد انتقالي إلى اللاذقية وعودتي إلى البيت الذي بنيته على تخوم بيتنا القديم لم تكن لي علاقات مع أحد، فقد تغيّرت الضيعة وتغيّرت حياة الناس فيها، وتغيّرت عاداتهم وقيمهم، بل تغيّر ساكنوها. صارت الطريق مسيّجة بأبنية طابقية تتخلّلها بين مسافة وأخرى بعض كروم زيتون وبساتين حمضيات، وفي العمق، خلف الأبنية الجديدة كانت هناك بعض الأراضي التي ما زال سكانها يزرعونها ويعتنون بأشجار الزيتون والكرمة والحمضيات، لكن حياة جديدة تسلّلت إليهم، لم تعد الضيعة ضيعة ولم تصبح مدينة بالمعنى الحقيقي، صار فيها كثير من المحلات والمهن والحرف التي قد تمنح اكتفاء ذاتيًّا لسكانها، لكن الضيعة فقدت نضارتها، حتى التنور الذي كان لزوم كل بيت صار وسيلة دخل، ملمحًا يكاد يكون سياحيًّا، صارت الطرقات بين المدن محفوفة بالتنانير، لكن خبزها ليس كخبز أمي ونساء الضيعة في ذلك الزمان، صار له طعم آخر ورائحة أخرى، رائحة الطحين الذي تخبز به الأفران العامة. لم أكن أقيم علاقات لكنني كنت أسمع أخبار بعضهم، وكنتِ أرى بأم عيني ما أسمع، أرى الحياة

كيف تنحدر نحو الفقر في كل شيء، بالرغم من الانفتاح على الحياة العصرية، وبالرغم من أن الأنترنت صار في كل بيت تقريبًا، ومعظم الناس يتبارون بارتياد مواقع التواصل الاجتماعي. كان كثير من شباب الضيعة قد تعرّض للملاحقة والسجن بسبب موقف سياسي في السنوات الماضية خاصة بعد المعركة مع الإخوان المسلمين، وأحيانًا على الشبهة، وبعضهم توارى واختفى ولم يعد الناس يعرفون عنهم شيئًا. كلما كان أحدهم يختفي أو يعتقل كان مُنيّر يخبرني بجملة أو جملتين، والله أخدوه على بيت خالته، وهذا يعني أنهم اعتقلوه.

في سرّي وأنا أسمع صوت أديب، أو الشيخ أديب صرت أتحسّر على الشيخ عبّاس وأيامه، بالرغم من نفوري منه في ذلك الزمن، إلّا أنه كان لا يتمادى كثيرًا، كان يسطو على حياة الناس من خلال وظيفة اجتماعية يحتاجها الناس في حياتهم، ولم يكن دوره أكثر من محاولة الإمساك بشبكة الخيوط التي تربط الجماعة ببعضها بعضًا، كان يصرّ على الطاعة، طاعته، طاعة الأهل، طاعة الكبار في السن، وطاعة أولياء الأمور، لكنه لم يكن مشتبكًا بتديّنه مع السياسة والسياسيين، كان فقط لديه بعض التلاميذ الذين تلقوا أسرار الدين على يديه واكتسب بحكم مرتبته الدينية الاحترام والعرفان من قبلهم، ومنهم من تبوّأ مناصب رفيعة في الحكومة، بل منهم من صاروا ضباطًا مرهوبي الجانب واستنادًا إلى هذا التقدير استطاع أن يضمن لأولاده وظائف حكومية أو إيفادًا إلى خارج البلاد للدراسة.

أوشكت الصلاة على نهايتها وسوف يلقى سعيد في حفرة يطمرونه فيها بالتراب ويعودون أدراجهم، يعودون إلى همومهم واهتماماتهم، إلى تفاصيل حياتهم التي لم تعد كالحياة ومع هذا فهم يواصلون العيش.

سعيد أكبر من هذا القبر، سعيد قامته سامية حتى لتكاد تلامس السماء، أمّا أديب الذي يلقّنه اليوم الشهادة وكيف يلاقي ربّه فلا يستطيع أن يصل إلى تلك القامة ويعرف سموّها، لكنه يؤدي دوره بإتقان. يا عبد الله وابن عبده وأَمَته، لا تنسَ العهد الذي فارقتنا عليه وهو: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وأن عليًّا أمير المؤمنين والأئمة المعصومين هم حجج الله على عباده والأوصياء على شريعته. فإذا جاءك الملكان العادلان الموكلان وسألاك عن أمور دينك فقل لهما بلا خوف ولا وجل ألهمك الله الصواب: الله ربي والإسلام ديني ومحمد نبيّي والقرآن كتابي والكعبة قبلتي والصلاة والصيام والحج والزكاة والجهاد فرائضي، وعليّ أمير المؤمنين والأئمة الأحد عشر المعصومين أئمتي وهداتي، والمؤمنون إخواني والمؤمنات أخواتي.

صار صوت الشيخ يبتعد، وأنا أغوص في لجة عميقة، كانت الدنيا تسودّ أمام عينيّ، وكنت على الصخرة الناتئة أجلس، لم أصدّق أن اللحظة حلّت، لحظة القهر الذي حكى عنه الشيخ أديب. نعم كنت مقهورة على سعيد، لكنه ليس القهر الذي يحكون عنه، ليس لأنه خسر معركته مع الموت بل لخسرانه معركته مع الحياة، لخسرانه حلمه، لخسرانه لحظة الفرح التي انتظرها، مقهورة لأنه

غادر ولم تمهله الحياة ليعرف النهاية. لكن أي نهاية؟ كل ما حولي ينمّ عن أن النهاية لن تكون رحيمة، كلما وصل الناس إلى درك سفلي اكتشفوا أن هناك ما هو أسفل، وهم يتحركون كالمسربلين، يمشون كالمنوّمين، صار همّهم الذي ينفقون أعمارهم في مكابدته تأمين رغيف الخبز حتى لا يموتوا من الجوع. ليتك بقيت معنا يا سعيد، لا، لقد رحمك موتك من قهر أكبر. لكن خسارتي هي الكبيرة، فاجعتي هي الفظيعة، لا أستطيع حتى أن أقترب وألقي عليك النظرة الأخيرة، لحظة وينتهي كل شيء.

قال تعالى: منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى. صدق الله العظيم. وألقي سعيد في الحفرة. انتهى سعيد إلى فكرة، إلى ذكرى، كأن الحياة سراب بسراب. رحم الله من رشّ عليك التراب، وابتدأ رشّ التراب بالحفنات، ها هم يتزاحمون على القيام بالواجب المبارك، يضيفون على رصيد حسناتهم، حفنة تراب ثم حفنة ثم حفنات، وتبدأ بعدها الرفوش تغرف. وتلك الحجارة المسطحة، الشطايح سوف تجثم فوق صدرك يا سعيد؟ لماذا؟ هل يخاف البشر من قيامة موتاهم بعد أن يواروهم الثرى ويعودوا للغوص في لجة حياتهم فيأتيهم موتاهم ليحاسبوهم على ما يقترفون؟ لماذا تلك الصخور؟ الروح فاضت عن جسدها، غادرته، فماذا بقي من ذلك الذي كان؟ أين أنت يا سعيد؟ تركتني وحيدة أمام أسئلتي التي لم تنتهِ، من سيفسّر لي ما يجري بعد اليوم؟ من سيمنحني الأمل بالغد والقوة على مواجهة الحياة؟

بدأ الجمع يتشتّت، تركوا سعيدًا لوحشة القبر وراحوا، راح أديب

بعد أن أكمل مهمته ونال أجره، مثله لا يكتفي بأجر الآخرة الموعود يريد أجر الدنيا أيضًا، فلولاه كيف كان الميت سيلاقي وجه ربه؟ على أي دين وبأية لائحة خطايا؟ وكيف سيضمن رضا الأئمة والمؤمنين؟ أديب الذي كرّس حياته يرسّخ فكرة الجبروت والقهر في نفوس الأحياء ويلحق الأموات ليكونوا العبرة الأخيرة والدرس الذي يجب أن يبقى ماثلًا في نفوس الباقين، أكثر من ثلاثين عامًا يعمل في سلك المخابرات وهو اليوم يمتهن المشيخة، أدّى واجبه وتبارك الكثيرون بتقبيل يده بعد أن دسّ في جيبه ما أودعوا فيها.

رجعتُ إلى البيت أجرجر نفسي، بي رغبة في أن أبقى أمشي وأمشي بلا هدى ولا هدف، فقط أمشي وأبكي إلى أن يتعبني البكاء. كانت الشمس أوشكت على المغيب، وكان في انتظاري همّ آخر وأنا في الحقيقة أحتاج لأن أبقى وحيدة في عتمة الدنيا.

*

من الدفتر

أيامي السوداء

ذاكرتي متوهّجة حارقة كجمرة، أحداث لم أكن أتمنّى أن أستعيدها، خصوصًا تلك السنوات التي وشمت قلبي وشقّت دربي الذي أوصلني إلى اليوم، مع أني لم أستسلم ولم أتنازل عن فرديّتي، بل عشت الحياة كما قرّرت.

أبلغتُ بإنهاء عملي في المقصف الجامعي، هكذا بلا أي تبرير أو تفسير، فقط استدعيت إلى الجهة التي يسّرت لي أمر العمل يوم

التحقت به، وبُلّغت بأنهم يستغنون عن خدماتي، لم يكن هناك أي عقد بيني وبينهم، كانت الأمور تجري بهذه الطريقة في أعمال من هذا القبيل، فالمقصف كان مستثمرًا من أحدهم وأنا لم أكن أكثر من عاملة مكلّفة بالخدمة فيه. لم يكن لديّ بديل حينها، وكان إخوتي ما زالوا في المدرسة، يا ترى لو لم أتقدم إلى امتحان البكالوريا، ولم أنل الشهادة التي خولتني بالتقدّم إلى الوظيفة المعلن عنها، ما الذي كان سيحصل لنا في البيت بعد أن كبر إخوتي وبعد الحادث الذي أقعد والدي؟

كانت البلاد تدخل في أوج التوتر الأمني، وكانت بدأت المواجهة بين الإخوان المسلمين والنظام، وكانت الملاحقات والاعتقالات محمومة بحق كل المعارضين السياسيين أو من يشتبه بهم، وحينها اختفى حمادة. نعم، اختفى حمادة واختفى الفرح من قلبي معه، آخر مرة التقينا كانت بعد أن أبلغوني بالاستغناء عن خدمتي، جئت إليه غاضبة حائرة حانقة، لكن يده الرحيمة آنست وحشتي وبدّدت خوفي، قال لي لا تهتمّي، سوف تلاقين فرصة لائقة بك أكثر، ثم أنا موجود بجانبك لن أتركك، لكنه لم يتأخّر في تركي وترك صدى يرجّ أعماقي، ترك خواء قادرًا على ابتلاعي وابتلاع السكينة من نفسي، صرت أتردّد إلى بيت أهله، كان الحزن ينهش قلب أمّه، والخوف يسكن عيون إخوته، والانكسار في عيني والده. يا بنتي، والله نحن مالنا بالسياسة، نحن جماعة بحالنا، بنشتغل وبنتعب وبناكل من عرقنا، وين اختفى؟ ليش؟ كانت تلك السنة والسنة التي تلتها حزينة وكئيبة وثقيلة، بيني وبين حمادة قدحت شرارة الحب وكانت الحياة جميلة، لم نكن نخطّط لشيء، فقط كنا نعيش

الحبّ، لكنه اختفى بعد قُبلة ليس أكثر، قبلة أشعلتني وحوّلتني إلى رماد صرت أنهض من تحته على نداء عميق من داخلي، لم يكن من السهل تأمين موعد لقاء يتيح أكثر من قبلة. هو عبد الجليل، لم يكن لدي الدليل، لكن كل شيء يشي بأنه كان خلف حرماني من الشغل في المقصف وخلف اختفاء حمادة، لم يكن لحمادة أي نشاط سياسي، ولم يكن منتسبًا إلى أي حزب، وكان يوصيني دائمًا أن أبتعد عن المواقف والأشخاص الذين يمكن أن يورّطوني في المجهول، كان حذرًا ومع هذا اختفى واختفى غيره كثيرون. بقيت لأكثر من سنتين أتردّد على بيت أهله لأسأل عنه، وكانوا يلهثون خلف أي بصيص يمكن أن يقودهم إليه، قالت لي أمّه في إحدى المرات يا بنتي، الله يرضى عليكِ، ما بتقدري تعرفي لنا بأي سجن هو؟ والله قصر عمري وطرقنا أبواب كتير ما عرفنا. شعرت حينها أن برميلًا من الماء البارد دُلق على وجهي، بل جسدي. أنا؟ من أكون أنا؟ أنا مجرد فتاة تنحدر من الريف من أسرة لا تملك أكثر من خبز يومها، كيف يخطر على بال أم حمادة أن تطلب مني مثل هذا الطلب؟ ثم إن كان بإمكاني هل كنت سأتمّنع في السؤال عنه ومحاولة السعي في إخراجه؟ أو على الأقل تأمين زيارة لأهله؟ سألتها يومها بدافع ذهولي من الطرح: كيف ممكن أعرف يا خالة؟ يا بنتي أنتم واصلين قلت يمكن تقدري. نحن واصلين؟ من نحن؟ قالت لي يمكن يكون عندكم حدا من جماعتكم يده طايلة، والله نحن ما لنا حدا.

يا الله، كيف وصلنا إلى هنا؟ هل كل واحد من المحسوبين على الطائفة العلوية هو صاحبُ سطوة وسلطان؟ هل الجميع

يمتلكون ما يفتقده الآخرون؟ يا ربي، كيف أحسب أنا على الطائفة وقد كنت بدأت باكرًا أخلع عني كل ما تعلمته أو اكتسبته من أمور الدين والطائفة؟

حتى والدي لم يكن ينمّي في داخلنا هذا الشعور، فعندما كنّا نذهب إلى المدارس كان يوصينا بأن نردّ على سؤال قد نتعرض له عن أي دين أو أي طائفة ننتمي بأن يقول من يتعرّض لهذا السؤال: أنا عربي. وكبرت وأنا أضمر هذا القول في نفسي كبديهية من دون أن أفهم فحواها، حتى إني كنت أظن أن الحاجة هيلانة عربية وأبو سلمى زميل والدي في الشغل، الكردي، عربي، ورفيقتي في الصف التاسع التركمانية عربية، كنت أظن أن كل الناس في البلد عرب وهذا ما يميزنا ويزيل الفوارق البغيضة من بيننا، حتى فهمت لاحقًا ما معنى أن يكون الفرد عربيًّا أو كرديًّا أو أرمنيًّا أو تركمانيًّا في بلدنا الذي نعيش فيه جميعنا. جرحني طلبها في ذلك اليوم، وبعدها صار تردّدي إلى بيتهم فيه معاناة بسبب الحاجز الذي راح يرتفع بيني وبينهم، حتى انقطعت عنه وانقطعت أخبار حمادة. لم أعرف عنه شيئًا بعدها، صار من الماضي.

يُؤلمني أكثر أن خيارات فرضت نفسها على حياتنا، وحياتي أنا تحديدًا، فالوضع المتوتّر وحالة الحذر والشك بالآخر راحت تتفشى بين الناس بعد الاضطرابات التي شهدتها اللاذقية على إثر الأحداث السياسية في البلاد، صار الجو مشحونًا بين السكان، لم تعد الجيرة الطويلة تشفع، دبّ التوجّس في نفوس الساكنين وانعكس على علاقاتهم ببعضهم بعضًا، وسيطر القلق والخوف

على حياتهم. قرّر والدي، كما غيره من القاطنين في الأحياء القديمة في وسط البلد القادمين من الأرياف، أن ينقل سكننا وراح يبحث عن بيت آخر في منطقة شمال المدينة حيث الغالبية من الساكنين ينحدرون من طائفته، استأجر لنا بيتًا وكان إبراهيم قد نال الثانوية ولم يكمل تعليمه، وشعبان كان في بداية المرحلة الثانوية، أما عواطف فقد كانت في الإعدادية ولم يبق أمامها غير عامين حتى تنال الشهادة، بدت الأمور أنها تسير في الاتجاه الصحيح بالنسبة لنا بالرغم من الضائقة التي عانى منها الجميع، كانوا يقولون إن هناك حصارًا اقتصاديًّا على البلاد، لم أكن أفهم ما تعني هذه المقولة، لكنها ارتبطت بالمعاناة الشديدة في سبيل تأمين أبسط الحاجات التي تطلبها معيشة الناس، فصارت تباع على البطاقة التموينية لكل فرد في العائلة حصّة شهرية منها، حتى الخبز صار تأمينه يحتاج عناء كبيرًا، وكان أبي يوقظ أخي شعبان عند الفجر كي يذهب إلى الفرن ويقف في الطابور من أجل تأمين خبزنا. بينما من يستطيع أن يدفع فكل شيء كان متوفرًا بأسعار مرتفعة، بدأت أتعرف على مفهوم التهريب والسوق السوداء، ولجأت إلى الشراء من هذه السوق مرات عديدة، لكن ما كان يفاجئني أن هناك سلعًا اشتريتها كانت مستوردة بشكل نظامي إلى البلاد لكنها تباع في السوق السوداء، وكنا جميعًا نتعامل معها، نشتريها ونصمت كأنها حقيقة غير قابلة للنقاش.

t.me/tea_sugar

في يوم أسود جاءنا الخبر الصادم، اتصل واحد من زملاء أبي في الشركة الإنشائية حيث كان أبي يعمل حارسًا على مرآب الآليات على رقم جيراننا لأننا لم نكن نملك هاتفًا بعد، وقال لإخوتي إنه

تعرّض لحادث ونقلوه إلى المستشفى الحكومي، كان شحيحًا بالتفاصيل لم يقل أكثر مما يعيننا في الوصول إليه.

كنت في شغلي ولم يكن هناك هواتف خليوية بعد، التقينا في المستشفى، كان أبي ما زال في غرفة العمليات، طال انتظارنا وطالت العملية، قال لنا الأطباء بعدما أخرجوه إلى غرفة الإنعاش إن احتمال نهوضه على ساقين بات ضعيفًا، لقد كانت أذيّة الأعصاب والحبل الشوكي كبيرة، ولقد عملوا كل ما يستطيعون، أعادوا بناء الفقرات المهدّمة ويلزمه فترة استراحة طويلة لكن ساقيه لم تتحركا بعدها إلّا بالحد الأدنى وبدعم منّا كي يستطيع الوقوف عليهما، وانقلبت حياتنا كلها.

جاءه الشبح، أحد أشباح الرعب الذي كان يعيث بالبلاد والعباد، أصحاب السطوة والنفوذ والفجور، واحد ممن كانت قصصهم تفرش سحابة سوداء ترخي ظلها الثقيل على النفوس وتزرع الرعب فيها، كان يبني منشأة في مكان ما ويحتاج آليات ثقيلة من أجل إنجازها، جاء يريد أن يأخذ الآليات من مرآب الشركة، لكن أبي اعترض ولم يفتح لهم بوابة المرآب، قال له إنه حارس ومؤتمن على الآليات، هدّده المارد الشبح، ثار غضبه وقال له إن مثله لا يُقال له لا، لكن أبي أصرّ على القيام بواجبه أكثر..

ليتك لم تفعل يا أبي، هل كنت واثقًا من أنك تمسك بميزان العدل والحق؟ أخجل وأنا أقول بعد كل هذا العمر إنك كنت ساذجًا حدّ الهلاك. قال له مهدّدًا سوف تفتح يعني سوف تفتح، وعندما طلب منه أبي الاتصال بالمدير العام ليعطيه الإذن، صرخ

في وجهه، أنه هو من يأمر مديره والأعلى من مديره، نحن لنا الحق في التصرف بكل شيء فهمت ولا بفهمك؟ وناول أبي ضربة بكعب مسدّسه على جبينه، فترنّح والدي وسقط إلى الخلف حيث كانت هناك خزانة حديديّة منخفضة وقع عليها مغشيًّا عليه وقصمت حافتها العلوية ظهره، وخرجت الآليات بعدها واحدة تلو الأخرى وأبي مرمي على الأرض بينما جاءت سيارة الإسعاف لتنقله.

من يومها تغيّر منحى حياتنا، هكذا بكل بساطة رُسم قدرنا، بضربة واحدة من كعب مسدس كما لو أن حامله يلهو بقتّالة الذباب، نحن لسنا أكثر من حشرات بأجنحة ضعيفة وعمر قصير ينهيه أحدهم، على قصره، وقت يشاء وفي أي لحظة. بعد تلك الضربة صار أبي مقعدًا، لم يكترث به أحد ولم يزره أحد غير أولئك المسحوقين بلقمة عيشهم المسلوبة حياتهم وحاضرهم ومستقبلهم مثله، بعض منهم، وليس جميعهم، استمروا في زيارته والتخفيف عنه والدمع محبوس في صدورهم، كانوا يدركون تمامًا أن مصيرهم واحد، وأنهم أضعف من أن يقدّموا شيئًا غير التعبير عن مؤازرتهم وتعاطفهم معه بأبسط طريقة يمتلكونها، فهم عندما أضربوا عن الشغل يومها احتجاجًا جاءهم التنبيه والإنذار والتهديد بفصلهم من العمل، فانصاعوا صاغرين خلف الرغيف الذي في خيالهم، رغيف أطفالهم المنتظرين خلف الأبواب المغلقة على أسرار حياتهم، هناك حيث تنفلت الهموم وتتصعّد الزفرات وتبدأ سكاكين القهر تنحر حلاقيمهم. كانوا صادقين، وكانت فجيعتهم واحدة، وكان خوفهم أكبر منهم، وكان أبي ضحيّة حلم مذعور يختبئ في عتمة نفوسهمَ ووحشة لياليهم، حلم الكرامة

التي تؤرقهم، لكن الدرس جاء مقنعًا حدّ اليقين.

صرت المسؤولة الوحيدة عن البيت، وصار حلم السفر إرثًا من ماضٍ بعيد دفنته في عمق خزائني الغارقة في عتمتها، وصارت جهيدة تقبع في مكان مثلما لو كان برج مراقبة، تملي عليّ حلولها التي لم تكن تعجبني أو تمنحني الرضا. في ذلك الوقت كان شيء في نفسي يتصارع مع بعضه بعضًا، أنا زيزفون التي تتشكّل مع الوقت بأحلامها ونزوعها نحو فضاء ضبابي لم أكن أفهمه بالقدر الذي يمنحني القدرة على بلورته في نفسي ووضع مخطط لحياتي أو طريق أسير فيه، لكنه كان يتحوّل إلى هاجس لا يفارقني، أتألّم في وحدتي، في لياليّ المديدة وأنا أتطلّع إلى ذلك الفضاء بينما مسؤولياتي تزداد وتكبر، أرى والدي أمام عينيّ يذوي ويتكسّر في أعماقه كزجاج هش، ألمح شظايا نفسه في عينيه وفي نظرته التائهة وعينيه النديّتين، أرى الإحباط والقهر في عيني إبراهيم الذي يزفر زفرات حارقة، أرى شعبان وقد صار الاستيقاظ فجرًا همًّا يكابده ولعنة يحاربها، فلماذا تأمين الخبز من واجبه هو وليس أحدًا آخر؟ لماذا لا يذهب برهوم بدلًا منه؟ لماذا عليه الذهاب إلى المدرسة كل يوم والنعاس يستبيحه؟ ولماذا عليه الدرس والتحضير للامتحانات بمفرده بينما معظم رفاقه في الصف لديهم مدرّسون خصوصيّون يأتون إلى بيوتهم ويشرحون لهم الدروس التي لم تعد المدرسة تقوم بواجبها تجاهها؟

كانت حالات الغضب تسيطر عليه وصار يرفع صوته ويقاتل جميع من في البيت، حتى عواطف، أصغرنا، لم تكن تسلم من

عنفه، ويلها إذا ظهرت أمامه في لحظات ضيقه وغضبه، كان يدفعها بعنف وأحيانًا يصفعها على خدها متذمّرًا: من وين طلعت بوجهي أنت؟ ويدفعها حتى تكاد تقع أرضًا أو تقع بالفعل، تبكي عواطف وتنزوي في غرفتنا، فقد كنا ننام معًا، تصمت. تعلّمت عواطف الصمت، وروّض شعبان أبي تحت ضغط شعوره بالذنب، كان الوحيد بيننا الذي يتصرّف بطريقة تجعل والدي دائم الإحساس بالذنب تجاهنا، فيقع فريسته وفريسة وضعه العاجز، كما لو أنه بين حجري رحى، أبي خسر كل أسلحته وخسر معها شعوره برجولته أمام تحدّيات الحياة.

لم يعد لديّ حياة تخصّني، صرت رهينتهم جميعًا، تحوّلت إلى أمٍّ تكابد الهموم ليل نهار، تركض خارج البيت وداخله لتطعم تلك الأفواه وتخدم تلك الأجساد، وتداري كرامة والدها العاجز، أمّا أنا، زيزفون التي تحلم وتشتهي الحياة وتريد أن تنهل منها ما استطاعت فلم يكن أحد في وارد التفكير بها، صرتُ تحصيل حاصل في حياتهم، تأخّرت حتى سألت نفسي إن كنت راضية بما كنت عليه، أم إن هناك ما كان يسيطر عليّ ويدفعني باتجاه قبول تلك الظروف المتبدّلة والتأقلم معها، بل مطالبة نفسي بالمزيد من المواجهة والاحتمال؟ لم يكن أمامي إلّا سعيد كلما شعرت بالضعف يجتاحني وبوجع روحي أهرع إليه، أتركهم طوال النهار وأقول لأبي سأذهب للكشف على أحوال البيت في الضيعة، وكان يردّ عليّ بصوت مترع بالخيبة: يا بنتي، شو بقي لنا بالضيعة وبالبيت؟ اتركيه يصير خرابة، إخوتك ماحدا فيهم سيرجع إليه. وأنا أجيبه في نفسي، أنا من ستعود يابيّ، أنا المربوطة إليه وإلى

ذاك الهناك كما لو حبلي السرّي لم ينقطع. كانت روحي تستعيد طاقتها وتنتعش هناك، حيث سعيد وحيث مفاتيح الفهم، فهم الحياة وفهم نفسي، هناك كنت أبوح بكل شيء، لم أكن أخجل ولم أكن أخاف ولا يحرجني السؤال، هناك تعرّيت وعدت إلى فطرتي الأولى وفضول المعرفة، هناك أبكي كلما شعرت بضعفي، وسعيد يطبطب على كتفي ويمسّد شعري ويحضنني، يتركني أبكي حتى يتعبني البكاء، لم يكن يواسيني، كان يستمع ويصمت، وعندما أنتهي من نوبة تعصف بي وأهدأ يبدأ حديثه.

عندما تقدّمت إلى الوظيفة وكان عدد المتقدّمين يساوي أضعاف مضاعفة للعدد المطلوب، لم يكن لديّ أمل كبير بالقبول، ولم يكن وضعنا في البيت يحمل ضيقًا أكثر فقد أوشكنا على الجوع، لم تكن لديّ الواسطة التي تسندني، ولم أكن أملك المال لأدفع رشوة أشتري بها القبول، لم أكن أملك غير تصميمي على العمل وتحصيل المال الذي أحتاجه ويحتاجه إخوتي، وكان لديّ ما هو مطلوب ومرغوب ويفتح كل الأبواب، لكنني لم أكن أعرفه، أمرٌ شديد الالتصاق بي، هويّتي الخارجية التي يتعرّف عليّ الآخرون بها، صباي ومظهري وأنوثتي التي لم أكن أستخدمها لكنها استخدمتني عندما دغدغها الحب ولفتت نظري إلى حمادة، كان إذ يقول لي يا حلوة أذوب وجدًا وأشعر أن الحمّى الجميلة تجتاحني وقلبي يرتجف اشتهاء وليس هلعًا، وإذ يمدّ يده إلى عنقي يداعبه ويمرّر أصابعه في شعري يجمعه ويفرده، وتنزل باتجاه صدري تلامسه بلطف ثم تضغطه بتمهّل وتدلّكه ثم تقترب شفتاه من وجهي وتلفحني أنفاسه، أشعر بأن الدنيا تدور بي وتزيد سرعتها حتى

أتلاشى في قبلة محمومة تحرقني وتنعشني، فأصحو على وهجها وقد استباح وجهي وراح يتمدّد باتجاه عنقي وصدري وينزل إلى أماكن من جسدي كنت لا أعرفها لكنها بدأت تعرّفني إليها، اختفى حمادة بعدما أشعل حرائقي وترك وشمًا على قلبي ثم صار ذكرى، لكنه كان قد كشفني على أنوثتي. تلك الأنوثة التي صارت لعنة عليّ، ليس لأنني لم أعرف أن أتصالح معها، بل لأنها صارت مطمع الآخرين، صرت بالنسبة إلى معظم الرجال امرأة لا يرون فيها غير جسدها ويعتبرونه جسر مرور مسموح لهم عبوره بلا أي نقاش، يتصرّفون بثقة طاغية وكأن من حقهم مهما كانوا أن يمتلكوا جسدي.

لا أعرف إن كنت أحاكم ماضيّ وأنا أستعيد تلك الذكريات، ماذا لو لم أستجب لرشاد في ذلك اليوم الذي أتيت فيه إلى المؤسسة لأسأل عن نتيجة المسابقة، وأخبرني موظف الاستعلامات بأنها لم تُعلَن بعد، لكن الأستاذ رشاد يريد أن يقابلني؟ من هو الأستاذ رشاد؟ إنه المدير الإداري يا آنسة. وذهبت إليه، كان مكتبه في الطابق الأول، المكتب الذي صرت بعد مباشرتي بالوظيفة أزوره عند الطلب لأمور تتعلّق بالعمل، مثلي مثل أي موظف آخر، لكن خارج العمل كان هناك مكتب آخر تُنجز فيه غزوات رشاد التي تعيد إليه توازنه وتعزّز شعوره بأهميته، لم يوارب في ذلك اللقاء، كان واضحًا وضوح الشمس. مباشرة أثنى على جمالي، لقد أسرني جمالك يا جهيدة، وكلما نطق باسمي ازداد حنقي عليه، لم أخبره أن اسمي الحقيقي زيزفون، وما اسم جهيدة غير أداة أو دلالة عليّ، جهيدة يمكنها أن تكون رقمًا أحمله، شو هالجسم المنحوت؟ هذا

الجمال يحتاج من يقدّره. وأنا أطرق رأسي في الأرض أشعر بنيران تلفح وجهي، لا أعرف هل هي وهج الخجل أم إن صوتًا يخرج من أعماقي ينذرني، كنت مرتبكة منفعلة أرتجف، لم أردّ، لكنني كنت أشعر بنظراته ثقيلة تمرّ على جسدي. تابع غزله وإطراءه وأنا ما زلت صامتة، إلى أن امتلكت الجرأة أخيرًا وسألت: خير أستاذ؟ لماذا طلبتني؟ عدّل في جلسته وأخذ وضعية مختلفة تحوّل معها إلى المدير الجادّ الذي يهابه الموظفون، قال لي: شو رأيك أعزمك على فنجان قهوة بعد الدوام وهناك نتكلم عن القبول، الأسماء لم تعلن بعد، لكن بإمكاني ضمان نجاحك بالمقابلة وتدخلي الوظيفة بشرط أنك تكوني حكيمة وتقبلي عزيمتي. وضحك بعدها.

وقبلتِ الدعوة يا زيزفون. هل كان بإمكانك أن ترفضيها؟ لا والله، ما كان بإمكاني رفضها، كانت حياتنا كلنا في البيت بكفة والوظيفة بكفة، ما العمل إذا لم أقبلها؟ كان الحصول على الشواغر الوظيفية أمرًا شبه مستحيل، كان تحصيل وظيفة عند الدولة حلمًا يشعر من يحقّقه أنه حظي بليلة القدر، أما أنا فكانت ليلة قدري من دون قمر، كانت حالكة السواد، عشت في العتمة مع ذلك المدعو رشاد، كنت أوافيه في البيت الذي يملكه في إحدى زواريب الشيخ ضاهر، وبقي مفتاح البيت معي شهورًا عديدة، الشيء الوحيد الذي استطعت الإبقاء عليه هو بكارتي، ليس لأهميتها بالنسبة لي، ولا لخوف من فقدانها، لكنني كنت معه أؤدّي دورًا كي أحصل على الوظيفة أولًا، وكي أرسّخ قدميّ فيها ثانيًا.

كم عدت إلى البيت وفي صدري دموع تكفي بئرًا كي يفيض؟ كنت

أرجع من لقائي به ومعدتي مثل كيس من المطاط يمتلئ قيئًا، أشعر بالقرف من رائحتي من لعابي من كياني كلّه، أغتسل وأبكي في الحمام حدّ الإنهاك وأشعر أن كيس المطاط أفرغ محتواه من الحموضة والزناخة ثم أخرج لأقتحم جوّ البيت، لأكون واحدة منهم وبينهم، لأستمع إلى قصص أبي ومناكفات شعبان له ولعواطف، لأتلقّى نظرات إبراهيم الحائرة، لأتقاسم معهم الهمّ كل يوم، لم يكن همًّا وحيدًا، كانت همومًا تتناسل، لكن برهوم كان يضمر مخطّطًا آخر في نفسه، لقد قرّر أن يتوظف هو الآخر، شعر بالمسؤولية تجاه البيت ولم يتوانَ عن تحمّل مسؤولية ما، جادلته كثيرًا وأصررت على أنه يجب أن يدرس في الجامعة لكنه كان عنيدًا.

كان شعبان يضمر هدفًا في باله منذ أن تعرض والدي للاعتداء، كنت أخمّن ذلك، لكن فيما بعد أيقنت أن شعبان خُلق بشخصيته التي تجلّت لاحقًا، وما كان للحادث القاهر ذاك إلّا أن بلورَ هدفهَ، كان يريد أن يصبح صاحب سطوة ونفوذ، لذلك عندما نجح في البكالوريا، تقدّم إلى الكلية الجوّية بالرغم من محاولاتي الحثيثة بأن أقنعه بالدراسة الجامعية، لكنه أصرّ على الكليّة الجوّية وتمّ قبوله فيها، ثم بدأت أولى خطواته في الطريق الذي أوصله إلى ما هو عليه. لكن أيامي السوداء استمرّت بالتراصص فوق بعضها بعضًا.

11

مرّت عدّة أيام ولم تكن مشكلة نور قد لاقت حلًّا، كلّ يوم كنت أعيش التوتّر والقلق والخوف إلى أن يأتي المساء وتسكن الحركة قليلًا فأضمن أن لا أحد سوف يقتحم البيت من أصدقاء والدي، ولا شعبان سيتصل ويقدّم له أبي تقريرًا عن يوميّاته مثلما اعتاد، بالرغم من أن تلك اليوميّات لم تكن تعني شيئًا لشعبان أكثر من ثرثرة يحتاجها عجوز اقترب من التسعين، ولم يكن يسمعها إلّا بدافع الواجب الذي يشعر بأنه يؤدّيه على أكمل وجه بإنصاته لذلك الهذر، ثم يتبجّح أمام زملائه بالوفاء الذي يكنّه لوالده، ويحكي لهم النوادر عنه. بالنسبة لي لم تكن علاقتي به تشبه علاقة الأخوّة، ومع ذلك عندما قرّرت بناء البيت هذا من دون رخصة، وكنت قد قتّرت على نفسي كثيرًا، وعملت جمعيّات عدة في الشغل لأحققق هدفي ..

قبضت الجمعية عندما حان دوري وخبّأتها، ثم طلبت قرضًا من مصرف التسليف الشعبي على راتبي وأضفته إلى المبلغ وباشرت البناء بعد أن اتصّلت به حيث يقيم في دمشق، منذ أن تزوج وصار لديه أسرة ومرشّحًا لأن يكون صاحب سطوة ونفوذ.

لم يكترث أخي شعبان عندما أخبرته بأنني سأبني بيتًا لي بجانب البيت الطيني، خابرته إلى بيته في الشام، لم يكن موجودًا، مثل حاله دائمًا، ردّت عليّ يومها زكية زوجته متأفّفة كعادتها: بالخدمة،

لسّة مارجع. لم يكن يومها قد صار ضابطًا كبيرًا، كان على أبواب أن يصبح برتبة رائد، ويحلم بالنجوم الكثيرة التي ستلمع يومًا على كتفيه، وبالنياشين التي تزخرف بزّته العسكرية، وكان جلّ وقته يقضيه في مكان خدمته، بالآمرية. قلت لها أخبريه بأنني قرّرت أن أبني بيتًا صغيرًا في الأرض بجانب بيت العائلة المهجور، وأخبرتها ممازحة ومتودّدة كي أكسر جمودها الفظّ بأنه سيكون للجميع: بكرا بيجوا الولاد بالصيف وبيقضوا وقت حلو طالما أبوهم مشغول دائمًا عنك وعن الأولاد. لم يفرحها الخبر بالطبع، وأرادت أن تفوّت عليّ فرصة من هذا النوع، ردّت علي: والله الولاد ماكتير بيحبّوا الضيعة، مطرحهم بالشام في محلات كتيرة بيروحوا عليها. من وين حصلت على المال؟

كان في سؤالها استهتار بي وتشكيك بحقي في أن أبني، واتهام مبطّن بأن أخي شعبان يرسل إليّ بالسرّ أموالًا من حقّها هي وأولادها. زكيّة لم تكن تحبّني وأنا أتفهّم ذلك، فأنا ابنة حميها قبل أي شيء، ولا بد لها من أن تكون علاقتها بي انطلاقًا من هذا الأمر، طالما الواقع هكذا يشيطن العلاقة بين الكنّة وأهل زوجها. ولم تكن توفر فرصة تشعرني فيها بأنها متفوّقة عليّ، هي ابنة العزّ والجاه من أبيها الضابط الكبير، التي كبرت على الخدمات ومجموعة من العساكر يقومون بخدمتها وخدمة العائلة، وأنا التي لا أحمل إلا الشهادة الثانوية التي حصلت عليها من دون دخول مدرسة نظامية.

انتظرتُ حينها أن تقول لي زكيّة مبارك، تهنّئني، لكنها لم تفعل،

أنهت المكالمة بأن قالت: سأخبر شعبان لما يرجع، الآن مشغولة بعتذر منك. ومرّ الوقت ولم يتّصل بي شعبان، أكثر من ثلاثة أشهر كنت خلالها قد باشرت بالبناء، إلى أن طلبته ثانية راجية أن يبارك لي مجهودي ويفرح لفرحي، لكنه كان باردًا في حديثه حدّ الصقيع. سألته قبل أن أنهي المكالمة: ما سمعت رأيك؟ ردّ علي: موفقة، بس أنا لا أستطيع مساعدتك بشيء، اهتمي بمشروعك لوحدك أنا ما عندي وقت لأي انشغال تاني، ولا عندي استعداد لحل أي مشكلة إذا تعرّضت لها. أنا ايضا لم أكن أنتظر منه المساعدة.

عندما رجعت من المقبرة بعد دفن سعيد كنت في حالة من الضعف والهشاشة تجعلني معرّضة للكسر بسرعة، وكان نور ينتظر أن نحكي مع والده، وكان أبي ينتظر أن أحكي له ما يبدّد سطوة الوقت والعجز عن مواكبة تفاصيل الحياة خارج البيت إلّا من خلالي وخلال منيّر، يريد أن يعرف التفاصيل كلها وأنا لم أكن بمزاج يؤهّلني لذلك، اقتربت منه وربتُّ على ظهره، قبّلته من رأسه وقلت: البقيّة بحياتك يبّي، دفنّا سعيد ورجعنا. دمعت عيناه، قال بصوت راجف: عرفتِ شي من الناس على المقبرة؟ كيف مات وأيمتى؟ لا يا يبّي ما عرفت، مات الله يرحمه. صمت قليلًا وقال: الله يرحم روحه. أخبرني نور أنه أمضى وقتًا طيّبًا مع أبي ومُنيّر، وأن مُنيّر حكى له عن صراع الديكة وعن أنواع الأفاعي في الضيعة وعن الناس وطرق عيشهم، قال لي: ظريف كتير، مهضوم وحبّاب. وصمت، بصمته عرفت أنه يذكّرني بوعدي بأن نتّصل بأبيه.

قلت لأبي إنني سأصحب نور بعض الوقت لأطلعه على بيتنا

القديم وعلى البرّية لن نتأخر وتطلعت بمُنيّر فسارع ليقول: إي خديه وأنا أبقى عند عمّي بو إبراهيم بينما ترجعوا. كان الوقت أوّل المساء والعتمة بدأت ترخي بظلالها على المكان، خرجنا وابتعدت قليلًا عن البيت وعن الطريق كي لا يسمعنا أحد، أملى عليّ نور الرقم وبدأ قلبي ينتفض في صدري قبل أن يبدأ الرنين، ناولت نور الموبايل ورحت أتأمّله وهو يكلّم والده بلهفة وصوت شبه هامس، كان يتلعثم في الكلام ويصمت كلما بدأ في جملة يريد أن يخبره فيها بموت سعيد، قال له في البداية إن هذا الرقم ليس له بل لشخص آخر سوف يكلّمه بمجرّد أن ينهي حديثه معه، ثم أخبره بأنه هرب من حاجز طيّار كان يبحث عن المطلوبين للعسكرية، وأنه أحرق بطاقة هاتفه وينتظر الجماعة كي يخبروه بأن أموره جاهزة، أخبره كل ما كان يقلقه ثم صمت، وأبوه يحادثه، ربما يحثّه كي يتكلّم بعد صمته، قال له: بابا، عندي خبر سيّء. ثم شهق شهقة رمتْه في بكاء منعه من الحديث، تناولت الموبايل منه. مسا الخير يا أستاذ، أنا زيزفون، تذكرتني؟ ولو يا زيزفون، كيف أنسى الصبيّة الجميلة التي تحبّ القصص والروايات، كيف أحوالك؟ يسعدني أن أسمع أخبارك، لكن ما به نور؟ لماذا يبكي؟ سعيد، بسلامة راسك يا أستاذ. وساد الصمت في التلفون وفي الدنيا كلّها، لم أعد أسمع غير صوت نفَس مضّطرب في التلفون، وأخمّن أن الأستاذ كان يسمع صوت نفسي المخنوق أيضًا، كنّا نبكي جميعنا، موت سعيد فاجعة كبيرة لنا، لكن هناك أيضًا ما يجعل قلوبنا مترعة بالدموع المؤجّلة، هناك القهر والعجز، قهرنا على أحلامنا المذبوحة وعجزنا عن فعل شيء بعدما صار بلدنا حطامًا وصار

الناس مسكونين بالعداوة والضغينة والثأرية.

أراد الأستاذ عابد أن يشكرني، لم أفسح للشكر مجالًا فأنا الممنونة له بأشياء كثيرة لم يفقدها الزمن حرارتها ولم يطَلها النسيان، هو من قدح شرارة الأسئلة في بالي عن طريق القراءة، وسعيد استلمني وساعدني كي أصل إلى ما أنا عليه اليوم، لكنني أسأل نفسي اليوم هل أشكرهما أم أرمي عليهما العتب لأنهما جعلا مني تلك المرأة الرافضة الباحثة عن حريتها حدّ تأليب الآخرين ضدّها؟ لا يا زيزفون، أنت امتلكت نفسك بالرغم من كل ما مررت به في رحلة العمر، ما صار صار لأن واقع البلد هو العفن وليس أنت. يا الله، ألهذه الدرجة كنا نصارع طواحين الهواء؟ ألهذه الدرجة كنا نعيش بالوهم حتى صفعنا الواقع بجبروته؟

قلت له لا تشكرني أرجوك، نور مثل ابني، لم يسألني إن كان لدي أولاد، أظن أنه كان يعرف عني أكثر بكثير مما توقّعت، لم تنته معرفته بي عند تلك المرحلة التي رماني فيها على أول طريق الفضول والمعرفة ثم اختفى، لا بُد أن سعيد كان يحكي له عني.. لكن بقي السؤال ذاك يحيّرني ولم يعد هناك سعيد لأسأله، ترى هل يعرف الأستاذ عابد بحكاية المزار أبو طاقة والتهمة التي أُلصِقتْ به؟ وهل يعرف أنني حرقت المزار انتقامًا لكرامتي؟ لا أعرف. عابد وسعيد بقيا بالنسبة لي النموذج الأنصع لما يجب أن يكون عليه الإنسان. لا تخف يا أستاذ، نور بأمان طالما هو عندي، وسأساعده بكل إمكانياتي، سنبقى على اتصال بك، أنا أطلبك، لا تتّصل أرجوك. أنهيت الحديث بهذا الوعد، وأنا في الواقع لا أعرف

كيف سأفي بوعدي، أتمنى ألّا تتأخّر أوراق نور.

رجعنا إلى البيت، لحق بي مْنيّر إلى المطبخ بحجة مساعدتي في تحضير الطعام، قال لي بصوت منخفض: بدّي أعرض عليك عرض زيزفون لا ترفضيه الله يوفقك. تركت ما بيدي وانتبهت إليه، منذ متى يعرض مْنيّر عروضه؟ لم أعهده إلّا سارحًا في البراري غير آبه بشيء، لكنّه لم يتركنا طيلة تلك السنوات، لماذا لم أنتبه إلى وفائه الدامغ؟ تفضّل يا مْنيّر قل لي. أنا بعرف أنك مرتبكة بسبب أن نور عندك، وبعرف أنه ابن الأستاذ عابد وليس ابن رفيقتك، وبعرف أنك خايفة من أن أهل الضيعة يعرفوا ويوصل الخبر للشيخ أديب، والله غير الرب ما حدا بيقدّر شو ممكن يعمل. أنا بدّي آخد نور يسكن عندي بين ما تنحلّ أموره، بتعرفي لا بزور حدا ولا حدا بيزورني، وعندي رح يكون بأمان.

لم أصدّق أذنيّ، حتى هذه التفاصيل الحسّاسة كان يعرفها. نظرت إلى مْنيّر فبدا لي رجلًا آخر غير الذي أعرفه، تحوّلت سحنة البلادة التي كنّا نراها ملتصقة بوجهه إلى سحنة من الطيبة واللطف والوفاء، بل النبل. هل هذا منيّر الذي أمضى عمره يصاحب الأفاعي والديكة؟ ما أغباني عندما تشبّهت بغيري وفكّرت مثل تفكيرهم وتلقّيت الصورة التي رسموها لمْنيّر ببساطة وتسليم، فبقي في بالي طول العمر أسير تلك الصورة الجائرة، لكن شعورًا خاطفًا راودني خجلت منه بيني وبين نفسي، وتأسّيتُ على حالي وحال الآخرين الذي أوصلتنا إليه هذه الحرب اللعينة، للحظة راودني شعور بالقلق، فماذا لو كان مْنيّر يراوغ ويضمر شرًّا تجاه نور؟ شعرت

بدوار في رأسي ووددت لحظتها أن أصفع نفسي على هذا الخاطر، ألهذه الدرجة وصل بنا الارتياب؟ ألهذا الحدّ فقدنا الثقة ببعضنا بعضًا؟ أم بأنفسنا؟ مُنيّر يقول ما بصدره بكلّ صدق وأمانة، هكذا يوحي وجهه الطيّب فلماذا أخوّنه؟ أغمضت عينيّ بقوّة لأطرد هذا الوهم من مخيّلتي وأنا أعيد كلامه في بالي ووجهه يضيء شيئًا فشيئًا حتى احتلت صورته، ليس رأسي فقط، بل وجداني كلّه. وددت أن أحضنه، أحسست حينها أن ليست كل الخسارات خسارات، قد يفاجئك القدر بما هو أغلى وأثمن مما خسرت بالرغم من فداحته، أخواي اللذان نذرت عمري لأجلهما فشلت في أن أزرع فيهما ما كنت أصبو إليه من قيم ومثل، بالأخصّ شعبان، لكن مُنيّر عوّضني، مُنيّر هو هدية القدر التي لم أنتظرها.

*

من الدفتر

عواطف، ناري التي تتقد من جديد

أشتاقُ إليه، كأن الموت يمتلك قدرة خارقة على إضاءة الماضي، موت من نحبّ، هل لأن استحالة اللقاء تمنح حياتنا معهم هذه الهالة الساحرة وتُحيل الذكريات بكل شجنها إلى حالة تُشبه الأحلام المستحيلة؟ أجمل الأحلام تلك المستحيلة فوهجها يزداد حتى يصير حارقًا كلما استغرقنا فيها. ما زال موت سعيد حديثًا، لم تطوه الأيام ولم تخضع ذاكرتي معه لامتحان الزمن، لكنه نبش أعماقي وذاكرتي وأوجاعي مجتمعة. حتى عواطف التي كانت عاصفة موتها قد روّضتْها السنوات في صدري تعود إليّ

اليوم بكل جبروتها، بكل عصفها، يعود إليّ وجه عواطف وعيناها الباكيتان، يا حسرتي عليك يا عواطف، ويا خزينا وعارنا من عجزنا، هيك، رحتِ رخيصة متل ما أبونا انحكم عليه يعيش المذلّة طول عمره، أي بشر نحن؟

كانت عواطف تكبر في الظلّ، لم أكن أهتمّ بها كما تحتاج فأنا نفسي كنت أحتاج حضنًا يضمني ويبدّد صقيعي وإلّا لماذا كنت أبحث عن شيء غامض توهّمت كثيرًا أنني وجدته، عندما رحت وسهرت مع الرفاق صحبة سُهاد، وعندما قبلت دعوة منصور إلى الغداء ورفضت حبّه، صرت أمًّا من دون أن أكون أمًّا، صارت أسرة متعلّقة بي أنا الكبيرة في البيت بعدما ماتت أمّي وشلّ العجز والدي، وهناك ثلاثة أطفال من حقهم الحياة؟ كنت غارقة في دوّامة أتطلّع إلى الانفلات منها لكنّ الواجب يشدّني ويقسرني على الدوران معها، لا أعرف كيف نما هذا الإحساس في داخلي، الإحساس بالمسؤوليّة، هل كان لتربية أمّي وأبي أثر كبير في طفولتي تضخّم إحساسي به حتى لعبتُ الدور بكل أمانة وإخلاص؟ كان شعبان دائم التوتّر والغضب والتأفّف في البيت، وكانت عواطف أضعف فرد فيه فأصبحت تتلقّى معظم شحناته العصبية والانفعالية، يمارس استبداده عليها بطريقة شرسة، ولم تكن تحتجّ، كانت تصمت وكنت أؤنّبه بشدة عندما يحصل الموقف أمامي، لكنه كان يردّ عليّ بوقاحة ويتمادى في الكلام، فأشعر بالإهانة والخيبة وأبتر الأمر بانسحابي من المهاترة معه كي لا تشتعل النيران في البيت أكثر، وكي أخفّف من ألم والدي الذي يبدو أنّ عجزه عن معالجة أي موقف كان يزيد في قهره، أمّا عواطف فكانت تنسحب وتنزوي

في الغرفة، بينما برهوم الذي كان في البداية يحاول زجر شعبان، صار لاحقًا يفتح الباب ويخرج من البيت حتى لا يصطدم معه، ثم بعدما التحق بشغله في معمل الكونسروة صار بعيدًا عن البيت، وظل يبتعد حتى فاجأنا بعزمه على السفر إلى أبو ظبي.

عندما أعلنت نتيجة الشهادة الإعدادية كانت عواطف ناجحة ودرجاتها تؤهّلها لمتابعة دراستها الثانوية لكنها أصرّت على الالتحاق بمدرسة التمريض. يحرقني إصرارك يا عواطف، ويعذبني الشعور بالذنب تجاهك، لم أفهمك حينها ولم أنتبه إلى أنك كنت تحاولين حمل جزء من مسؤولية البيت عني، لكنني لم أكن أستطيع أن أفرض عليك رغباتي، خمّنت أنها رغبتك يا عواطف وأرغمتُ نفسي على احترامها، ليتني مارست القمع مرّة واحدة في حياتي وجعلتك تتابعين دراستك وتدخلين الجامعة ربما كان القدر تاه عنك. بعد كل السنين التي مرّت على غيابك، ها هي اللحظة تهجم عليّ بكل جبروتها وشراستها، هل موت سعيد هو الذي نبش أوجاعي كلّها؟ يومها بكيت بين يديه كثيرًا، بكيت والنيران تحرق قلبي والانتقام يضغط على صدري، استمعَ إليّ سعيد، أصغى بكلّ كيانه وكان وجهه يكتسي ملامح غامضة لم أفهمها، كان يقاطعني ليسأل عن بعض التفاصيل على غير عادته، علمت بعدها أنّه لم يكن مصدّقًا أنك انتحرتِ، لم أكن لأستطيع إخماد البركان في صدري لو لم أفعل ما فعلته انتقامًا لك، ولم يكن ليشفي غليلي انتقام مثله لكنني لم أملك غيره، سامحيني يا عواطف، في هذه البلاد وحوش جبارة تمشي بيننا وتتحكّم في حياتنا، وحوش أكبر منّا، منها ما كنا نراه ومنها ما لا نراه لكننا نسمع زئيره يقضّ مضاجعنا ونشمّ رائحته

العفنة التي تسمّم هواءنا، لم أعرف يومها من أي وحش أنتقم ولا كيف أنتقم، حياتك غالية يا عواطف وكرامتك أغلى، لكن كان هناك أبي العاجز وشعبان الذي يبدأ أولى خطواته في طريق مستقبله، وبرهوم الصامت الذي يعذبني صمته، وأنا التي لم يكن قرار حياتها أو موتها بيدها، كنت رهينة ظروفكم جميعًا، وغاب عن بالي أنك تتعذّبين أكثر واحدة بيننا، غاب عن بالي أنك البنت الهشّة التي انتُهكت كرامتها في البيت قبل أن تُنتهك خارجه.

لو لم تموتي لكنتِ اليوم أمًّا ولديك أولاد كثر، كنت سأحبّهم يا عواطف مثلما أحببتك، لكنني أعترف لك بأنني أحيانًا أقول في سرّي ربما موتك رحمك من أن تموتي كل يوم مرّات كثيرة، لو كان أولادك اليوم في هذه البلاد التي غادرتِها منذ أكثر من ثلاثين سنة لكانوا محرومين من حصّتهم فيها، صدّقيني يا عواطف، أحيانًا كنت أبكي وأنا أرى الأبناء في كل مكان هائمين على وجوههم، يفترشون الأرصفة في مساءات الصيف الحارة وينظرون إلى الفراغ، لا يعرفون كيف يبدّدون أوقاتهم، لو كنتِ تعيشين بيننا اليوم لاحترق قلبك على أولادك، ولكان شبح التجنيد يقضّ مضجعك ويحيل ليلك إلى جحيم حارق، لو تعرفين اليوم أيّ جيل كان أولادك سينتمون إليه. شباب تُسلب الحياة من عيونهم وتتركهم صورًا ملصقة على الحيطان والأسوار وأعمدة الكهرباء، كلّهم شهداء الوطن، وهناك في المقلب الآخر شهداء الدين والإسلام...

لو بقيتِ حيّة يا عواطف كانت البندقية تنتظر أولادك، أو الهروب في طرق أخرى تفضي إلى الموت أيضًا، جيل لم يعد له

وطن وليس له ماض ولا مستقبل. كنّا سنجلس ونندب حياتنا، كنّا أنت وأنا سنكابد الهمّ معًا ونحن نبحث عن طرق نجاة لنحمي أولادك من الضياع أو الموت الرخيص، لم يخطر في بالي يومًا وأنا أتذكّرك أنني يمكن ألّا أراهن على ضميرك النزيه، لو كنتِ اليوم معي كنتِ ستخجلين من أن تجهري بأن شعبان هو أخوك مثلي اليوم تمامًا، شعبان صاحب القلب الأسود الذي أعمته السلطة والنفوذ، لا يا عواطف، ليست زكيّة، زوجته، أو أبوها هما السبب، لو لم يكن شعبان يستبطن مستنقعًا في أعماقه لما كانت زكيّة أو غيرها استدرجوه إلى مستنقع أكبر وأعمق، شعبان سيّء يا عواطف، ولم يكن زواجه من زكية إلّا سلّمًا من أجل الوصول، هذا كان حلمه ومشروعه في الحياة. أحيانًا أسأل نفسي كيف يمكن أن يكون الأخوة المواليد من الأم ذاتها والأب نفسه مختلفين إلى هذا الحدّ؟ وأجيب نفسي هازئة منها كيف تفكّرين هكذا يا بنت؟ هل من المعقول أن يكون الجميع صبّ قالب واحد؟ أليس مضحكًا أن تفكّري أننا متطابقون؟ لماذا إذن تستنكرين على الآخرين أن يرونا هكذا، جزءًا من الطائفة كلّها بالرغم من ابتعادي أنا تحديدًا عنها؟ لماذا استنكرتِ قبل اليوم على أمّ حمادة أن تسألك عن واسطة مقتنعة بأن لديك سلطة ونفوذًا؟ أنا وسعيد وسهيل وكثير من الأفراد الذين أعرفهم يا عواطف نرفض أن نُمسخ في هذه الصورة الخبيثة، أنت متِّ قبل أن تعرفي شيئًا، كنت ضحية من الضحايا، بل كنتِ صورة صغيرة غضّة عن ضحيّة كبرى هي بلدنا كلّها. لو تعرفي الفقر الذي انزلق إليه الناس منذ موتك، بل من قبل أن تموتي لكنك كنتِ صغيرة، اليوم لم تعد لدينا حياة يمكن أن

تمنحنا صفة البشر.

يحضرني ذلك اليوم بكامل سطوته وقسوته، يا الله! أكثر من ثلاثين عامًا يا عواطف، كنتُ بحاجة إلى هذه السنين لأبني علاقتي بك كما تستحقّ أن تكون، كنتِ صغيرة نديّة كالبراعم في الصباح، كبرتِ ولم أنتبه إليكِ، كبّرك الهم والقلق والخوف، كيف كانت تمضي لياليكِ؟ منذ أن باشرتِ دوامك في مدرسة التمريض صرتِ نائية عنّا، صارت غرفتنا كئيبة مظلمة، لكنني كنت أهدّئ نفسي وأنا أفكر بك وأقول إنها رغبتك، لا بدّ أنك سعيدة بحياتك الجديدة المستقلّة عنا. كان كلامك قليلًا وأنا ألحّ عليك كي تخبريني عن حياتك هناك، في الدروس وفي السكن، كيف تنفقين الوقت؟ لكنك لم تكوني تمنحينني أكثر من جمل موجزة، كان يحزّ في نفسك أن غالبيّة زميلاتك في المدرسة ينحدرن من الريف، قلتِ لي يومها بحزن: لماذا هذه الجماعة فقيرة إلى هذا الحدّ؟ ولم أكن أملك الجواب حينها، لكنني بعد أن كبرت فهمت..وأنا أقترب من سعيد أكثر صارت صور كثيرة تتوضّح في بالي، كان يوضّح لي كل ما التبس عليّ. بلى يا عواطف، هذه الجماعة ليست فقيرة فقط، بل مسلوبة الإرادة والقرار، على مدى السنوات التي مرّت بعد وفاتك وقبلها أيضًا، كانت حياتها تصاغ بقوالب ماكرة، ليسوا وحدهم يا عواطف، بل معظم الناس الفقراء المقهورين ازداد قهرهم وأحكم الوثاق عليهم، فظلّوا مرتبطين بكل ما يتحكّم بالمصير من دون أن يمتلكوا القدرة على التصرّف. لقد فاتك الكثير.

لم يراودني شك للحظة أنكِ في خطر، كنتُ قد اعتدتُ على

صمتك وقلت في نفسي هذه طبيعتك، كنت أكره شعبان لأنه يعنّفك ولكنني لم أكن أملك السلطة التي تردعه. لم يراودني شك بأن صرحًا تعليميًّا تابعًا للحكومة يمكن أن يكون مرتعًا لأبشع أشكال الفساد، أن يتحوّل المدير إلى قوّاد يغرّر بالطالبات المؤتمن عليهنّ من أجل مصلحته وضمان البقاء في منصبه، عندما أخبرونا أنك في المستشفى وفي حالة خطرة قالوا لنا إنك تعرّضتِ لحادث، لم يقولوا ما هو الحادث، ثم برّروا أنهم لا يريدون أن يصدمونا بحقيقة فاجعة، أنك انتحرتِ. لم أصدّق يا عواطف، لا، قلبي رفض تصديق حكاية انتحارك، حتى لو كنتِ صموتة تكابدين همّك وحزنك وحدك، لكنك لا يمكن أن تقدمي على الانتحار، وبقيتُ تحت رحمة هذا الإحساس أسابيع طويلة، كانت نيراني تأكلني حتى ضجّت المدينة بالحكاية. في مدننا لا شيء مستور ولا أمر يمكن أن يخفى، لكن الخوف يجعل الناس يتناقلون أي خبر بالهمس والحذر، قالوا إنك انتحرت بالفعل لأن الرفيق الذي شاع صيته ورائحته مثل رائحة الخنازير كان يريدك، ليس أنت بالذات، بل لأنه اعتاد ان تُرسل إليه الفتيات الصغيرات ليشبع نهمه وغريزته المنحرفة، كان مولعًا بالصغيرات وكنت لم تكملي عامك الخامس عشر. يا الله، كنتِ طفلة يا عواطف ويريدك فريسة يلتهمك على مهل ثم يرميك للحياة تعلكك كما تشتهي؟ كان قبلك كثير من الضحايا، لكنك كنتِ أول واحدة بينهن ضحية بطريقة أخرى، لم يحتمل قلبك الصغير ولا نفسك النقية أن تكوني بين مخالبه فهربتِ، لكن إلى أين كان بإمكانك الهروب وحَرَم المدرسة مغلق وعلى بوابته حرّاس؟ لم يكن أمامك إلّا الصعود، صعود الدرج إلى

السطح لتكون روحك أقرب إلى السماء، من سطح المبنى ألقيتِ بنفسك ومن هناك صعدت روحك البيضاء ترفرف بأجنحة من نور إلى السماء وجسدك الصغير ملقى على تراب الساحة الخلفية للمبنى، ليقولوا لنا إنك انتحرتِ، صحيح انتحرتِ، لكنهم نحروكِ، يا ناري لا تشتعلي بعدما أخمدتك السنوات، لم أعد أحتمل أكثر، أوشك أن يغمى عليّ مرة أخرى، صار موتي قريبًا وإلّا لماذا يهدّدني الإغماء كل حين؟

عواطف، أريد أن أخبرك بأمر لا تضحكي عليّ، لقد أغمي عليّ منذ فترة قريبة وقد كنت أزور بيت أخي برهوم، وظنّوا أنني ميتة ودبّ الخبر عند الجميع وأتوا ليودّعوني. لا تضحكي، كانوا مستعجلين على موتي وأنا لا أفهم لماذا يطلبونه؟ ليس عندي ما أورّثه، ولم أكن عبئًا على أحد فأنا حتى وقت قريب ما زلت أشتغل وأصرف على نفسي، والآن لديّ تقاعدي وأفكّر في إعادة إحياء التنور، هل تذكرينه؟ التنور الذي أكلَ من يدي أمّك حتى جاءها الأجل، بلى، أريد ترميمه وخبز الأرغفة والفطائر عليه، فطائر الفليفلة مع السمسم، وفطائر القريشة والفطائر بسلق، وأنوي أن أعيد إحياء الترموسة، كنّا نحبّها ونحن صغار، كانت أمّي تغدق عليها بحشوة السلق والبصل وزيت الزيتون والسماق الذي كانت تجمع الكثير منه من أجل المونة هل تذكرين؟ وأريد أن أصنع الكُماجة وأشبعها زيتًا وملحًا، هذا ما أخطّط له لأحصل على ما يدعم تقاعدي فالغلاء صار يعضّ علينا يا عواطف، لكن حصلتْ أمور جعلت مشروعي يتأخر، لقد مات سعيد، أنت لا تعرفينه عن قرب، ربما سمعتِ في طفولتك بقصصه وحكاياته مع كلابه وعن جنونه الذي

كانوا يمضون سهراتهم وهم يتحدثون عنه ويضحكون، كانت سيرته تسلّيهم، أظنّ أن تلك القصص لا تعنيكِ لكنني أؤكّد لك أنّه أعقلهم يا عواطف. سعيد كان الشخص الأغلى على قلبي، لا تضحكي من قصّتي، لقد أحببتُ بعد هذا العمر، أحببت سعيد بعدما كان أقرب إليّ من يدي ولم أكتشف أن ما يربطني به ويشدّني إليه هو الحبّ إلّا متأخّرة كثيرًا، ما يعزّيني أنني أمتلك ماضيًا يخصّنا نحن الاثنين، لكنه غادرني وليس لديّ من يعزّيني اليوم. فلماذا كانوا يستعجلون موتي؟ لم أمت وفوّتُّ عليهم فرصة الاحتفاء بموتي، كنت فقط مغشيًّا عليّ، من يومها قرّرت أن أكتب مذكّراتي، لا، ليست مذكّرات بل ذكريات، أفتح الدفتر الذي اشتريتُه من أجلها كلّما ألحّتْ عليّ نفسي وفتحتُ قلبي على الماضي أدوّن ما ترميه هذه الذاكرة، التي اكتشفت أنها موجعة.

لا أريد أن أؤلّب مواجعك وأخبرك كيف كان صدى قتلك الدنيء في نفوس أخويكِ، إبراهيم طفر من هذه البلاد لأنه لم يستطع أن يواجه المخارز الموجّهة إلى عينيه، امتثل لمقولة العين لا تقاوم المخرز، فابتعد وراح يعمل خارج البلد وتزوّج وأنجب واستكان لحياة خالية من أي حافز أو معنى، عندما ألتقي به في إجازاته القليلة أكاد لا أعرفه، وجهه يفقد التعبير بالتدريج، وجه جامد يا عواطف لا يشبه إبراهيم القديم. أمّا شعبان فتعلّم من قتلك ومن عجز أبي حكمة حياته أننا نعيش في زمن الوحوش وتحت تهديدهم، وكان أكثر ما يناسبه التحوّل إلى وحش مثلهم، الانتماء إلى قطيعهم كي يضمن سلامته الفرديّة، لقد صار شعبان واحدًا منهم يا عواطف، يا وجع قلبي ويا حسرتي عليكِ.

أتدرين؟ يوم رحيلك وفي أثناء فترة العزاء بك جاءت مجموعة من الفتيات رفيقاتك ليقمن بواجب العزاء، كنّ حزينات ومكسورات لكنّهن صامتات كالحجر، معهنّ اثنتان من ناظرات المدرسة وأخرى تكلّمت بالنيابة عن الجميع، قالت إنها مكلّفة من مدير المدرسة بالقيام بالواجب، أوصلت لنا رسالة منه بأنه جاهز لتقديم كل أشكال المساعدة التي نحتاج، أي مساعدة يا عواطف؟ من بإمكانه أن يعيدك إلينا؟ من يستطيع أن يعوّض العمر الذي كنت تنتظرينه؟ من يسدّ الفجوة التي بدأت كبيرة واتّسعت مع السنين، الفجوة التي تركتها في روحي وصارت هوّة تكاد اليوم تبتلعني؟ هل أعترف لك بسرّ؟ كنتُ عزمت على ألّا أبوح به حتى لك يا عواطف، لكنني اليوم أضعف من حمل أسراري وحدي، اليوم الذي اجتمعت فيه كل الخيبات والخسائر ووقفت في وجهي مثل سدّ منيع يحجب الحياة عنّي ويبقيني هنا على تخوم الموت، لا الحياة أطالها ولا الموت يأخذني، بل يلعب بي موت غشّاش لا أفهم نيّاته. اليوم لم تعد البلاد التي تركتِها كالبلاد، ولم أعد قادرة على دخول طريق السفر بخطوة واحدة، كم حدّثتك عن السفر عندما كنت أراك صامتة، عيناك حزينتان وصدرك يطبق على هموم لم أكن أعرف حجمها، كنت أظنّ أني أسلّيك بحكاياتي المجنونة، كنت أعدك بأنني سأسافر إلى بلاد بعيدة يعيش سكانها بسعادة وأمان وينامون على أحلام ويستيقظون على إنجازات، كنت أفبرك القصص والحكايات وأنا أجمّع ما راكمته ذاكرتي من أخبار الناس التي أسمعها في الراديو، وأحلم وأشطح بعيدًا في أحلامي،.وفي الليل يا عواطف كنت أشغّل

الراديو لأستمع إلى الأغاني، إلى فيروز وأم كلثوم وعبد الحليم ونجاة الصغيرة، وأستمع إلى الموسيقى الأجنبية في برنامج كان عنوانه وحده يبهجني " الموسيقى صديقتي"، وأنتظر صوت المذيع عند انتصاف الليل ليقول" الليل والشعر موعدنا". كنت أحلم وأفبرك أحلامي حكايات أهذر بها على مسامعك وأنت تصمتين. لم أفهم صمتك كما يجب، اليوم وأنا أعيش مع كل هؤلاء الناس في وسط الخراب، حيث لم يعد في البلاد ما يجعلني وغيري نشعر بمعنى الزمن، وبأن هناك مستقبلًا، أسأل نفسي وأحاسبها أحيانًا لماذا حُرمتِ من عمرك يا عواطف؟ ولماذا اليوم هؤلاء الأطفال والشباب يحرمون من أعمارهم وأحلامهم؟ لا أعرف لماذا أحمّل نفسي مسؤولية تجاهك، والله كان همّي الكبير حينها أن أرعاكِ وأساندك حتى تصلي إلى شطّ أحلامك، لكنني لم أكن أمًّا يا عواطف، كنتُ صغيرة على الأمومة، فبيني وبينك لا يصنع فارق الجيل، ومع هذا لبسني دور الأمّ، لكنني لم أكن صاحبة قرار. اعذريني يا عواطف فجرحي كبير ومفتوح. لكنّ سرّي الذي سأبوح به إليك ستعرفينه غدًا، لأن الوقت تأخر ولديّ ترتيبات لا بد منها غدًا باكرًا، فأنا لم أخبرك أن شابًّا اسمه نور في ضيافتي، ليس ضيافتي بمعنى دقيق، بل في حمايتي، يعني أمانة عندي يا عواطف. من هو نور، وممّن أحميه؟ لو تدرين مَن نور. كيف ألخّص لك أكثر من خمسة وأربعين عامًا كي تعرفي من هو نور؟ والله صعب يا عواطف، لكن أريد أن أخبرك بأن البلاد منذ غادرتها تغيّرت كثيرًا، لا يعني أنها صارت أفضل، بل كنّا ننحدر يومًا بعد يوم إلى قاع مستنقع كبير لم ننتبه حتى أوشك على ابتلاعنا، عندها صرخنا جميعًا وأدركنا أي جحيم

ينتظرنا، كنتِ ضحيّة من ضحايا وحوش لا تشبع، لكن الضحايا صارت تزداد وتكبر ويدفع الجميع حصصهم منها حتى اشتعلت الدنيا، تصوّري بسبب خربشات تسلّى بها أطفال ومراهقون على جدار من مدن القهر أشعلت النار في الهشيم، وراحت النار تمتدّ حتى عمّت معظم البلاد، ومحلّ لم تصل إليه النيران وصل دخانها الأسود ونثرات من شراراتها، فعمّت الفوضى وراح السلاح يسطو على الفضاء وصار هو الحاكم والحكم. لا تسأليني من أين جاء السلاح فأنا لا أعرف، لكن ما أنا متأكّدة منه أنه صار بين أيدي المجانين والغافلين والحاقدين والعبثيين والمهرّبين واللصوص والمأجورين، لا، لا يا عواطف ليس الأمر هكذا بل أظن أن السلاح الذي صار متوفّرًا بكثرة ساعد أيضًا في صناعة اللصوص والمهرّبين وتجّار الدم والحاقدين، وكبّر خوف الآخرين المرتجفين كالأرانب المذعورة من مصيرهم ومصير أولادهم. أوووووف، تغيرت الناس يا عواطف حتى صرت أشكّ بنفسي وذاكرتي، أرى الوجوه التي أعرفها وعايشتها وعاشرتها لكنني أدخل بالارتياب وأفقد الثقة بنفسي وذاكرتي عندما أنتبه إلى ما صار عليه بعضها. هل تذكرين رشا؟ رشا لا غيرها، ابنة أبو وسيم جيراننا أول ما سكنّا في اللاذقية. التقيت بها منذ أربع سنوات، لم أعرفها في البداية مع أني أمضيت أيامًا ولياليَ أدرس معها سنة البكالوريا، أصرّت رشا أن تدعوني إلى بيتها، ولم أفهم إصرارها يومها حتى ذهبت وعاينت بأمّ عيني يا عواطف. رشا تعيش في بيت فخم في أرقى أحياء المدينة، بيت واسع يمكن أن تعيش فيه أربع عائلات من دون أن ينقصهم شيء، لديها خادمتان في البيت، وسيّارتها الخاصّة غير سيّارة

زوجها وسيّارة الخدمة، حدّثتني عن حياتها منذ أن تباعدنا ولم أعد أعرف عنها شيئًا، قالت إنها تزوّجت رياض وكان موظفًا في إحدى المؤسّسات، وأن ما أعجبها فيه طموحه وتفانيه في عمله، بعد أن أكملت حكايتها وتاريخهما العامر عرفت عن أي طموح تتكلّم، رياض الطامح لم يطل به الوقت حتى صار مديرًا إداريًّا، ثم مديرًا عامًّا، كانت تقول لي بفخر واعتزاز: يقبرني قديش تعب وكان الشغل آخذ كل وقته. صحيح الشغل آخذ كل وقته والنتيجة كم شركة ومعمل عند رشا ورياض؟ أخبرتني أن لولا شريكه ابن البلد، هكذا قالت لي يعني ليس من جماعتها، لما استطاع أن يشيل بأعباء الشغل لكنهما، والحمد لله متفاهمان، كما قالت، ولم تتأثر علاقتهما بوضع البلد فهما يعرفان أي مؤامرة تتعرّض لها، وأن الحكومة والجيش يتصدّيان لها بكل أمانة وشجاعة. عندما رجعت إلى البيت يومها رحت أحسب رواتبهما على مدى ثلاثين عامًا، اكتشفت حينها أن تأثير سعيد بي كبير، فأنا صرت أطرح الأسئلة وأبحث عن البراهين، يعني أشغّل عقلي، مثلما اكتشفتُ أن مجموع راتبين على مدى ثلاثين عامًا لا يكفي لشراء بيت حتى لو تمّ توفير نصفه، فلماذا تستخفّ رشا بعقلي؟ لم أطرح عليها أي سؤال لكنني شعرت بغثيان صار يكبر كلما تذكّرتها، وصرت أتهرّب من لقائها بالرغم من رسائلها الدائمة على الفيسبوك، آآخ يا عواطف، أنت لا تعرفين ما هو الفيسبوك، قبل أن تغادري كنتِ تسألينني دائمًا: زيزفون، ليش ما عندنا تلفون بالبيت؟ وأنا أعدك بأنه سيصبح لدينا تلفون، وحياتك يا حبيبتي كنت مقدّمة طلب لمؤسسة الهاتف، بس كان لازم ننتظر حتى يجيء دورنا، هكذا كان

الردّ الدائم، هناك أشخاص انتظروا عشرين سنة، ومن لم يكن لديه الوقت للانتظار كان يشتري خطًّا من أحدهم بسعر خيالي لا أملكه، أو يدفع الرشوة، وأنا ما كان بإمكاني أدفع رشوة، صار عندنا تلفون بعد خمس عشرة سنة وبكيت يومها كتير لأني ما قدرت فرّحك فيه، كنتِ رحتِ يا عواطف. بعدها تغيّرت أمور كثيرة، لو تعرفين كيف صارت حياتنا، وكيف صار الفيسبوك والواتس أب وشغلات كثيرة غيرها، مالئة حياتنا وشاغلتنا عن واقعنا الأسود؟ صار في شيء اسمه الهاتف الجوّال، يعني خليوي نحمله باليد وين ما رحنا، من حوالي عشرين سنة، يعني من سنة الألفين، لا تتفاجئي نحن في هذه اللحظة، وأنا أكتب لك، في سنة 2019، إي يا عواطف، 2019 وأنا ما زلت على قيد الحياة وليتني لم أكن. من ذلك الوقت دخل إلى بلادنا الهاتف الجوّال، لكن كان سعره خياليًّا، وراح كثير من الناس يطلبون قرضًا من البنوك أو يبيعون ما لديهم من أجل اقتناء الموبايل، والله أمر مؤسف، حتى ولاد الضيعة بعد كل فقرهم صاروا يشترون الموبايل.

حبيبة قلبي، يا ريت كنت أقدر أعطيك عمري، كنت غالية كتير وما عرفت حجم غلاوتك إلّا بعد ما فقدتك. صار لازم أغلق الدفتر وياريت يجيني نوم، الصبح ناطرني كتير أشياء.

12

كان مُنيّر أكثر حكمة مني، مُنيّر المتّهم بالبلادة لأنه لم يكمل تعليمه بالرغم من كلّ محاولات والديه، ولأنّه لم يرضَ أن يكون إلّا كما يرى نفسه في عينيه، فذهب إلى حيث يلاقي ذاته ويعقد صفقاته مع الحياة، صفقاته التي لم تخسر، فأنا طيلة معرفتي به لم أره يومًا حزينًا لأنه خسر، ولم أعهده إلّا لا مباليًا بأي شيء، وهذا ما كان يجعلني أنا وغيري نراه بعين الوهم ولم نعرف حقيقته، فاكتفينا بأنه شخص عبثي بلا طموح ويلزمه الكثير من الفطنة والذكاء. اكتفى من صفقات الديكة بأن يجني منها ما يجعل حياته تسير وفق ما يحتاج، ولم يطمع بأكثر من ذلك، مُنيّر كان لا يملك الغواية اللازمة لأن يجعلني أحرص عليه وأقلق من فقدانه، كم ظلمته وكم ظلمه كل الذين عرفوه، اليوم أراه أكبر منّا جميعًا، لم يكترث بنظرة الآخرين إليه ولم تعنِه بشيء، كان يريد حياته كما يشتهيها ولا شيء آخر.

وصلت إلى هذه القناعة متأخّرة بالرغم من محبّتي إياه، لكنه كان قد صار وجوده بديهيًّا في حياتنا حدّ أننا لم نعد نهتم لإعادة النظر فيه والتفكير في حياته وسلوكه وشخصيّته، حتى لم ألحظ تمادي السنين على جسده والتغير الذي طرأ عليه، كنت أظنّه لا يكبر، وكان وجوده يمنحني الطمأنينة وأتّكئ عليها، فهو بالقرب من أبي في غيابي ويمكنني الاعتماد على هذا الشعور، لكن عرضَه من أجل نور وتردّدي بداية بسبب عدم ثقتي الكافية بحكمته وما جرى بعد

ذلك واضطرني إلى الموافقة، جعلني أستقبل صورة أخرى عنه مع كثير من الدهشة.

لم أعطِ مْنيّر وعدًا بأن عرضه أقنعني وسأرتّب الأمر، شكرته وربتُّ على كتفه وقلت له سأفكّر في الأمر، لكن الوقت لم يطُل حتى كنت أرتّب الأمر معه، اتصل أولاد أخي برهوم وأخبروني بأنهم قادمون من أجل رؤية جدّهم، وسينامون ليلة الغد عندي لأن المطار قريب من البيت، وقالوا لي إنهم سيكونون قبل الغداء. أخبرت نور وأنا خجولة من وضعي، حاولتُ طمأنته إلى أنه في أمان عند مْنيْر كما عندي بالضبط، نظرت في عيني مْنيّر وهممتُ بالكلام فكان أسبق مني" لا توصّي حريص". دخل نور على والدي ودّعه شاكرًا إياه يزعم بأن شغله انتهى وسيعود إلى أهله، لم يرُق لوالدي أن الشاب سيغادرنا مساءً، قال له يا ابني شو معجّلك؟ بكرا الصبح بتروح، لكن نور أظهر فطنة وبديهة حاضرة، قال له يا جدّو انا كتير كنت مبسوط عندكم وبتمنّى أبقى لفترة أطول لكن عندي أشغال بالشام، وسفر الليل أريح وتعوّدت عليه، هي أربع ساعات وبكون بالبيت، بلحق نام وأرتاح وتابع شغلي بكرا. بس يا ابني الدنيا غير آمنة، قالوا لنا في كتير عصابات على الطريق، الله يوفّقك خلّيك ولا تسافر غير بالنهار. والله يا جدّو أتمنى، لكن مضطّر أسافر، على كلّ مو كتير متأخّر وقت سفري، يعني الساعة ستة المسا، بوصل عشرة بالليل، يخلّيلنا ياك وأنا كتير كنت سعيد عندكم.

غادر الاثنان وبقيت وحدي أداري قلقي عن والدي، كنت اتفقت مع مْنيّر على أن يخبرني كلّ يوم عدّة مرّات عن نور وما أحواله وهل

يريد أن يوصل خبرًا إلى والده، وفي المساء اختليت بنفسي خارج المنزل مبتعدة بعض الشيء عن غرفة والدي وأخبرت الأستاذ عابد عمّا حصل. قال لي إنه ليس قلقًا طالما نور بأمانتي ومتأكّد من أنني لن أسلّمه إلى مْنيّر لولا ثقتي به. كان الأستاذ حزينًا ومتألّمًا، قال لي إنه مسكون باليأس مما وصلنا إليه وأكثر ما يُحزنه انهيار سقوف الناس، سقف الوعي وسقف الضمير وسقف الأخلاق، وصارت أرواحهم تائهة تبحث عن ملاذ آمن، والأخطر أنهم لم يلاقوه إلّا في التديّن، حتى في الأوساط التي كانت تخفي موقفها من الثورة يا زيزفون خوفًا من البطش والملاحقة الأمنية، انزاحوا في غالبيتهم اليوم إلى الفضاء الإسلامي، لقد اشتغل الإخوان المسلمون بكل طاقاتهم، وبما نالوه من دعم، على أن يكسبوا تعاطف غالبية الناس العاديين، وسيطروا على الثورة وقادوها بالطريقة التي أرادوها، هذا الأمر انعكس عليّ في البيت، تخيّلي أن سميّة، أم نور، التي ربطتني بها علاقة حب خاصّة جدًّا، كان اعتقالي بتهمة الشيوعية من أكثر الأشياء التي جذبتها إليّ، سميّة اليوم تحجّبت وصارت مرهونة للطقوس والعبادات ودائمة التوتر والصّدام معي حول كل ما يحدث. صمت عابد، وحرت بمَ أردّ بعد الكلام الذي سمعته والزفرة الحارقة التي وصلتني حرارتها عبر الهاتف. هل أقول له إن الوضع هنا، بين أولئك الناس البسطاء ما يشكل صورة مقابلة بألوان أخرى؟ لا بدّ أنه يعرف وأن نقاشات مضمّخة بالحزن والخيبة كانت تدور بينه وبين سعيد. لا أعرف كيف أنهيت الحديث بأن أرجعته إلى نور وقلت له إنّني سأطمئنه عليه كل يوم، ورجعت إلى البيت.

في وحدتي، وعلى العتمة بسبب انقطاع التيار الكهربائي كالعادة، راح الماضي يتدفق مثل الشلال إلى وعيي، شعرت بعبثية الحياة، تجاوزت الستين عامًا بعام وأكثر قليلًا، وبدت حياتي مثل كومة غبار أو رماد تبعثرها نسمة خفيفة، بدت لي مثل حلم أو كابوس، مثل فيلم مربك غامض أحداثه متقطعة، إخراجه ركيك، أداؤه أكثر ركاكة، حياة غريبة وغربة قاسية، والأحداث تتسارع وتنزلق حياتي في متاهات موحشة وأصحو فجأة بعد عمر طويل لأرى أنني لم أقبض إلّا على الوهم. ستون عامًا يا زيزفون وأنت تعيشين يومك متّكئة على حلم مضمر وكأن السنين ستنتظرك. ما بقي من العمر لا يكفي لأبدأ من جديد، ثم كيف أبدأ ومن أين؟ وأبي العاجز وسعيد الذي اكتشفتُ عشقه متأخرة، وما هو البرنامج الذي يجب أن أضعه لحياتي القادمة؟ أسئلة كثيرة واجهتني لاحقًا من دون أن يتبلور لديّ أي مخطّط، لكن ما كان يواسيني أنني صرت بالفعل زيزفون وأن جهيدة صارت في الأرشيف بقرار رسمي.

عندما أخبرت سعيد بأنني سأستخلص جواز سفر ضحك كثيرًا، أغاظني ضحكه وتظاهرت بأنني عاتبة بشدة، وأنا كنت بالفعل عاتبة، لكنه أمسكني بيديه الاثنتين وشدّني إليه، قال لي لا تزعلي أنا أضحك من الطفولة التي ما زالت مختبئة في داخلك. عن أي طفولة تتحدّث يا سعيد؟ هل الحلم بالسفر طفولة؟ لا، من حقّك وحقّ أي إنسان أن يحلم كما يحلو له، وفي أي عمر كان، لكن أضحك من أنك أتيت متأخّرة على هذا الميدان، لقد فاتك القطار بالفعل. القطار؟ يعني أنا كبرت؟ لا، ليس هذا ما أقصد، بل قطار السفر الحقيقي، إلى أين ستذهبين وكل السبل انغلقت في

وجه السوريين؟

شوفي كم مات من ناس وهم هاربون، هل هناك أقسى من أن يفرّ الإنسان من الموت المحقّق إلى موت أكثر تحقّقًا؟ طرق الهجرة صارت من الماضي يا زيزفون، لقد أغلقت الكثير من الدول حدودها في وجه السوريين، وصار المهاجرون أكثر ورقة تستخدم في بازارات السياسة، تركيًا من جهة تلوّح بها في وجه الاتحاد الأوروبي، والأحزاب اليمينية تلوّح بها في وجه الحكومات، والخاسر الوحيد هو الشعب السوري. ثم ما الذي يجعلك تفكّرين بالسفر؟ أنت تعيشين في مناطق محميّة من القصف والبراميل والسواطير، أنت في منجاة من النيران. النيران؟ أنا لا أهرب من النيران، وحتى لو كانت الحياة هنا صارت مستحيلة مثلما أنت تشاهد أيضًا، الفقر والحاجة ولا كهرباء ولا مياه وكل شيء صار غاليًا، لكن السفر هو حلمي الذي أجّلته منذ أن كنت طفلة. يعني والله يا سعيد لولا عجز والدي، ووجودك أنت بحياتي ماكنت بقيت لليوم، أمّي راحت، عواطف راحت، برهوم سافر، من بقي غير شعبان، وهو وصمة العار بجبيني؟ كنت متل وردة بمسرحية المحطّة عم أنتظر القطار اللي رسمته ببالي وبقيت أنتظره لليوم، صوته ببالي يا سعيد، هادا حلمي من لمّا كنت صغيرة وكل شي بعّدتني الأيام عنّه بعدو ببالي. يعني مصرّة تسافري وتتركيني؟ أنت يا سعيد أجمل شيء في حياتي، أينما ذهبت مكانك محفوظ في قلبي، يمكن سفري اليوم وابتعادي وأنا محتفظة بك في قلبي بكل غنى السنوات الماضية ودفء السنوات الأخيرة، هو الضمان الأكيد لديمومة حبّنا، أنا ما بتحمل شوف السنوات عم تتمادى

على أرواحنا وأجسادنا وتتركنا بأقسى حالات ضعفنا بوجه بعضنا البعض، أنا بدّي إياك بأبهى صورتك وألقك، هيك بسافر وذاكرتي محتفظة بكل شيء جميل جمعنا، ما بحتمل ذاكرة موجعة عنك، ولا بحب تشوفني كبيرة وهرمة. كنّا نتحدّث وكأن بطاقة الطيارة صارت معي وأن سفري في الصباح، ولم أكن قد استخلصت جواز السفر بعد.

لكن الوجع استعمركِ قبل أن تغادري يا زيزفون، وجع الخسران، الفقدان، الخيبة، موت الأمل بالغد، وجع أنك تشوفي حياتك الماضية مثل لو أنها ما كانت، أو كل شيء آمنتِ به واعتبرتِه حقيقة صار زبدًا أمام عينيكِ، وكأن ماتت الأصالة وما بقي شي صامد، لو كنتِ سافرتِ من زمان قبل ما تراكمي كل هذه الحمولة من القهر والوجع ورحتِ تبني لكِ حياة أخرى هناك في مدن الأحلام، ما كان أجدى لك؟ ما كان انبنى بداخلك مفهوم تاني للوطن؟ شو بيعني لك الوطن بعد اليوم؟ حتى المدن التانية والمناطق البعيدة بسورية ما عرفتيها وهي راحت وصار حلم أنك تزوريها مستحيل، شو بتعرفي عن الرقة والحسكة ودير الزور؟ شو بتعرفي عن حلب وإدلب غير المشوار الوحيد من عشرين سنة مع مجموعة من الشغل، حتى الطريق ما كتير باقي بذاكرتك، الوحيد الباقي بذاكرتك هو طعم الشعيبيات بأريحا.

شلّال الماضي صار يهدر في داخلي، تداخلت الصور وهجمت عليّ مثل جيش مدجّج بأسلحة لا أراها لكنها تفتك بروحي، منذ عام وأكثر قليلًا تركت الشغل، بلغت سن التقاعد، غادرته بأكثر الصور

المؤلمة، حزنت عندما مررت من أمام مبنى المديرية، لم أنتبه إليه حتى تجاوزته فالتفتُّ إلى الوراء ثم أشحت بوجهي عنه ومشيت مثل هارب من ملاحقة، كنت أهرب من ذاكرة محشوّة بتحولات السنين الأخيرة. أبو عبده، الزميل الذي كنت أعزّه وأحترمه وهو كان يبادلني الشعور نفسه ويحكي لي عن بلدته الحفّة وعن أرضه القريبة منها والتفاح والعنّاب الذي زرعه فيها، وكان يحمل لي من كل موسم ضيافة منها، أبو عبده فجأة اختفى، صار جوّاله مغلقًا، لم أسأل أحدًا من رفاقه عنه وأعطاني جملة مفيدة، كلّهم كانوا يواربون حتى عرفت أنه التحق بالفصائل المقاتلة بعد أحداث الحفة وحَرْق بستانه الصغير وبيته الذي سُرق، خالد المستخدم الظريف الذي كان دائمًا بحاجة لتذكيره كيف تحضّر القهوة حتى لا يتحوّل فنجان القهوة الذي يقدّمه إلى عقوبة، صار يبالغ في إظهار موالاته أمامي، وأنا أضطّر إلى لفت نظره بطريقة مواربة بأنه انتقى الشخص الخطأ، خوفًا من تقاريره الأمنية التي ازداد نشاطه بها في الفترة الأخيرة...

خالد كان يسكن في أكثر المناطق بؤسًا في المدينة، في الرمل الجنوبي، كان غارقًا في بؤسه وفقره ولا يعرف أكثر من أن الولاء للسلطان هو من أركان العبادة، ومع ذلك كان يعتبرني مسبقًا من الموالين، بل أكثر من ذلك، كان مؤمنًا بأن إظهار الموالاة لي ضرورة باعتباري من طائفة الحاكم.

غادة التي استهجنتْ باكرًا أن يتعاطف أحد مع الناس الذين انطلقوا في المظاهرات، بل يجب على كل فرد من الطائفة العمل

على ترسيخ فكرة المؤامرة، كادت أن تضرب لؤي عندما دار نقاش في غرفتنا حول الفساد، كان يعدّد مظاهر الفساد وكيف نتضرّر منه جميعًا، لكن نزيه ثار وكاد يتوقّف تنفسه من وراء انفعاله، خبط على الطاولة وقال له وعيناه تقدحان شررًا: أنا معيّش عشرة أنفس من ورا الفساد، من وين بدي طعميهم وأكسيهم وغطّيهم وداويهم وعلّمهم إذا ما اشتغلت هيك؟

نجوى وحسنيّة وفاطمة تحجّبن بعد اندلاع المظاهرات بشهور قليلة، وبدأن ينعزلن بالتدريج، حتى صرن يقطعن أحاديثهن فيما لو دخل عليهنّ أحد فجأة. يومها صارت الصور تطرق رأسي بقوة وأنا أغذّ السير أريد أن أهرب من أمام جحيم الذاكرة ذاك. لم أشعر بالحنين بالرغم من العمر الذي أمضيته في ذلك المبنى، والطرقات التي أكلت قدميّ ذاهبة إليه وراجعة منه، لا، لم أشعر بالحنين بل بمشاعر مختلطة بين قرف وخيبة وخوف جعلتني أبتعد وأنا أوشك أن أحلف الأيمان بألّا أمرّ من هذا الطريق بعد ذلك اليوم، لكنني نسيت عزمي على اليمين ومررت به في لحظة سهو وشرود.

جاءني مُنيّر عند الظهر، قال لي إن نور بخير لكنه مرتبك وقلق لكن لا تخبري والده بذلك، لقد وشوشني لأن أولاد برهوم وأمّهم كانوا قد وصلوا ويملؤون البيت ضجيجًا، وكانت بدريّة تدخل المطبخ كل حين تعرض عليّ أن تساعدني في تحضير الطعام، وأنا أحلف عليها الأيمان وأحاول إقناعها بأنني لا أجيد العمل المشترك في المطبخ، وأن الطبخ لا يتعبني، في الحقيقة كنت أريد أن أخبّئ حصّة نور ومُنيّر من الطعام ولا أعرف كيف بإمكاني إخفاؤها عن

عيني بدريّة. رجوتُها أن تبقى مع أبي لتسلّيه، لكنها قالت إنّ مْنيّر معه ويسلّيه أكثر منها، لا يا بدريّة بالعكس، هو مشتاق لك ومشتاق للأولاد ويتمنى أن تخبريه عنكم وعن برهوم، برهوم صار له زمان ما جاء لعنده. قالت لي إن برهوم أصبح لا يحب العودة إلى البلد، ليس لأنه يتمنّى أن يبقى في تلك البلاد، فهو غير مرتاح فيها ويكره الغربة، لكن نفسيّته تغيّرت كتير يا زيزفون، ما عاد برهوم اللي بتعرفيه، دائمًا صامت وساكت وفي حزن بعيونه، يمكن ما حدا بيقدر يعرف أنه حزن غيري أنا.

حزنت على برهوم، لكن لم أعد أملك قدرة على التخفيف عن أحد ولا حتى عن نفسي، من عاش في هذه البلاد في كل تقلّباتها وانحدارها، خاصّة في السنوات الأخيرة، لم يعد لديه مكان لأفراح مهما كانت صغيرة، ولم يعد لديه قدرة على حمل أي عبء آخر، فهو يرزح تحت عبء حياة هي الأثقل في العالم مثلما أظنّ.

استطعت أن أعطي الطعام إلى مْنيّر، لكنه قال لي إنه لن يأتي مساء إلّا إذا كان هناك ضرورة، إذا ما رجعت بيكون كل شي تمام لا تخافي، بكرا الصبح بجي لعندك بعد ما يسافر ولاد أخوك وعيلته. وجاءني مثلما وعد، كان أبي حزينًا وكأنّه يودّع أولاد برهوم ولن يستطيع رؤيتهم مرة أخرى، كان قد بكى وهو يقبّلهم ويدعو لهم بصوته الراجف، كان يشعر أنه لن يرى برهوم وسوف يموت في غيابه.

كان نور يريد التواصل مع الجماعة الذين يرتّبون وثائق السفر وليس لديه وسيلة للتواصل معهم بعد أن أحرق بطاقته، قال لي

مْنيّر إنه بحاجة ماسّة للاتصال وأنا ما عندي موبايل يا زيزفون، شو فينا نعمل؟ اتفقنا على أن يأتي بنور مساء وأوافيهم خارج البيت حتى لا يعرف أبي....

جاء نور وبعد اتصاله عرفت أن أوراقه جاهزة وليس عليه إلّا أن يتدبّر أمر موعد معهم ليستلم ويدفع، إي يا خالة بدّي أدفع، المهم أني أقدر أطلع، بس هون المشكلة، كيف بقدر أطلع واسمي صار معمّم، منيح أن جواز السفر عملوا لي إياه قبل البرقيّة يمكن بأسبوع. صار معي باسبور لكن الطرقات تسكّرت بوجهي، معقول أبقى طول عمري مخبّأ متل الخلد؟ لإيمتى بقدر أبقى عايش بالعتمة متل الحرامي ما بقدر أظهر إلّا بالليل، ومع هاد مهدّد بكل لحظة أني أختفي عن وجه الأرض؟ والله تعبت. كان نور يحكي بصوت مخنوق، يعاند البكاء فيخرج صوته متقطّعًا كأن حبال حنجرته مذبوحة، وكان مْنيّر ينظر إليه بعينين تكادان تتحولان إلى حضن واسع يحمله، كان فيهما بريق حائر بين الدمع واللهفة والحنان، حتى بدا لي لحظتها لا يشبه أحدًا غير أبٍ يحمل في عينيه وعدًا بأن يحمي ابنه لو كلّفه حياته..

منذ أمس يفاجئني مْنيّر بصور تتناسل من بعضها حتى أكاد لا أعرفه. أمام صمتنا الذي وقع علينا مثل غيمة ثقيلة قال مْنيّر خلّونا هلق نفكّر كيف بدنا نستلم الوراق بعدين بنحكي بالأمور التانية. الأمور الثانية؟ في الوقت الذي أشعر فيه بأن ذهني صار مغلقًا والحيرة تأخذني في متاهات لا جدوى منها، يتكشّف أمامي مْنيّر بصوت يرميني من جديد في حالة من الذهول، صار لديه وعد

بشكل دائم، وعندما ينطق بوعده أو يقول كلمته، لا تبدو عليه مظاهر الجدّية أو إعطاء الأمر أهميّة كبرى، هو يقول بكل بساطة بكرا بنشوف، مثل تلك الوعود التي يتم بموجبها رمي المسؤولية على المصادفات أو التسويف، بكرا هذه تتكرّر باستمرار على ألسنة الناس، تخبّئ في ثناياها التواطؤ مع الزمن والاحتمالات حتى إذا جاء الغد ومعه الفشل، أو رمي الوعود إلى البحر، فليس هناك من يلوم صاحب الوعد هذا، وهكذا مُنيّر قال: بكرا، أو بعدين.

احتمالات الواقع أكبر من أن يتصوّرها خيالنا القاصر فكيف بواقع كالذي كنا غارقين فيه؟ واقع أشبه ما يكون باللجّة الدافئة تمنحنا بدفئها شعورًا بالاسترخاء ونحن في الواقع نغوص بالتدريج إلى قاع مظلم وظالم في الوقت نفسه، لقد كانت حياتنا مفتوحة دائمًا على احتمالات نتائجها ثقيلة.

*

من الدفتر

عواطف مرة أخرى

"والله يا عواطف صعب علي أحكي لك ماذا فعلت لأبرّد ناري وأنتقم لك بعد الذي حصل وجعل الموت يخطفك بتلك الطريقة الفاجعة، يا حرقة قلبي عليك، أتمنى أن ترتاح روحك في مستقرّها، واعلمي أنني حاولت بما أوتيت من مقدرة، حاولت تمريغ وجه مدير المدرسة النذل بالوحل والقاذورات. لا تسأليني عن التفاصيل فلن أذكرها لأنني قرّرت أن أنساها، حينها كنت أملك من الشجاعة ما يجعلني أمارسها حدّ التهوّر من دون أي حساب طالما هدفي

كبير ونبيل وعادل في نظر نفسي، أرّقني أمر انتقامي لك ليالِيَ طويلة، كانت النار تأكلني، أكبح حريقها في نفسي كي تسير الأمور في البيت، كنت أخاف من انهيارات أخرى وفقدان آخر، وكانت البلاد تمشي نحو الهاوية، لا تظنّي أنني كنت فاهمة وواعية لكل ما يحصل، لكن موتك ذاك أيقظ في داخلي شعورًا يشبه إحساس القطط بالخطر، بأن شيئًا غريبًا يحصل فيختل ميزان الكون. نعم يا عواطف كانت الموازين كلها تختلّ كلّما مشى بنا العمر في هذه البلاد التي غادرتِها، ولو أنك عدتِ إليها اليوم لأصبتِ بالجنون، صارت حياتنا انتظارًا للموت، أبي زادت الشيخوخة في عجزه، أكيد أنت تذكرين كيف صار بعد الحادث مقعدًا ولم يعد قادرًا على خدمة نفسه ولا عمل أي شيء، هل تذكرين أم أنتم في العالم الآخر تلقون بحمولتكم من الذاكرة عن الحياة الدنيا كلّها؟ ليت الوضع يكون على هذه الشاكلة لأن أي ذاكرة عن هذا العالم الذي نعيش فيه لا ترقى لأن تكون بمستوى كوننا بشرًا، والله يا عواطف لست متشائمة إنما الحقيقة حولي هي من تقول، إن الشيخوخة التي زحفت باكرًا إلى روحه تمكنت في السنوات الأخيرة من جسده أيضًا، لم يبقَ لديه شيء لم يطَلْه العجز والهرم غير عقله وذاكرته لذلك هو يتعذّب كثيرًا.

أحاول أن أتذكّر يا عواطف كيف مشت الأمور بالعشرين سنة الأخيرة، والله أشعر أن هناك فجوة في ذاكرتي، فجأة انتبهت إلى أن اللاذقية ما عادت كما كانت، تغيّرت كتير يا عواطف، الكورنيش صار محلّه مرفأ، بتعرفي؟ دخلت المرفأ مرّة مع وحدة من زميلاتي بالشغل كنا سمعنا أنّه في سوق جرة بالمرفأ ومسموح للناس يفوتوا

عليها ويشتروا منها بس بالدولار، وشوفي الناس كيف كانوا متل الطايشين بدهم يشتروا دخان ومشروب ومعلبات وشوكولاتة وأدوات كهربائية، قالوا إن في بسوريا كتير أسواق حرّة بالمطارات والموانئ والمعابر البريّة، وبالأساس ممنوع عالمقيمين يفوتوا عليها ويشتروا لأنها للمسافرين بس وبالدولار، بس كان كل الناس مسموح لهم يفوتوا عليها ويشتروا منها، وكانت كلها تابعة لنفس الشخص، هو قريب الرئيس يا عواطف، أنت شو بدّك من كل هالحكي؟ المهم أن هالشخص صار أغنى واحد بالبلد وكل الناس بتحكي بسيرته. والبيوت القديمة التي كنّا ننبهر بجمالها هدمت غالبيتها، صار فيها أبنية كبيرة عالية كتير، وفيها مقاهي ومطاعم ومحلات تجارية فخمة وماركات مشهورة، وصار كل شي متوفّر بالأسواق، بس بدّي خبّرك أنو السوق المقبي وسوق البالة محل ما كنت روح وفتش على تياب إلي وإلك بعدهم موجودين، وصار في كتير محلات للبالة غيرهم، والبلد فيها زحمة كتير وسيارات فوق الوصف، صار الناس ياخدوا قروض حتى يشتروا سيارات، ومنهم مين كان يبيع بيته حتى يحقّق هالحلم بعد ما كان مستحيل. لكن يا حبيبة عمري لم نكن مبسوطين، كان هناك شيء تسلّل إلى حياتنا وغزا نفوسنا باليأس والقهر، الوجوه تغيّرت، الناس تغيّروا، لباسهم تغيّر، حياتهم علاقاتهم ببعضهم، صار في كذب كتير واحتيال كتير وفساد كتير، وأكثر شيء كان يخوّفني وأحكي عنه أنا وسعيد هو أن شيئًا تسلّل إلى حياة الناس مثل اللصّ، بالعتمة يا عواطف، وصاروا يخافوا من بعضهم البعض، وصار لمّا ينحكى عن أي شخص لازم يدلّوا على أنه من الجماعة الفلانية. مدراء المديريات التابعة

لمؤسسات ووزارات الدولة كانوا موزّعين على الطوائف، ولك حتى رؤساء الفروع الأمنية والمخابرات بيتعينوا وفق هالخطة، لا تسأليني كيف لأني ما بعرف بس هيك بسمع. وهذا أمر مطلوب من فوق متل ما بيقول الناس في جلساتهم الخاصة، كانوا يقولوا القيادة ارتأت هيك أو بتريد هيك. وفي الوقت نفسه صار خوف الناس يزداد من المخابرات، يخافوا حتى من أحلامهم لما يكونوا نايمين، بتقدري تتخيّلي أنو مهند ابن جيرانّا اللي كان ينام على قتلة ويفيق على قتلة من أبوه من كتر مشاكله وكسله بالمدرسة، صارت الحارة تخاف منه بعد ما تطوع بالمخابرات؟ تخيلي مهند صار لازم نُظهر له الاحترام والتبجيل. المهم يا عواطف، بالنسبة إلي مشت حياتي بهذه الصورة الرتيبة، أكيد أنت تسألين نفسك يا ترى زيزفون تزوّجت؟ أنا ما تزوّجت، بتعرفي ليش؟ ما كنت أقدر أرتبط برجل لا يحرّك مشاعري، كنت أبحث عن علاقة أمتلئ بها، وكل علاقة كانت تنتهي بخيبة أكبر من التي قبلها، كل التجارب التي خضتها كانت تظهر لي جانبًا لا أحبّه في الرجال، واكتشفت أني أكره الرجل البخيل وبعضهم كانوا بخلاء حدّ استغلالي حتى بهذه الناحية".

أظن أن الأموات لا يفكّرون مثلنا نحن الأحياء، لا، لا أقصد أنهم لا يفكرون بالمطلق لكنهم متحرّرون من العواطف، وليسوا مرتبطين بالزمن وليسوا ديّانين على أحد، لذلك أستطيع أن أحكي بلا خجل أمامك يا عواطف، فلن تحاكميني في ميزان القيم الذي أعتبره غير عادل ولا نزيه. لا تهزئي مني لأنني أروي لك حكايتي بالفصحى، فأنا خجولة وأختبئ خلف جملي ومفرداتي حتى لو كنت

تسمعينني بلا ذلك الميزان، كان ذلك في يوم ربيعي منذ حوالي تسعة أعوام، جئت إليه مسكونة بنشوة غريبة، مع شهوة للحياة، مسكونة بمشاعر أكبر من قدرتي على فهمها وحتى مقاومتها، أبهجتني، جعلتني أخلع رداء الزمن الثقيل عن روحي ويعود إليّ شبابي وجموحي الذي اكتشفته للمرة الأولى عندما حرقت المزار، لم يكن لأي شيء أن يقف في طريقي يومها، كنت مثل السكرانة بما أرى وأشاهد وأسمع، الناس صحت يا عواطف، شعرتْ في لحظة بحجم خساراتها وعمق جراحها وأي مستنقع تعيش فيه، لقد ثاروا، نعم يا عواطف ثاروا ونزلوا إلى الشوارع محطّمين قلاع الخوف المحبوسين فيها، كنت أريد أن أبتهج بعودة الحياة وبأن القدر ينتقم لك ولأبي عن طريق هؤلاء الشباب الثائرين، أن أعانقها في كيان آخر لأشعر بوجودي، لم تغيبي عن بالي يومها، كنت حاضرة بكامل بهائك وعذوبتك وجسدك مغطّى بالدم، كنتِ تلوّحين لي من سمائك وترفعين إشارة النصر، لقد رأيت وجهك مشرقًا بالرغم من نزيف جرحك، وكنتُ كلما نظرت إلى أبي المُقعد يحمل الزمنَ صخرة فوق كتفيه حتى تقوس ظهره، شعرت أن العدالة بدأت تصحو من غفلتها، وأن الحق يمسك بالميزان، كان أبي مذهولًا، لكنه كان يخفي خوفًا تحت ملامح وجهه التي ارتبكت ولم يعد قادرًا على إخفائها، قال لي يومها: والله هالشعب فقير ومعتّر وتحمّل كتير، بس الله يجيرنا من القادم. لم أفهم لماذا كان دائمًا يستبطن هذا الشعور، الخوف من القادم ومن التغيير، كأن وضعيته المقعدة على مدى تلك السنوات الطويلة بَصمَتْ على روحه واستكان لها فصار الخوف من أي تغيير يعادل خوفه

من السقوط فيما لو حاول النهوض بمفرده. أبي كان صاحب حقّ مهما فعلنا فلن نستطيع إرجاع حقه.

لم أستطع الانتظار حتى ترتفع الشمس قليلًا وتدفئ الجو، كانت صباحات الضيعة في آذار ما زالت باردة، تلفّحت بشال صوفي كنت اشتريته من البالة كمعظم أشيائي ولباسي، ولبست السترة الصوفية فوق بنطال الجينز، أغلقت خلفي الباب بعد أن قلت لوالدي طالعة أتمشى في البريّة. وانطلقت مثل السهم يا عواطف، كنت أمشي على نبض قلبي الذي لم يعد يدقّ وإنما يخفق، شعرت أنني أحبّ كل ما حولي، أحبّ الحياة في ذلك الصباح النقي، أصوات الحشرات، العشب، أغصان الشجر، العصافير، كل شيء، حتى الندى الذي كان يتلألأ على العشب والأزهار التي تفتّحت في الأراضي، من الدوغنينة والنرجس والسوسن والأزهار الصفراء والبيضاء والبنفسجية التي كانت تروّس النباتات الشوكية، حتى أقراص الهندباء والخبيزة والقطيفة ولباس القطة، كلها كان الندى يتراقص عليها في الصباح الباكر، وكنت أسمع موسيقى تنطلق في الجو أكاد أرقص معها. كانت خطواتي تتسابق وهي تنهب الدرب بين الأحراج إلى غرفة سعيد، يرنّ في خلدي صوت عبد الحليم وهو يغني أيوا يا دنيا أيوا كده، عمري ما شفتك حلوة كدا. أنا لا أبالغ يا عواطف، كنت مجنونة بالجمال حينها، في صدري طاقة حبّ تفوق الكون، أكاد أنفجر نشوة تزداد كلما اقتربت من بيت سعيد. قبل أن أقرع الباب كان لهاثي قد قرع سمعه، فتح الباب، يااااه، ما زلت أرتجف وأنا أستعيد المشهد الذي مضى عليه أكثر من تسع سنوات، خرسنا نحن الإثنين، غارت الكلمات في صدرينا،

شُلَّ لسانانا، وحدها الأحضان كانت بليغة التعبير، حضنني وحضنته، مرّغت وجهي بصدره وتمرّغ أنفه في شعري، رحنا نهصر بعضنا بعضًا، نضحك ونبكي. نعم، كنا نضحك ونبكي، لهاثنا يقرع الجدران وتردّد غرفته صداها، أبعدني قليلًا عنه وما زال ممسكًا بي، ابتسم والدموع تنهمر غزيرة من عينيه، أوّل مرة أراه يبكي، بقي ينظر في عينيّ وكنت أبكي وشفتاي ترتجفان، تحوّلت الابتسامات إلى ضحك وبكاء بالتناوب، ثم شدّني إليه مرة أخرى وهو يقول: أخيرًا. لم أفهم تلك الـ أخيرًا هل تعني أننا التقينا أم إن الشعب ثار، لكن ما الفرق؟ نحن ولدنا من حضن الآلام ومخاض الثورة، ولد حبّنا الذي كان ينمو ويكبر في رحم الآلام، مع القهر والذل والخسران والقمع وكل ما لا يخطر على بال.

كنّا سعيد وأنا نمثّل الاعتداء الفاجر على إنسانيتنا، وكنّا نحلم بتلك اللحظة، لحظة الحقيقة، لحظة الانفجار التي ستقلب الطاولة ونعيد ترتيبها مع غيرنا من المقهورين. سحبني إلى داخل الغرفة ودفع الباب بقدمه ثم....

ماذا أحكي لك يا عواطف؟ أول مرّة أشعر أن الحياة تكثفت حتى احتوتها قبضتي، لقد لامستها كالحقيقة، شعرت بطراوتها، تذوقت حلاوتها، دغدغني دفئها، شممت رائحتها، سمعت ألحانها، فهمت مفرداتها، كل ذلك كان في لحظة حبّ تأخر عنّي بعمر، لكنّه تفجّر مع تلك الهزّة التي أطلقت الحياة من عقالها، مع صحوة البشر التي رجّت أركان البلاد ورجّت أركان الاستبداد. لا تضحكي عليّ يا عواطف، لو كنتِ بيننا في تلك اللحظة كنت ستعيشينها أكثر

مني فأنت الأصغر بيننا، يعني كنتِ بعمر الشباب أما أنا فكنت تجاوزت الخمسين، لو كنت بيننا وأنت على أبواب الأربعين لكان لك أن تفرحي وترقصي وتنزلي إلى الشوارع مع النازلين، ولكان بحّ صوتك وأنت تنادين على الحرّية، نعم، الحرية التي صادرها منك شعبان، وحرمك من السلام والطمأنينة في أحلى سنوات عمرك.

في ذلك اليوم جرّبت الحبّ للمرة الأولى في حياتي، كان حبًّا في وضح النهار، مع الصباح ومع يوم جديد، كان الوقت لنا والعالم لنا والبهجة لنا ولذة الاكتشاف لنا، تحوّل الاحتضان إلى عناق ثم إلى قبلة لم تمهلنا حتى اشتعلت وحرقتنا بلهيبها، تصوّري أختك زيزفون تذوب في قبلة!!! إي، زيزفون يا عواطف ففي ذلك اليوم الحقيقي كانت زيزفون هي الحقيقة، صحيح أن سعيد كان يناديني زيزفون، لكن الخطاب شيء والحبّ شيء آخر، عندما يغيب الإنسان مع نشوة الحبّ يتنحّى العقل جانبًا، بل ينام وتنام الذاكرة معه بكل حمولتها الشرسة، يبقى العمق المخبّأ في نقطة لا تكشف نفسها بسهولة هو من يدير الموقف ويدير الكيان كله، كان يناديني بين تأوّه وآخر: زيزفون، لم نكن ننادي بعضنا بعضًا بل كنّا نبارك لبعضنا بعضًا متعتنا، حقيقتنا المغيّبة بعد أن حرّرناها واكتشفناها. جرّدني من ثيابي وجرّدته من ثيابه، لم يكن واحدنا ينتظر من الآخر أن يبادر، كنّا نتهجّى المعنى ونتشارك المتعة، مرّر راحته على جسدي، كان يلامسه بخشوع وعبادة، راحت يده تفتّح براعمي التي اكتشفت أنها ما زالت تحتفظ بخضرة الحياة، داعب جسدي كلّه، وكنت أقتحم تلك المغامرة بلهفة أنثى كنتُ خبّأتها في داخلي من أجل هذا المَوعد، نسينا كل معرفتنا السابقة

ببعضنا بعضًا، نسينا أننا كنّا صديقين طيلة السنين السابقة، وأن الحواجز بيننا كانت تنهدم يومًا بعد يوم، لم يبقَ إلّا العتبات التي ستدخلنا إلى نعيم الحياة ولو بعد أن ولّى الشباب، فاجتزنا العتبة معًا واكتشفنا أن الحب وحده يهزم العمر مهما بالغ الجسد في خياناته..

كنت تجاوزت الخمسين وسعيد تجاوز الستين، وكانت الليلة التي مزّقت ذلك الغشاء اللعين بعد كل خيباتي السابقة وتواطؤاتي التي كانت تحاول أن تقنعني بأنني يمكن أن أعيش مع نسخ مغشوشة من الرجال، شعرت بالانتصار عندما نزفت على فراش سعيد، ليس لأنني عذراء، أبدًا، بل لأنني لويت عنق القيد الذي يعصر أرواح النساء في هذه البلاد، ها أنا أصنع انتصاري مع الرجل الذي أحب ونمزّق غشاء القهر والذلّ بعيدًا عن مؤسساتهم العفنة، لسنا زوجين، ولم يبارك الشيخ أديب أو الشيخ عبّاس زواجنا، بل باركته الحقيقة المدفونة تحت مئات السنين من الرواسب وقد نبشناها. صحيح أنني ارتبكت قليلًا بعد أن هدأت عاصفة الحبّ وهمد جسدانا وانتبهنا إلى عرينا، وقتها قال لي سعيد وهو يداعب وجهي براحته: ألا يقولون خذوا الحكمة من أفواه المجانين؟ وأنا المجنون أقول لك يا زيزفون إن ثمرة الزيتون تمتلئ بالزيت في الخريف، والكروم تسكر عناقيدها بنبيذها في الخريف، تنضج الحياة وتكتمل في الخريف ونحن اليوم في سن يطلقون عليه اسم خريف العمر، يعني نحن في امتلائنا اليوم مكتملين بالحياة، وأنت الأجمل عندي في امتلائك هذا وقد انتظرته بفارغ الصبر والحكمة. منذ ذلك اليوم شعرت بأنني زيزفون وأن الحياة عزيزة وكل خيبات

الماضي وقهره وذلّه وخساراته صارت من الماضي، يكفي أن حبّنا ولد على وقع الحناجر المنادية على الحرية.

لكن سعيد مات يا عواطف، مات من عدة أيام، ربما تلتقين به في عالمك الآخر إذا صحّ أن هناك عالمًا لا يعيش فيه غير الأرواح، فإن كان للأرواح ذاكرة ابحثي عنه وقولي له إنني اشتقت إليه، وإنني ما زلت أنتظر المعجزة كما كان بالضبط في شهوره الأخيرة، المعجزة التي تعيد إلى الناس قليلًا من إدراكهم لإنسانيتهم بعدما حرقت الحرب أرواحهم وآمالهم ومستقبل أولادهم وأمانهم ورغيفهم ووطنهم، وما زال وحوشها يتصارعون، لم تغير الحرب شيئًا، من طبائع الاستبداد المتحكم بمفاصلنا كلها، في كل بقاع بلادنا الممزقة الواقعة تحت الاحتلال. هل ستقع المعجزة؟ لم أعد أستطيع فهم ما يحدث لقد خسرت من يمنحني الحب ومن يحرّض أسئلتي.

13

كم هو مؤلم أن تتقطّع أوصال البلاد، وتتقطّع سبل التقاء حتى الأب بابنه ولا تستطيع الأم احتضان ابنها ووداعه متشبثة برائحة ثيابه. هكذا هي الأمور في واقعنا العصيّ على الوصف، كلّ الأسر منكوبة، كل العائلات لديها ما يفوق احتمالها من النكبات والفقد والانهيارات، وليس نور حالة استثنائية.

كان لا بدّ من تدبير أمر رحيله في الوقت الذي صار فيه الرحيل مقامرة مؤكّدة بالحياة، فلم تعد طرق التهريب متوفّرة بتلك السهولة قبل أربع سنوات، ولم يعد الوصول إلى أوروبا حلمًا محتمل التحقيق، ومع هذا لم يكن لدى نور خيار آخر، لقد أصرّ على الرحيل وترك النار تتّقد في صدر أمّه وأبيه وأخيه، وفي صدري أيضًا. إلى أين سيذهب؟ لم يخبرني ولم يتكلّم عن خطّته ولا مخطّطه، قال هو يريد فقط عبور الحدود إلى لبنان وهناك سيتدبّر أمر نفسه، هل كان لديه وعد من جهة ما بترتيب خروجه من لبنان؟ لا أعلم، لكن كانت العقبة الكبرى والمخاطرة الأكبر بالنسبة لنا في خروجه من البلاد، استغرق الأمر أيامًا حتى تمّ تأمينه، لقد وعد مُنيّر الذي كان مختفيًا خلف صورته العتيقة المتأصّلة في نفوسنا، قال لي إنه يمكنه أن يساعد، سوف يجرّب، لا يستطيع أن يعد بشكل قطعي لكنه سيجرّب. كيف يا مُنيّر؟ اتركي الأمر عليّ. كيف يعني أترك الأمر عليك؟ أنت شايف البلد وكيف صرنا محاصرين بمربعات فايتة ببعضها. يا زيزفون، والله أنا

شايف كل شي، وشايف كيف أن الناس العاديين البسطا معترين ولا إلهم كلمة، واصلة معهم الأمور لدرجة صاروا متل النايمين ولا حدا فارق معه مين راح ومين إجا، هؤلاء مساكين ومعترين، أما الباقيين لا تسألي، أنا عم شوف منهم كتير عند الأفكح وقت مصارعة الديوك. بعد هالعمر بقول لحالي الحمد لله أني اخترت حياتي بإيدي، متل ما بدّي، والله البريّة والحيايا والعقارب وكل شي بيدبّ وبيمشي ما عدا البني آدم، رفقته والعيشة معه أريح بكتير، صحيح أنا مجنون بمصارعة الديوك، بس والله ما بقدر أتخلّى عن هالكار، هنيك بشوف أشكال كتيرة من الناس، لو تعرفي من هالناس؟ غالبيتهم من الحراميّة والسرّاقين اللي اغتنوا بسبب الحرب، كوّموا مصاري من سرقة الناس والسلبطة على أرزاقهم، كلهم بلا أخلاق، بس أنا محكوم أني كون بينهم، شو بدّي أعمل إذا كانت سوسة الديوك عايشة بدمي؟ هم بيفكّروني معهم ومعجب فيهم كتير، ومعتبرين إني واحد منهم ما منّي خطر، بس الله وكيلك ما في شي بيجمعني معهم غير المصارعة، بالله يا زيزفون ما فيهم واحد عنده أخلاق.

طيب لوين بدك توصّلني يا مْنيّر؟

بدي قلّك أنو هالناس اللي بحكيلك عنهم قادرين يطلّعوا نور برّا البلد، إلهم علاقاتهم وهيك شغلهم، بيقبضوا وبيحلّوا مشاكل من هالنوع. هالناس ما بيهمّها مين صاحب المشكلة، انشالله يكون الزلمة برقبته عشرين قتيل ما بيهمّهم، المهمّ يقبضوا.

أنت واثق يا مْنيّر أنه ما يكون في منهم خطر على نور؟

إي واثق، احزري ليش؟ ليش؟ لأنه هم دينهم وربّهم المصاري بأي طريقة إجت، المهم يقبضوا.

عندما جاء نور ليودّعني، لاقيته قريبًا من البيت في أوّل المساء، شعرت أنّ قلبي يقتلع من صدري، وأن الكون يصغر ويضيق حتى الشعور بالموت. كنت خائفة، خائفة من كل شيء، خائفة على نور وخائفة من مستقبل مجهول ينتظره، لقد ولّى زمن الهجرة الواعدة، ما أشدّ إيلام هذا الواقع، واعدة؟ برغم القرابين التي قدّمت للموت من أرواح السوريين؟ مات كثيرون في دروب التيه والهروب، في البحار، في البراري، في الثلج والمطر والأعاصير، تحت سياط الشمس وحريق العطش. لكن كان في بال كل واحد منهم حلم بأنه سيصل إلى بلاد الرحمة والعيش الذي سرق منه في وطنه..

كلّهم كانوا يعرفون ما هي طرقات الموت ومع هذا راحوا، كانوا يلهثون خلف منارة بعيدة تومض في لياليهم السوداء بين قصف وقصف، كلهم رأوا بعيونهم المفتوحة على الرجاء كم غرقت أرواح، وكم لفظت الأمواج على الشطآن من جثث، كم قذفت بأطفال بعمر الورود وخفّتها على الرمال بلا رحمة، لكنهم كانوا عازمين وليس ما يثنيهم عن أحلامهم، أحلامهم القسرية التي لا بديل عنها. كيف سيذهب نور؟ إلى أي مجهول سيرمى؟ قلت له قول اليائس وأنا أداري دمعي: خالة نور، راجع نفسك للمرّة الأخيرة. أعرف أن ليس لديّ اقتراح لأقدّمه له كي يفكّر، أعرف أنني عاجزة عن فعل شيء أكثر من الرجاء الأبله هذا، لكنني خائفة وحزينة وأريد أن

أستبقيه، أريد أن أؤجّل الوداع. يا نور، يا حبيبي يمكن يكون في خيار ثانٍ. ما هو يا خالة؟ صمتُّ وراحت شفتاي ترتجفان، صمتُّ وأشحتُ بوجهي جانبًا حتى لا تبتلعني نظرته اليائسة.

خالة زيزفون، ماذا بقي لي في هذه البلاد؟ أنا لمّا وصلت لعمر بدأت فيه أفهم ماذا يعني الحلم وكيف يكبر الحلم وكيف الإنسان يفتح طرقات توصله إليه، بدأت الحرب وسرقت مني كل شيء، نحن جيل ما بقي لنا شيء للمستقبل، أليس من حقّنا أن نعيش؟ لم يعد يهم في أي أرض، المهم أن أصل إلى برّ أستطيع أن أنجز خطواتي عليه، هنا لم يعد لنا شيء، لن أبقى لأحمل السلاح، ثم ماذا بعد السلاح لمن ينجو بعد أن تهدأ الحرب؟ احتمال موتي قائم سواء بقيت أم غادرت، لكن احتمال أن أنجز حياتي إذا نفدتُّ من الموت معدوم هنا، أنا قرّرت، وقراري ليس وليد اليوم، لقد كان هاجسي منذ أكثر من ثلاث سنوات، انتظرت حتى أنهي دراستي علّها تفيدني في قادم الأيام.

وأهلك يا نور؟ أمّك، أبوك، أخوك الصغير؟ خالة نور، أنا أنتزع حقّي بالحياة التي لم يستطع أهلي حمايتها، لا ألومهم، لقد قدّم أبي الكثير ودفع من عمره من أجل أن يكون لي مستقبل لكنه فشل، كانت الظروف أكبر وأعقد من صدقه، سأشتاق إليهم وسأبقى قلقًا عليهم إلى أن أستطيع أن أنجز شيئًا لي ولهم.

مدّ يديه باتجاهي وانتظر كي أعطيه يديّ، شعرت أن بكاء العالم كله انسكب في أعماقي، انتابتني رجفة أوشكت أن تتحوّل إلى اختلاجات تستبيح جسدي. مددت يديّ وسلّمته إياهما، شدّ

عليهما بقوة وهو ينظر إليّ مبتسمًا من خلال عينيه النديّتين، اقترب ورمى رأسه على كتفي، احتضنته، راحت يداي تمسّدان على ظهره، تصعدان إلى رأسه، تتغلغلان في شعره، أضمّه إلى صدري بقوة وكأنني أريد أن أدخله صدري وأمنع الغياب عنه، شممت رائحته، شعرت بفيض أمومة تفور في أعماقي، أمومة قلقة خائفة عنيدة تطالب بحقّها بعد عمر من الانتظار.

لم أستطع المقاومة أكثر، شهقت وأنا أناديه بصوت مبحوح خنقته العبرات يا نور، يا ابني، يا حبيبي. أمسكني مْنيّر من كتفي وشدّني بلطف إلى الوراء، تأخّرنا يا زيزفون، الجماعة ناطرين. راح نور، وهو يبتعد كنت أراقب شبحيهما حتى ابتلعتهما عتمة الدرب بين الأشجار والدغل، شعرت بأن مساحة العيش المرصودة لي صارت صغيرة أكثر، كلما غادرني أحدهم أشعر أن الكون يقتطع جزءًا من روحي. لم يبقَ في حيّزي غير أبٍ عاجز ينتظر موته.. لكن الموت منشغل عنه في بازار أوسع وأغنى وكأنه يبقيه على هامش الانتظار ليهينه أكثر.

رجعت إلى البيت وكأني لم أرجع، غادرني جزء من روحي، ليس لأن نور سافر فقط، بل لأن هذه اللحظة كثّفت الواقع ورمتني أمام أسئلتي مرّة أخرى من دون أن يكون هناك سعيد ليساعدني في التفكير والفهم، لا أعرف كيف يمكنني ترتيب حياتي فيما بقي لي من عمري، سؤالي إلى أين أمشي صار يؤرّقني ويخيفني، ماذا لو مات أبي اليوم أو غدًا؟ لمن أعيش وكيف أعيش؟

أهرب منه إلى حلم السفر، ليس بنيّة أن يكون هدفًا أسعى

باتجاهه، فأنا لا أملك الحدّ الأدنى من المعرفة والقدرة على اختيار سبيل ووضع خطة لأجله، بل أستدعيه كحلم جميل من الماضي طالما دغدغ روحي وحرّض خيالي على ابتداع أشكال أخرى للحياة، أعيشها بالوهم وأنا أمشي في دروب الحياة الواقعيّة الوعرة. كان أبي ما زال كما تركته جالسًا أمام التلفزيون ينتظر عودة الكهرباء كي يشغله ويتابع الأخبار مع قنواته التي يستقيها منها، القنوات المحليّة والميادين وروسيا اليوم، ثم يستدرج كل ماضيه وخيباته بعدها وينعي أحلامه عندما كان شابًّا والقضايا التي آمن بها، ويبكي بحرقة على ما فقد ورفاقه وما خسروا، يبكي على العروبة المنتهكة التي يتآمر عليها كل قوى الشرّ في العالم، يبكي فلسطين ويبكي على سوريا التي وصلت إلى الدرك الأسفل، يقول لي يا بنتي، صحيح هالنظام ما مرّ على البلد أسوأ منه، وجوّع الناس وقمعهم وأدخلهم السجون وترك الفساد يستشري بين الناس، بس والله يا بنتي لازم اليوم يكون الشعب كله واقف بوجه المؤامرة، لولا الجيش شو كان صار بالبلد؟ ولأنني كنت أخذت عهدًا على نفسي بألّا أدخل معه في سجال عدمي من هذا النوع كنت أصمت وأتركه يقول ما يعتمل في صدره من حزن وأسى، وفي داخلي صوت يريد أن يصرخ ليش بعد في بلد؟ شوف كم احتلال واحتلال صار فيها؟ ونحن الباقيين هون تحت حكم هالنظام اللي أنت عمتقول عنه نظام فاسد ومستبدّ شوف حياتنا كيف صارت. ومع هذا أصمت، هو ما زال يعيش في وهم الماضي ولا يعرف عن الحياة في الخارج أكثر مما يلتقطه من على شاشة التلفزيون.

بعد عراك طويل مع أفكاري وهواجسي، وبعد أن سرق مني الحزن

ما سرق، خرجت من صدري زفرة طويلة وتنهيدة عميقة، قرّرت الهروب من تلك الأفكار ورحت أرسم في خيالي صورة للتنور بعد أن أقوم بصيانته، ورحت أمارس الأدوار التي يجب القيام بها من تحضير العجين إلى تحضير الحشوات التي سأجهّز بها الفطائر، إلى تأمين الحطب والأغصان اليابسة، إلى صنع الكارة التي أمدّ الأرغفة عليها وأدخلها جوف التنور، وصرت أتخيّل السيارات تقف أمام التنور ويطلبون مني حاجتهم، ذهبت مع أحلامي حتى غفوت.

*

من الدفتر

ساعة الصمت الجبار

في يوم صيفي من أيام حزيران أرخت سحابة سوداء ثقيلة ظلّها على الكون وغطّت الشمس الدامغة في كبد السماء، حيث ضياؤها يبهر الأبصار، لكنّ عتمة عمّت البيوت والشوارع والنفوس وصار الهواء ثقيلًا حدّ الاختناق، كان الطلّاب يؤدّون امتحان البكالوريا، عندما أعلن أن القائد مات. يا ويلنا، قائدنا مات؟ لقد ارتجفت ركب أعتى الرجال، شعر الجميع بالكارثة، فقد مات الزعيم الذي كانت أجيال ولدت وكبرت ولا تعرف غير حقيقة واحدة أنه الأب القائد الذي يمسك الكرة الأرضية بقبضته فيمنحها التوازن ويحميها من السقوط في بحر الظلمات، حيث العفاريت والأشباح والجنّ والوحوش وكل ما ينهش الحيوات ويقضم الأرواح. مات القائد الذي منح بركته للناس فصار بعضهم من الغارقين في بؤسهم وجهلهم وخوفهم من الحياة يحلف الأيمان أنه رأى

وجهه على القمر، اختلّ ميزان الكون واضطّرب الناموس، دخل الناس في البلاد نوبات من الهيستريا، منهم من التزم البيت يرتجف كالأرنب ومنهم من نزلوا الشوارع في أكبر هيستريا جماعية يركبون السيارات ويمدّون أجسادهم خارجها من النوافذ، أو يعتلون ظهورها، يصرخون عاليًا حلّك يا الله حلّك يقعد رئيسنا محلّك، لينعموا بطمأنينة أنه لم يمت بل غاب في رحلته إلى سدّة العرش حيث سيبقى ممسكًا بالميزان إلى الأبد، وعلى الشاشة كان أولئك الأقوياء الذين رفعوا بيننا وبينهم جدارًا من الضباب يموّه صورهم ويمنحها هالة من الرهبة أيضًا، كانوا يضعون أكفّهم على وجوههم ويضغطون عيونهم الباكية، كانوا يشهقون ويشرقون بدموعهم، أنوفهم محمرّة ومتورّمة من طول البكاء، وقادة العالم يتناوبون الوقوف أمام النعش، وكانت مادلين أولبرايت تقف وعيناها لا تهدآن عن الحركة مثل الثعالب. تعطّلت الحياة وليس فقط الامتحانات التي تأجّلت أكثر من عشرة أيام، كانت الوفود تأتي على مدى تلك الأيام من كلّ بقاع الأرض كي تشارك في الجنازة والدفن والتعزية، هبّت البلاد من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها لتدخل في حالة هياج وفوضى مثل قطيع مذعور، وكان هناك ما يرتّب للبلاد لم نكن نعرفه، لكننا رأينا بأم أعيننا كيف مجلس الشعب وافق بالإجماع على تعديل الدستور ليلائم رئيسنا الجديد الذي رفعه على الراحات كلّ رجالات النظام والقرم العتيقة العصيّة على الاقتلاع مع أنها قرَم لم تعد قادرة على إعطاء فرع أخضر مهما كان صغيرًا ومسخًا. أذهلني تغيّر مزاج الناس، هؤلاء الذين كانوا يتصرّفون كالقطعان، عادت الملايين منهم التي دفعها الحزن إلى

الشوارع يوم مات القائد، عادت إلى الشوارع مرة أخرى بعد أيام قليلة في هياج فرح هذه المرة، تهلّل للرئيس الجديد، للغالي ابن الغالي، لهذا الواعد الذي يشعّ وجهه حيوية وإشراقًا وشبابًا، كأن الأرواح عادت إلى تلك الجماهير المذعورة.

ما الجدوى من استعادة تلك الذاكرة اليوم يا زيزفون؟ لا أبحث عن الجدوى لكن القرائن هي التي تستدعيها، حرائقي اليوم التي تلتهمني من الداخل والخارج أضاء لهيبُها المشاهدَ المحفوظة في ذاكرتي وكشف الغطاء عمّا كان غائبًا عني، صحيح لم أكن أفهم بالسياسة ولا أهتم كثيرًا بالأخبار، لكنني كنت أشعر بنبض الحياة وواقع الناس وكنت من بينهم، يصيبني ما يصيبهم، فهل كنّا نيامًا جميعنا أم كنّا مغفلين أو غافلين؟ كنت أظنّ أن فجوة كبيرة مقيمة في ذاكرتي عن تلك السنوات، لكنها اليوم تعود إليّ مترعة بالصور والمشاهد تعيد ترتيب معانيها في بالي، المعاني التي لم أكن أفهمها وفهمتها فيما بعد، فهمتها بمئات الآلاف من المشاهد التي رسمتها الحرب خلال السنوات الماضية، فهمتها من عيني نور وهو يودّعني يائسًا من أي مستقبل هنا، أريد أن أفهم كل ما حصل ويحصل بعد أن التهمتني حياة لا تشبه أي حياة كغيري ممن حولي. ما الذي كنت أنوي عليه عندما قدحت في بالي شرارة كتابة ذكرياتي؟ هاتي ما عندك يا بنت لأشوف. في الواقع لا أعرف شيئًا، كل ما أعرفه أنني في تلك اللحظة الغريبة، لحظة موتي الذي لم يكن موتًا شعرت بعبثية الحياة ورغبت في أن ألعب مع هذه العبثية، هو لعب ليس أكثر.

قد يكون الحنين الذي تسلّل إليّ خفيًّا بعد أن صحوت على حقيقة أن العمر صار خلفي هو ما دفعني إلى دعوة الماضي ومكاشفة نفسي، الحنين إلى طفولتي يوم كنت أعرف كيف أحلم وقد غادرتني الأحلام اليوم، لكنني أكتشف كم كنت بحاجة إلى فهم ذاك الماضي من أجل فهم اليوم.

الآن وأنا أتذكّر تلك السنوات التي انقلبت البلاد فيها ولم تعد تشبه نفسها ولا تشبه غيرها أيضًا، أراها بعين أخرى بالرغم من كل الأحاديث التي كانت تدور بيني وبين سعيد، وبيني وبين كل من أعرفهم، معه كنت أستطيع ان أفكّر بصوت مرتفع لا أخشى تصيّد كلامي أو الحفر لي أو الوشاية، كان الخوف من الآخر يتملّكني كما غيري، كبرنا على الخوف من الكلام، وكان ثمن التهوّر بلفظ كلمة لا تروق لأولئك المتغلغلين في حياتنا قد يكلف الشخص حياته.

في سنوات قليلة غرقت الأسواق وغرقنا معها في حياة بهرتنا ثم رمتنا إلى مستنقع غصنا في أوحاله، وصرنا غافلين عمّا ينسلّ منّا من بقايا صورتنا الإنسانية. قال لي سعيد الناس مبهورين بهادا الانفتاح يا زيزفون وما عارفين لوين ماشيين، شوفي كيف صار الموبايل من أكتر ضروريات الحياة، بكل بيت لازم يكون في موبايلات على عدد الأفراد فيه، شوفي بس بالضيعة كم توجد سيارات واقفة أمام البيوت، لما أحيانًا بطلع وبتمشّى على الدروب القريبة من الطريق ما بصدّق عيوني.

هذا ثمنه كبير ورح يندفع بعدين مهما تأخّر، وكنت أحتجّ أحيانًا وأعترض على كلامه متّهمةً إياه بالمبالغة وأنه يرى الأمور

بسوداويّة، كنت أقول له طيب ليش تنكر على الناس أنهم ينبسطوا بحياتهم ويعيشوا متل ما كلّ العالم عايشين؟ ليش صارت السيارات والموبايلات وكل وسائل الرفاهية غير حتى الناس يرتاحوا؟ كان يقول لي يا زيزفون أن يكون بين أيدي الناس كل منتجات الحضارة والتقنية بلا ما يكون عقلهم منفتح وقادر على الخروج من الآليات اللي بتتحكم بتفكيرهم، كله ثمنه فرنك، بحسب النظريات المعرفية هناك فرق بين الحداثة والتحديث، والشعار اللي انطرح مع استلام رئيسنا الشاب للحكم عن التطوير والتحديث شعار مضلّل، يعني التحديث أن يصير عندنا شركات خليوي وكل الناس تمتلك موبايلات، ويصير عندنا سيارات من كل الأنواع، ومحلّات تجارية كبيرة ووكالات ومطاعم وفنادق وأندية، وغيره كتير، من دون ما يصير تغيير للبنى الفكرية والمناهج التعليمية وتطوير التعليم وحريّة رأي وتعبير وتثقيف الناس، هذا ما اسمه حداثة وما رح يطلّعنا من مشاكلنا، لحدّ الآن مين بيسترجي يفتح فمه وينتقد أداء الحكومة أو الفساد أو المحسوبيّات أو البطش والتشبيح وتنمّر الأشخاص على العالم، من عنصر الأمن الصغير لأعلى شخص بالسلطة؟

وعندما كنت أصمت وأشرد قليلًا لأفهم كلامه يأتيني بالأمثلة، قال لي بتعرفي بيت أسعد الرعوان أكيد؟ لم أردّ، بقيت أنصت فقال لي أسعد موجّه تربوي، بتعرفي شو يعني موجّه تربوي؟ يعني شغله ودوره كتير مهم بالنسبة لعملية التربية بمدارسنا، أسعد اللي عمّر بيت بالضيعة وبيروح كل يوم عالشغل وبيرجع بسيارته، ويتفرج عالتلفزيون ومعه موبايل أكيد، بس بتعرفي أنه كل يوم بيضرب

مرته وبخلّيها تنام مقهورة وعيونها ورمانة؟ بيحكولي صحابي اللي بيجوا لعندي أنه صوته بيكون عم يلعلع متل الرصاص وهو عم يسبّها ويشتمها ويقلّا أصلًا أنت بربع عقل وبناتك رح يطلعوا متلك. شو غيّر التلفزيون والموبايل والسيارة بعقل أسعد، وشو رح يغيّر بعقل الطلّاب اللي عندهم معلمين بيتلقّوا التوجيهات من واحد متل أسعد؟

يعني شو بفهم من كلامك؟

كلامي واضح يا زيزفون، التحديث أبدًا ما بيعني أنو دخلنا بالحداثة، نحن غرقنا بالمنتجات العصرية والحديثة بس بقيت عقولنا متكلّسة وما طلعنا من الماضي، وهادا أكتر شي يحقق مرامي النظام الحاكمنا وأمثاله. بتسمعي الراديو والتلفزيون وبتقرئي الصحف بتقولي أنه عايشين بأكتر بلاد حقوق الناس فيها مصانة، وأكتر بلاد فيها احترام للعقل والرأي، وبأكتر بلاد رفاهيّة، لكن الواقع على النقيض تمامًا، كيف ممكن أبني ثقة بهيك إعلام قائم عالكذب والتضليل وهيك نظام؟

اليوم فعلًا الله رحمك يا سعيد بالموت، لأني أحببتك حبًّا اكتشفت عظمته في لحظة موتك، أقول لنفسي إن الموت حماك من الموت القادم الذي لم نصله بعد بالرغم من موتنا اليومي. كنت أقول لك في بعض المرّات وأنا أنصت إلى أحاديثك وتحليلك الأمور وموقفك من كل ما يجري في البلاد وحزنك على السوريين أينما كانوا: يا ريت في بهالضيعة كتير متلك يا سعيد. كنت تقول لي: يوجد من هم أفضل مني بكثير، لكن الخوف والإحباط يا زيزفون،

سكان هالأرياف كانوا لعبة رخيصة بين أيدي النظام، شوفي كيف أفقروهم ورموا الفتنة بيناتهم ورسّخوا بعقولهم أنهم عشائر لازم يبقوا بحالة ترصّد لبعضهم البعض، وأن اللي بيجمعهم فقط هو انتماؤهم للطائفة الحريص عليها النظام، ضمن هالجسد الكبير اللي هو الطائفة في جماعات متنافرة والجو مشحون بيناتها، لكن المرحلة الحالية بعد الثورة واللي صار بفتح أبواب جهنم على البلاد والغلو الطائفي بخطاب الجماعات المتأسلمة، جعل الناس هون بحالة ذعر من القادم، وحياتك مو حبًّا بالنظام، لكن تمسّك بالهوية المشوّهة اللي رسّخها بنفوسهم أنها الضامن لنجاتهم، وشوفي كيف خسروا أجمل شبابهم بحرب وسخة من هالنوع.

والله يا سعيد معك حق، كنت كل ما فتحت لي عيني على زاوية مظلمة تتضح الصورة أكثر وأفهم ما يحدث بطريقة أخرى، لكنني لم أستطع ان أفعل شيئًا، فقط كنت بالسرّ أقدّم بعض المساعدات للنازحين من المناطق المنكوبة، وكنت أخاف من فتح أي نقاش مع الناس من حولي، كانوا رافضين سماع أي رأي مخالف لما يقدم إليهم بالتلفزيون وبالإشاعات. رحت يا سعيد، الرحمة لروحك.

14

كم مرّ من الوقت بعد أن غادر نور؟ أسابيع؟ ثلاثة أو أربعة شهور؟ لم أعد أحسب، كان موت سعيد وظهور نور في الوقت نفسه آخر حدثين في حياتي إلى اليوم، بعدها لم يعد لدي ما أعيش لأجله.

أبي على حاله وكأن الحياة لم تكتفِ منه والموت لا يلبّيه، تعجنه الأيام والليالي وتخبزه وتشويه وتحرق قلبه وعينيه وينوس صوته وهو على حاله، صار أشبه ما يكون بالشبح، لكنه يبدو وكأن نورًا يشعّ منه، لا أفهم ما هو، لكنه تحوّل فعلًا إلى ما يشبه الشبح الوامض، كأنه لم يعد موجودًا لولا مناداته عليّ أحيانًا، والحكايات التي صار يستعيدها بكثرة عن ماضيه البعيد، حكايات عمرها سبعون أو ثمانون عامًا. صرت مثله، كأن العدوى وصلت إليّ فصار الزمن بطيئًا يتسلّى بقضم روحي، خاصّة بعدما صار تردّدي على المدينة قليلًا، فلم يعد لديّ مبرّر كي أذهب إليها، وليس لي صداقات في الضيعة، عدا الكلفة التي لم أعد قادرة عليها، فأجور الطرقات ارتفعت كثيرًا، والغلاء تفشّى حتى دفع بغالبيّة الناس إلى الفقر الشديد، وكنت من بينهم. آوي إلى فراشي ليلًا فتختلط الكوابيس بالأحلام، لا، لم يعد للأحلام متّسع بين ركام الحياة الذي أحمله معي كل يوم من دون أن أنتبه، أو من دون أن يكون لي يد بذلك، ما يحصل حولي أكبر من قدرتي على مواجهته، لست وحدي بل كلّ من حولي، صرتُ كغيري واحدة من قطيع كبير

يهرب إلى الفيسبوك بعدما صار حياة بديلة لنا، في فضائه نرمي حمولتنا من الوجع على شكل هذيانات، ثم ندير معاركنا هناك، بينما المعارك على الأرض تلتهم ما بقي لدينا من إمكانيّة للنهوض.

لم يكن سعيد مهتمًّا بهذه الأمور، حتى لم يكن لديه إنترنت ولا يتعامل معه وكان جهازه الخليوي بدائيًّا يقوم بالاتصال وتلقّي الرسائل ليس أكثر، يقول لي الأنترنت يتعارض مع عزلتي، لديّ الراديو وصار عندي تلفزيون وهذا يكفي لأحصل على الأخبار وأتابع ما يجري، وما زلت أستطيع التحكم بهما إلى الآن بالرغم من زيادة عدد الساعات التي تصلبني أمامهما، لا أرغب أن أرتهن لعالم افتراضي ينشلني من هذا العالم الذي بنيته خلال عمري بقناعة وتصميم. لكنني كنت دائمًا أزوّده بالأخبار والطرائف التي أجمعها من هناك، فقد دخلت إلى هذا العالم باكرًا وصار لي أصدقاء افتراضيّون لكنني انكفأت عن المساهمة منذ أكثر من أربع سنوات واكتفيت بمتابعة ما يكتب الآخرون أو يشاركونه، لقد تلقّيت ما يكفي من الضربات عندما كنت نشطة ومتحمّسة وأقول رأيي بصراحة ودون خوف، لكن هذا ألّب الكثيرين ضدي، وصار بعضهم يحذف الصداقة الافتراضية، ومنهم من كانوا يكيلون لي الشتائم والاتهامات بالخيانة والتواطؤ مع من يدمّرون البلد الذين يرفعون شعارًا بالذبح جيناكم، وفي المقابل كان هناك آخرون لا أعرف كيف قبلت صداقاتهم أو صاروا ضمن قائمتي يتعمّدون كتابة تعليقات مستفزّة طائفية على صفحتي، يلعنون بأقذع الألفاظ الطائفة التي يصفونها بالمجوسية والكافرة والزنديقة والتي لا تقيم وزنًا للأخلاق وبناتها عاهرات وغير ذلك، وكان كل يوم

جديد في عمر الجحيم يدفع باللغة وخطاب الناس إلى حضيض من السفاهة والغرائزية، فقرّرت الصمت...

لقد صمتُّ أمام نيران الواقع الحقيقي والافتراضي، ولم يكن أمامي غير سعيد لأحكي وأبوح في حضرته بلا قيود ولا خوف. كنت بين حين وآخر أقوم بالبحث عن أسماء تحضرني من الذاكرة، نجحت أحيانًا وفشلت أحيانًا أخرى، من بينهم كان منصور، بحثتُ عنه حتى وجدت صفحته على الفيسبوك ورحت أجول فيها، كانت صفحة عامة فاستطعت التلصّص عليه بعد أربعين عامًا من ذلك اللقاء الذي بدأ دافئًا وانتهى صقيعيًّا، لم أصدّق ما كنت أقرأ وأشاهد، لم أصدّق التحوّل الفظيع الذي طرأ على خطابه وأن ذاك اليساري السابق الذي كان متحمّسًا لقضايا بهرتني يومها عندما كان يحدثني عن القمع والفساد وضرورة النضال من أجل كسر قوالب المجتمع ومواجهة استبداد النظام كيف تحوّل إلى صوتٍ مسموع ولديه عدد كبير من المتابعين يدافع عن الوطن ويندّد بالمؤامرة المحبوكة بخبث ضدّه، لم أرسل له طلب صداقة فقد جرح شيئًا نبيلًا في أعماقي، صدمني، خيّب أملي، حاولت أن أجد له المبرّرات انطلاقًا من واقع مدينته درعا التي دفعت أثمانًا باهظة وتحوّلت أخيرًا إلى بازار تصفيات وجريمة، لكنني لم أستطع، لم أتقبل تشوّه تلك الصورة الجميلة التي كانت مخبوءة في ذاكرتي عنه. وفرحت عندما لاقيت صفحة سُهاد، فتحتها لكنني لم أستطع قراءة شيء من كتاباتها لأنها كانت مخصّصة للأصدقاء، فهمت من إشهارها لصفحتها أنها تقيم في أمريكا، راودتني نفسي مرّات عديدة أن أرسل لها طلب صداقة، تحت ضغط شعور عارم بالحنين لكني

أحجمت، لا أعرف السبب، لكن بمجرّد أن جال في خاطري أنني سأكتب إليها رسالة وأقول لها أنا جهيدة هل تتذكّرينني؟ أصاب بضيق وأشعر أنني أفتح بوابات ماضٍ بعيد لم أعد أحبّ عودته، لا أريد أن أحيي جهيدة في داخلي.

حملت أساي يومها ورحت أحكي بحرقة وألم لسعيد، فتحت موبايلي على صفحة منصور وأخذت أطلعه على مساهماته، كان سعيد هادئًا برغم الأسى الذي سيطر على روحه في السنوات الأخيرة، قال لي يومها لا تطلقي أحكام قيمة على الأشخاص يا زيزفون، ما حصل لهذه البلاد في العقود الأخيرة، وتوّجته سنوات الحرب، كفيل بجعل الحجر يغيّر طبيعته، والشجر والبشر، إنه أمر فوق قدرتهم على الفهم. لا تصدّقي أن الحرب في سوريا طائفيّة، إنها صراع معقّد وشرس بين قوى استبداد متنوعة، وللأسف الوطن تدمّر وانتهى.

صارت أيامي ثقيلة، أهرب من فجوة الفراغ التي بدأت تكبر في داخلي وإحساسي بعدميّة خانقة بإشغال نفسي بأمور تافهة، أخرج إلى التنور مرات كثيرة خلال النهار، أقف أمامه بنيّة دراسة حالته ووضع خطّة عمل أبدأ بعدها بتجهيزه وإعادته إلى العمل من جديد، وهناك تتحوّل فوهته إلى شاشة عملاقة تعيد عليّ شريط حياتي.

في السادسة من عمري اكتشفت أن هناك عالمًا خارج حدود المقصّ وبيتنا ودكان أمّي عندما ذهبت إلى المدرسة للمرة الأولى، في الثامنة سمعت كلمة الرجعيّة وبقي صداها يتردّد في بالي إلى

اليوم تؤجّجه خطاباتٌ تتكرّر باستمرار في الاحتفالات وفي الراديو والتلفزيون، حتى تبلور معناها بالقرائن التي عايشتها في الواقع وعرفت كم كنّا ننزلق مرة أخرى نحو الرجعيّة التي يبدو أننا لم نغادر عتبتها، قبل أن أكمل التاسعة ذهبت إلى دمشق، وهناك لمست النسخة الأولى لأحلامي لمس اليد، "هنا دمشق" التي كنت أسمعها في الراديو صرتُ في قلبها، في قلب دمشق. في الثانية عشرة بدأت أغادر الطفولة وأشعر بالمسؤولية وأنا أذهب إلى المدرسة سيرًا على الأقدام مع باقي البنات في الجوار ومنهنّ ريحانة التي لم أستظرفها منذ تلك الفترة وكانت قد تواطأت مع أديب لتوريطي ورميي إلى امتحان أبو طاقة..

أعاني من اضطراب أخاف من عواقبه، صارت أيامي خاوية بينما العالم يتسارع في حالة جنون رهيبة نحو كارثة حقيقيّة، وأنا أمضغ الوقت بين جدران بيتي وجهي ووجه والدي مقابل بعضنا بعضًا. أخاف من النظر إليه، أشعر أن الموت يحتلّ وجهه ويحدّق بي، أهرب، أدخل غرفتي وأرتجف، يبدأ ضميري ينهشني، لمن تتركينه يا عاقّة؟ أنا لا أتركه لكنني أخاف من الموت الذي يحتلّ وجهه، هذا إنسان لا أعرفه، أين أبي؟ يضجّ رأسي بأفكار شيطانية ويصدعني صوت الطائرات تحلّق من مطار حميميم أو تهبط فيه، أعرف من تواترها عدد الطلعات التي تذهب فيها لتقصف لا أعرف أين لكن فوق أرض بلادي. أمسك رأسي وأضغطه بيدي، أضغط بقوة حتى أكاد أحطّمه، يصمت الصخب فجأة وأسمع صوت أبي مثل مواء القطط، يناديني، لم أعد أملك ما أقدّمه إليه غير طبق الأكل وكوب الماء، أضعهما أمامه وأهرب كما لو أنني أقابل حتفي.

يا الله، ما الذي يجري؟ لماذا كل هذه القسوة؟ أين رحمتك؟ رأفة بروح هذا الهرم وهي تتعذّب وأنت تشيح بوجهك عن عذابه، عذابه؟ وكلّ الموت والحرائق والأرواح والدمار الذي ينهش بالبلاد والعباد أين أنت منها يا الله؟

ومُنيّر الذي ما زال يتردّد كعهده على بيتنا، ويدخل على أبي ويقدّم خدماته، لكن صمتًا جبارًا وقع بيننا، صار الكلام نادرًا، حتى لا ننظر في عيني بعضنا بعضًا، نخاف إن فعلنا أن تنهار مناعتنا، صرنا على شفير الانهيار لم نعد قادرين على الصمود أكثر، مُنيّر ما زال يتحرّك ويلتقي بالأشخاص ولديه الكثير من أخبار الهزائم بأشكالها التي لم تعد تحصى، لديه الكثير من حكايات الناس التي تفوق الخيال، كان يخبرني في البداية ثم صار يقتصد بالكلام ويكتفي بالهروب من النظر في عينيّ مثلما لو أن الهزيمة تسكنه ويداريها عنّي كي لا أفرط أمام هزائمي.

أستيقظت صباحًا بعد أن كنت عند الفجر نهضت لأؤمن احتياجات أبي وعدت إلى نومي، أستيقظ على شعور جبّار، عدميّة رهيبة، رحت أنظر حولي ولا أفهم جدوى كل ما حولي، نهضت متثاقلة وذهبت لألقي نظرة على والدي، كان ما زال على وضعيته مثل خرقة مطوية ورأسه يكاد يسقط في حجره. ناديته لم يردّ، ناديته ثانية بصوت أعلى لم يردّ، قلت ربما هو نائم، اتجهت صوبه، بيّي.. بيّي. وهززته من كتفه، لم يردّ وكان صدره يعلو ويهبط، وجسده دافئ، لكنه لا يتجاوب معي. أيقنت أنه في غيبوبة، خرجت إلى البلكون لا أعرف ماذا أفعل، صرت أصرخ على مُنيّر بأعلى صوتي،

أنادي وأنادي حتى لفتُّ نظر أشخاص مارّين في الطريق، رجوتهم أن يساعدوني، أوقفوا سيرفيسًا عن الخط، أنزلوا الركّاب منه بعد أن تفهموا الموقف، وساعدوني في نقل أبي إلى المستشفى. لم يطل الأمر حتى كان مْنيّر بجانبي في المستشفى، أدخلوا أبي إلى العناية الفائقة، كان الأطباء شبابًا متدرّبين ولم يكن الاختصاصيّون قد أتوا، كانوا لطيفين وقدّروا لهفتي وقلقي، لكنهم قالوا لي متأسّفين: يلزمه أن يوضع على المنفسة وليس لدينا واحدة شاغرة، ثم.. ثم صمتوا، أرادوا أن يوصلوا لي تعقيبًا بأنه استهلك عمره، والأبدى اليوم من هم أصغر منه، ومصابو الحرب، إمكانيّاتنا محدودة متل مانك شايفة يا خالة.

اتصلت بشعبان، كان لا بد أن أتصل، فأبي على مشارف الموت، قد تصعد روحه في كل لحظة، لم يردّ علي شعبان، اتصلت بزكيّة فردّت وكسل النوم يغلّف صوتها، قلت لها أبي يودّع هذه الحياة الآن، إنه في غيبوبة ويحتاج منفسة لكن لا توجد منفسة شاغرة في المستشفى، حكيت لها كل شيء وطلبت منها أن تخبر شعبان.

بعد قليل اتصل شعبان وجعلني أعيد الكلام مرة أخرى، وراح يسأل عن تفاصيل لا أفهم جدواها وبمَ تهمّ في وضع كهذا، المهم أبوك يا شعبان عم بيموت، يا بتلحقه يا أمّا ما بتلحقه. قال لي سيأتي إنما لا يعرف متى فلديه اجتماع هام، وسيبقى على اتصال معي طوال الوقت.

لقد تقبّلت وضع أبي، وتفهّمت اعتذار الطبيب المقيم عن توفر المنفسة، فأبي كان موته رحمة له وصونًا لكرامته كان يكفيه

العمر الطويل الذي عاشه بالخذلان والخيبة والهزائم، وهناك حيوات أهمّ من حياته إذا كان المعيار هو جهاز تنفس قد ينقذ الحياة، جلست بجانبه أراقب جسده المنكمش الذي تضاءل إلى أقل من النصف، عظامه البارزة وجلده الرقيق الذي يشفّ عن عروق زرقاء متصلّبة، تخترق ذراعيه أنابيب المصل ويتدلّى أنبوب القسطرة البولية من تحت الغطاء الذي يستر وسطه منتهيًا بكيس يتجمّع فيه البول.

هو ميّت في وضعه هذا، فما فائدة حياة لجسد فاقد وظائفه ودماغ منوّم ولا تواصل بينه وبين من حوله؟ تأمّلت حالته ورحت أبحث عن ذلك الخيط الخفي الذي يفصل الحياة عن الموت، هل أبي حي؟ لا، ليس حيًّا. هل هو ميت؟ لا، ليس ميتًا. فما هو إذن؟ ما الضير في أن يُترك ليسلم الروح التي ضاق عليها جسده؟ لماذا نتركه يعاني؟ شعرت بارتجافة تستبيح جسدي كله وأنا أسلّم نفسي لتلك الأفكار بالرغم من اقتناعي بها، خوف انتابني من غيب ما وأنا التي كنت أظنّ أنني قد نفضت عنّي كل هذه البدع والأفكار المضلّلة، لكنّي أمام الموت الذي بات قريبًا حدّ اليقين استفاق ضعفي مرّة أخرى، هل هو الخوف من الفقدان مرّة أخرى؟ هل لأنني سأصبح بعدها وحيدة بالمطلق؟

هل هو الرعب من الوحشة التي تنتظرني في البيت، تنام في فراشي وتسابقني إلى كل المطارح في ذلك البيت الذي لم يعد يحوي غير الصدى والذكريات، كنت أجلس شاردة.. جسد أبي على سرير الموت ومُنيّر يطلّ كل حين من زجاج الكوّة التي تعلو باب الجناح،

عندما فُتح الباب بعجلة ودخل مجموعة من اللابسين واللابسات مراويل بيضاء، لم أميّز الأطباء من الممرّضين أو الممرّضات بينهم، لكن لغطًا صار في المكان وقالوا إن المدير قادم إلى هنا.

لم يعنني الأمر في البداية، لكن عندما فتح الباب مرة أخرى ودخل طبيب يبدو في أواخر عقده السادس، شعره رمادي يلبس نظارة ومريولًا أبيض ناصعًا، يتدافع الأطباء للبقاء لصيقين به، أجفلني المشهد. إنه هو، عبد الجليل، ها هي شامة خدّه في مكانها وقد ازدادت نفورًا وبشاعة، صوته لم يتغيّر، بنبرته المتعالية الآمرة. توجّه مباشرة إليّ: أنت مع المريض أبو إبراهيم؟ لم أستطع الردّ، كنت في وادٍ آخر، وعبد الجليل في واديه أيضًا، جاء بنفسه للاطلاع على وضع أبي وقرر فورًا نقله إلى المنفسة. يا الله... كيف خُلقت المنفسة من غامض غيبك؟

والآخرون المحتاجون إليها ما وضعهم؟ أبي اكتفى من الحياة، بل تحمّل عبئها أكثر من حصّته من العذاب، من قال لكم إنه يريد يومًا آخر في الحياة؟ إن موته رحمة له. بقيت صامتة، بل خرست فظنّ أنني من فرط حزني لا أستطيع الكلام. لم يبدُ عليه أنه تذكرني، خاصة أن واحدًا من الشباب ناداني خالة زيزفون، هو من ذاكرة جهيدة، جاء بنفسه إلى غرفة المريض وأعطى أوامره مباشرة بأن يُنقل إلى غرفة العناية الخاصة ويوضع على المنفسة، بقدرة قادر حضرت المنفسة وحضرت معها أسئلة، بكم حياة تُدين يا عبد الجليل لزملائك الذين وشيت فيهم وضربت مستقبلهم؟ لماذا وشيت بحمادة؟ لم يكن حمادة منافسًا لك حتى تبرّر لنفسك أن

تزيحه من طريقك، ولم تكن له علاقة بالسياسة ولا ينتمي إلى أي حزب، أنت تعرف مثلما أنا أعرف، ولم يكن متديّنًا حتى تكون تهمته الانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين، شعرت بمسؤولية تجاه كل ما يقع في الخارج، مسؤولية جبني وسكوتي يومها عن تمادي عبد الجليل وغيره، عن الاعتداء على أبي، عن انتحار عواطف، عن مقتل سعيد، وعن رحيل نور، بالرغم من أنني لم أسكت فيما مضى، لكنني بحثت عن انتقام على مقاس معرفتي ومقدرتي، هل كان يكفي؟ لا أعلم.

نُقل والدي إلى جهاز التنفس الاصطناعي، وبسرعة فائقة واهتمام بالغ كانت كل الأمور الطبية قد استكملت، وُكِّلَ طبيبٌ مقيم وعدة ممرضات بالتناوب على رعايته، شعرت بأنني في بلد آخر لم تمرّ عليه الحرب، بالرغم من كل ما يعاني البشر في هذه البلاد من نقصان كلّ شيء، لكن كلّ شيء كان متوفرًا لأبي، وأبي لو كان بوعيه الآن لاعترض وقال غيري أَوْلى بما تقدّمون لي، هناك أطفال وشباب بعمر الورود يموتون بأمراضهم ولا يحظون بحقّهم في الدواء والعلاج، أمّا أنا فموتي حقّ وأنا جاهز له بكل سلام.

مرّ الوقت عصيبًا ومريرًا، كنت أجلس على كرسي بجانب والدي المحتضر، أراقب جدليّة الحياة والموت، أغوص في لجّة العدم بعد كل هجمة شرسة من الأسئلة العصيّة، أنزلق مع أنابيب المصل المتدلّية في الهواء وأدخل معها جسد والدي وكأنني أمشي في رحلة الحياة منذ الأزل، أبحث عن ذلك الشيء الذي يسمّونه روحًا علّني أصادفها في مكان ما، أسأل نفسي هل روح أبي ما زالت في جسده؟

إذا كانت هي دليل الحياة فأبي لم يعد محسوبًا على الحياة، فما هي الحياة إن لم تكن تفاعل وانفعال الجسد وإدراكه ذاته؟

هل يكفي أن يكون القلب ينبض لتكون الروح تنعم بالحياة؟ خفت أن يكون أبي يتعذّب ولا يستطيع أن يتأوّه ويقول آه، تلك الآه التي نطلقها في لحظة الألم القصوى، أخاف من فكرة عذابه فليست فروسيّة أن يقبض الألم على تلابيب إنسان في أعتى لحظات ضعفه. وفي لحظة الحقيقة التي بدأت تترسّخ أمامي أدركت أن مستحيلًا صار بيني وبينه، وأن أسئلتي المؤجّلة كلّها لم تعد تأمل في ردّ عليها، كان لديّ الكثير من الأسئلة التي أجمعها في بالي وأؤجّل طرحها عليه، لكن الوقت راح وتبدّد كل شيء، لقد فوتُّ على نفسي فرصة لن تتكرّر وشعرت أنها من خسائري الكبرى، كنت أريد أن أسأله عن معنى أن نكون ننتمي إلى جماعة تسمى طائفة، ومعنى أن تكون هذه الطائفة موزّعة إلى عشائر، ولماذا كانت تلك الصراعات الخفية فيما بينها، وبماذا اختلفوا وعلى ماذا اجتمعوا؟ وهل كل المرويّات عن اضطهادهم التاريخي وملاحقتهم التي كنت أسمع نتفًا منها صحيحة؟

كنت أريد أن أفهم حقيقته وهل كان نزوعه الديني وإيمانه الذي راح يطغى عليه منذ تلك الحادثة اللعينة، أو ربما قبلها منذ خيباته الأولى، كان تجربة تخصّه وحده أم إنها مشتركة بين كثيرين؟ كان دائمًا يقول في الناس خير وبركة طالما قلوبهم بيضاء وصدورهم نقية، أما إيمانه وعلاقته بالقرآن الذي كان لا يبارح يديه حتى خانته عيناه فلا أعرف الكثير عنه، وما كان يحيّرني أكثر ماذا تشكل

المرأة في حياته وما هو موقفه منها؟

هل كان يخاف من محيطه فيما لو أنصفها كما يجب أم إن موقفه كان عن قناعة حرّة؟ لماذا بقي مصرًّا على ألّا يورّث بناته؟ عواطف رحلت باكرًا، أمّا أنا التي بقيت على خدمته إلى لحظته هذه استنكر عليّ بناء بيت يُؤويه معي من دون أي سند قانوني يضمن حقّي.

أمام رهبة الموت وغيبيّته شعرت أنني أرتكب خللًا أخلاقيًّا في التفكير بهذه الأمور، هذا وقت الحزن والتمعّن في معنى الموت ومواجهة لحظة الحقيقة، والدي لن يكون هنا بعد الآن، وليس وقت اللوم والمحاسبة، لكنني لا أحاسب، أتساءل فقط، فلو أردت الحساب لحاسبت من زمان، وربما لتركت والدي لمصير يتولّاه شعبان بدلًا مني، أو حتى برهوم البعيد، فلماذا الشقاء والخدمة عليّ أنا والإرث لهما؟

صرت أبعِدُ تلك الأفكار عن بالي وأعود إلى مراقبة وجه والدي الغامض، أراقب المنفسة وأسمع صوتها الرتيب، أراقب الشاشة الوامضة فوق رأسه والخطوط التي لا تتوقف عن العبور، بخربشات تعلو وتهبط، وأشيح بصري عن المشهد لأهرب من هواجسي التي لا تكفّ عن اللعب بعواطفي، أنظر إلى كوّة الباب فأرى مُنيّر خلف الزجاج يتطلّع إلى الداخل، وعندما يلتقي نظري بنظره يومئ برأسه علامة على أنه هناك، بينما شعبان لم يتصّل إلّا مرة واحدة، ربما اطمأن إلى أن رئيس المستشفى أمّن المطلوب، وهذا بالنسبة إليه كافٍ كأن المنفسة ستتصدّى للموت وستعيد الحياة إلى والده، وسينتظره إلى أن يأتي.

ربما تمكّن منّي النعاس وسط الفوضى التي غرقت فيها بعد أن أنهكتني الأسئلة وأنهكني الترقّب، فغفوت وأنا جالسة على الكرسي، لا أعرف كم امتدّت تلك الغفوة، ربما لم تستمر أكثر من دقائق إنما خلالها غصت في بحر عميق صمّ أذنيّ وحواسّي كلها عمّا يحيط بي، لكنني صحوت على صوت يطلقه الجهاز، يشبه إنذارًا ما، نظرت إلى الشاشة فإذا بالخربشات تتسطّح ويسير وميضها خطًّا مستقيمًا يعبر الشاشة إلى ما لا نهاية، لم أفهم ولم ألحق أن أفهم حتى كان الطبيب والممرضة أمام السرير يحاولون إنعاش أمر ما، حاولا كثيرًا وأنا أقف ذاهلة أمام المشهد، شعرت أنني أقف في برزخ أصمّ لا أسمع أحدًا ولا أحد يسمعني، أمعن النظر في الخطّ المستقيم الذاهب باستمرار إلى الأمام وأشعر أن حياة كلّ منا يلخّصها هذا الخطّ الماشي إلى اللانهاية من دون أن نستطيع فعل شيء، في لحظة لم يعد الخطّ قادرًا على الصعود والهبوط والانكسار ورسم الذرى، غادره شيء يحمل المعنى كروح والدي الذي تغادره.

بعد مدّة لا أستطيع تخمينها، ربما هي دهر وربما ثوانٍ، تراخت الأيدي المنهمكة بإصلاح شيء ما، ووقف الاثنان صامتيْن، تطلّعتْ إليّ الممرضة وضعت يدها على كتفي وبصوت يكاد لا يسمع قالت: العمر إلك، الله يرحمه. ثم ردّد الطبيب خلفها ما قالت.

العمر لي؟ من يشتهي العمر اليوم؟ كانت الغصّة تخنقني، لا أفهم مشاعري إنها لا تشبه شيئًا غير خيوط مِتشابكة من النار تتوهج في صدري وتحرقني من الداخل، بينما الصقيع يتمادى على

جسدي كله، فأرتجف.

مِات والدي، في يوم خريفي من أيام تشرين في العام التاسع عشر بعد الألفين. مات في أكثر اللحظات سوءًا وفي ذروة الكوابيس التي تهجم على الناس وتحرمهم حيواتهم في هذه البلاد التي لم تعد بلادًا. ارتميت على الكرسي من جديد، الموت جبّار، لكنه لم يصل بجبروته حدّ جبروت الحياة المهينة التي عاشها، عاش أبي حوالي الأربعين عامًا يحمل جسدًا مقهورًا يمارس سطوته المستبدّة عليه، لو كان يملك الشجاعة الكافية لكان ذهب إلى موته بنفسه، لكن سطوة الحياة وجبروتها جعلا منه رجلًا ناقصًا يجترّ هزائمه ويقاوم القهر والقسوة بالهروب الذي لا أعرف إن كان يمنحه السكينة أم إنه كان يمارس الخديعة؟ مات أبي والحكاية لم تنتهِ.

15

أمرني شعبان ألّا أقوم بأي فعل قبل أن يصل، قال لي سيرتّب أمر بقاء والدي في برّاد المستشفى وترتيبات الدفن والنعي والتعزية، أعطى أوامره في الهاتف وأغلق السماعة، وما كان مني غير الاستسلام، فما الذي أنتظره بعد؟ وماذا يعني الناس موت أبي أمام الموت الفاجر المتغوّل في حياتهم؟ معظمهم دفنوا أبناءهم في عمر الشباب، ومنهم من يحلم لو استطاع أن يحفر قبرًا لجزء من جثمان ابنه بعد أن ابتلعته الحرب وتبدّد أثره في المجهول فصار للموت إحساس آخر ومعنى بعيد عن الفهم.

بالنسبة إليّ كنت أتمنى أن أستلم جثمان والدي، وأقوم بما يجب القيام به أنا ومُنيّر وبعض من أبناء الضيعة الذين ما زالوا يملكون روح الجماعة وتستنهض هممهم أمور من هذا القبيل، ويكفيني أن أفتح له قبرًا وأدفنه وأستقبل المعزّين في بيتي الصغير ليترحّموا عليه، ثم أعود إلى حياتي وأفردها أمامي من جديد بعد خساراتي المتلاحقة لأعقد صفقة معها، لكن شعبان لديه رأي آخر، وهو صاحب الأمر والشورى بعرف الجميع، طالما هناك ذكر في الأسرة فهذا يكفي ليحجب أمورًا كثيرة، ومنها أمور التوريث، لن يتسامح معي أحد ولن أسلم من الألسنة لو تصرّفت بمفردي أو استلمت المبادرة، حتى لو تنازل لي عنها شعبان، لذلك قلت له على التلفون حاضر.

دخلت البيت عند ساعات الصباح الأولى، رافقني مْنيّر ودخل معي البيت، وقف في باب غرفة والدي تمتم كلامًا لم أفهمه، ثم انتقل إلى غرفة الجلوس ونظر إلى المكان الذي كان يجلس فيه أمام التلفزيون، تنهّد بعمق وقال: الله يرحمك يا عمي بو إبراهيم ويغفر لك ويحسن إليك، ثم دبّ صمت بيننا، كنت أسمع أصوات تنفسه المضطرب وأعرف أنه يبكي. بكى مْنيّر، وبكيت بدوري، هكذا تمشي الأمور، لا بد من البكاء أخيرًا، البكاء الحاضر في حياتنا كل لحظة، ونكابر لأننا لا نملك ما نتحدّى به أسباب بكائنا، فنكابر وندّعي القوّة والبأس، بينما نحن كائنات ضعيفة شاردة مثل قطيع لا يعرف إلى أين يسير، الأمر الوحيد المؤكّد بالنسبة إلينا أن لدينا فائضًا من الدموع ومن أسباب البكاء.

قال لي مْنيّر سيذهب إلى البيت يرتاح قليلًا ثم يوافيني عند الظهر، لا بدّ أن الأمور تكون قد اتضحت. في هذه اللحظة كان مْنيّر بالنسبة لي أعظم فكرة في الحياة، هذا الإنسان البسيط الذي يعيش بفطرته الأولى، كان سندي في أعتى لحظات حياتي جبروتًا، ومثلما كان رفيق أبي منذ أن انتقلنا إلى العيش في هذا البيت إلى اليوم، كان رفيق آلامي ورسولي إلى سعيد في الوقت الذي كنت أكثر ما أحتاج فيه إلى الصديق، لم يسألني شيئًا طيلة عمره، فاجأني بقدرته على فهم الأشياء والاحتفاظ بخصوصيّتها وصونها في داخله، كان رفيقي في لحظات خساراتي الكبرى، في مواجهة موت سعيد وموت والدي، ورحيل نور.

من أين يأتي النوم؟ البيت صار مغارة مظلمة يتردّد فيها صدى

الغياب، أشعر بالوحدة حدّ العراء، لم يعد لديّ من يؤنس ليلي، ولا من أفكّر به. صار صوت أبي يأتيني من زوايا البيت كلما سهت عيناي، وكلما أغمضتا من تلقائهما عادتا للانفتاح مرة أخرى وكأن النوم سيقصيني عن حراسة الكون، وأن في غفلتي ستقع الكوارث وسينزلق العالم إلى نهايته.

أفتح عينيّ وأستغرق مرّة أخرى في الأفكار، ثم أتوه عمّا أنا فيه، أصحو على نفسي وأنا أتخبّط في تهويمات وشطحات وأفكار لا رابط بينها، لا يجمعها سوى خوف يستبطن أعماقي وقلق من الغد، الغد الذي صار حقيقة وعليّ مواجهته من دون مخطّط أو برنامج، لا أملك سوى بضعة أحلام، منها ما صار بالنسبة إليّ ملتصقًا بذاكرة عن مرحلة وحدها كان فيها متّسع للأحلام والوعود، وأخرى لا تعدو أن تكون أحلامًا بسيطة أو مشاريع ضحلة، لا طائل من ورائها غير تبديد الوقت والصمود في وجه التهديد الذي يتعرض له كل الناس، وأنا من بينهم، ومنها تهديد الفقر والجوع، فكان حلم التنور بالنسبة لي بمثابة طوق النجاة من دون أن أعرف إذا كان سينطلق واعدًا وأستطيع من خلاله أن أدعم دخلي كي أستطيع العيش ويحميني من العوز وسؤال الناس.

وإذ أنتبه إلى الواقع الذي يغرق الناس فيه أصاب بالهلع، فمن يستطيع أن يشتري من تنّوري والغالبية صاروا في قلب الجوع؟ سكّان الضيعة وكل القرى التي على خط السرفيس إلى جبل الشعرا صاروا شبه معدمين، لا الأرض باتت تعطيهم شيئًا، ولا وظائفهم التي زحفوا إليها في السنوات الأربعين الأخيرة يمكن أن تقدّم لهم ما

يسدّ رمقهم، لقد تركوا الأرض وراحوا للعمل في مؤسسات الدولة وشركاتها، أو تطوّع شبابهم في الجيش أو القوّات الأخرى، أصاب بالهلع والخوف عندما أستعرض صور الواقع الذي آل إليه الريف، صور حياة هؤلاء الفقراء المضلّلين.

رنّ هاتفي عند العاشرة صباحًا، كان شعبان. أخبرني بأنه أوشك أن يصل إلى البلد وقد عمل الترتيبات كلها، ووزّع أوراق النعي، وجهّز القبر والجنازة ستنطلق عند الثانية بعد الظهر من أمام المستشفى، وسيصلّى عليه وقت صلاة العصر وستكون التعزية في بيته، يعني في الفيلّا التي بناها على الهضبة المقابلة في ضيعة زوجته. حاولت أن أعترض، قلت له لماذا لا تكون التعزية في بيتي حيث عاش والدي؟ لكنه لم يرضَ، قلت له طيّب صار في صالة تعزية بالضيعة وهناك جمعية تقوم بالترتيبات كلها، ونحن فقط نتواجد لتلقّي التعازي من الناس ونقوم بدفع مبلغ للجمعية يساعد في تطويرها وتأمين احتياجاتها، كذلك رفض.

قال لي: زيزفون، أنا في موقع لا يناسبني أن يكون العزاء في مكان آخر، لا تنسي أن هناك الكثير ممن سيأتون من مناطق بعيدة من الشام وحلب وحمص واللاذقية ومن مطارح كثيرة ليقوموا بالواجب تجاهي، ولا مكان مناسب غير الفيلّا، وأوراق النعي توزّعت ومكتوب فيها مكان التعزية وأوقاتها، حتى لمّا أرجع إلى الشام كمان بدّي أفتح تعزية تلات أيام. بقيت صامتة، لم أستطع أن أتفوّه بكلمة أو أفصح عن موقف، قبل أن يغلق الخط قال لي ستصلك سيارة بعد قليل لتأخذك إلى المستشفى، هناك نلتقي

ونمشي بالجنازة إلى حيث الدفن.

لا أستطيع أن أفرض رغباتي، أنا الحلقة الأضعف في وقت لم يعد يوجد مكان للضعفاء في أي مجال كانوا، أنا البنت ولست الصبي، أنا الموظفة العادية المتقاعدة حديثًا من عملي، أنا التي لا تملك علاقات متعدّدة مع الناس، يكاد أصدقائي يعدّون على أصابع اليد الواحدة، أنا الرافضة لكل أشكال النفاق، الخارجة عن نسق الأغلبية المحيطة بي، أنا التي أمضيت عمري أشاهد الحياة وأراكم في ذاكرتي وأحاول أن أفهم وأرفض الخطأ وأرفض التكبّر والسطوة والسلطة من أي جهة، فمن أنا كي أكون صاحبة القرار حتى لو كان الأمر يتعلّق بدفن أبي وتلقّي العزاء به بالرغم من خدمتي إياه على مدى أربعين عامًا؟ وكيف بإمكاني أن أتخذ موقفًا وأحيل دفن أبي وجنازته إلى مشكلة بيني وبين أخي يتناقلها الناس على ألسنتهم وتصير قصصنا حديثهم؟ كان عليّ أن أصمت وأرضى.

وكان هناك مرّة أخرى، أديب، منهمكًا حدّ الغياب عمّا حوله، كان يلبس ثيابًا جديدة تتوهّج بنصاعتها، غير تلك التي كان يلبسها يوم دفن سعيد، وكان صوته أكثر اتزانًا وصلاته أكثر تركيزًا، والدعاء أكثر شمولًا، فقد دعا لشعبان وأزجل الدعاء، وللجيش والوطن وقائد الوطن. لم يدفن أبي في الأرض خلف البيت كما كان يرغب، دُفن في مقبرة صغيرة كانت قد بدأت تتشكل في الضيعة، توجّست من هذا الأمر، فقبر أمّي هناك قريب من البيت ما الذي يجعل شعبان يباعد بين قبريهما؟ تفرّق المعزّون منهم سيرًا على الأقدام من سكان المنطقة العاديين، الذين جاؤوا كما يجب أن يحصل في

كل مناسبة من هذا النوع، وكثيرون غيرهم اتجهوا إلى سياراتهم المركونة قريبًا من مكان الدفن، سيارات معظمها ينتظر فيها سائقون، ولأول مرّة أرى أديب يأتي ويذهب في سيارة مع سائق موكل إليه مهمّة إيصاله وإكرامه.

كانت الفيلّا تشبه القصر بضخامتها وحدائقها وبوّابتها الواسعة، بتنظيم حدائقها والأشجار والنباتات الغريبة التي لم نكن نعرفها في منطقتنا، وفي نهاية المدخل العريض المرصوف بأحجار ملونة، ثلاث درجات عريضة تفضي إلى مصطبة واسعة، تنتهي إلى باب الفيلّا المفتوح على مصراعيه ليدخل منه المعّزون ويتوزّعوا على صالتين كبيرتين، واحدة للرجال وأخرى للنساء. كان هناك شباب وصبايا بلباس خاص يقومون بالخدمة وتقديم القهوة المرّة والماء للمعزّين. في طريقنا مررنا في القرية التي تقع الفيلّا على أطرافها، على جانبيه بيوت بائسة معظمها يتألف من طابق وحيد، كانت الفيلّا تبدو مثل وحش جاثم في أعاليها ترصد الحياة تحتها، كان هناك تنافر فاجر بين جبروتها وبؤس القرية.

بمجرّد دخولنا الفيلّا نادتني زكّية إلى غرفة داخلية وطلبت مني تبديل ملابسي بعد أن أعطتني كيسًا فيه ثياب أخرى، قالت لي: بدّلي تيابك والبسي اللي بالكيس، مو حلوة تقعدي تستقبلي المعزين وأنت بهالتياب، جبتلك من عندي بدل. نظرت في عينيها وثبّتُ نظري فيهما والنار تتقد في صدري، بقيت صامتة فكرّرت القول. أبعدتُ الكيس بيدي وقلت لها: لست بحاجتك وحاجة ثيابك، ولست بحاجة أقنعة أرتديها لأظهر حزني للعالم. لقد كنت

ألبس سروالًا أسود وقميصًا أسود وأضع على رأسي شالًا أبيض، لم نكن فيما مضى نلبس السواد حدادًا، كانت النساء في القرى يبقين على لباسهن. غضبت زكيّة وأصرّت لكنني كنت أكثر إصرارًا منها، قلت لها هذا عزاء أبي ولا يحقّ لك التدخّل في حزني وتفصيله على مزاجك، ثم خرجت وجلست حيث كان مكاني بجانب ابنتيها اللتين صارتا صبيتين.

مرّ الوقت بطيئًا وثقيلًا على روحي، كانت الوجوه غريبة عني، نساء يدخلن وأخريات يخرجن بلباسهنّ الأسود وأحذيتهنّ اللامعة النظيفة وكعوبهن العالية وشعورهن المصفّفة بعناية، معظم الوجوه كانت تشبه بعضها بعضًا، لم أكن أستطيع تمييزهن عن بعضهنّ، الحواجب نفسها، الخدود نفسها، الشفاه نفسها، الشعر نفسه، وكأن غالبيّة من جئن توائم، حتى من الصعب معرفة فارق الأعمار. بكلمات جوفاء كنّ يقدّمن التعازي إلى زكية وبنتيها، يعتذرن بأن أمامهنّ سفر، كثيرات جئن مع أزواجهنّ من أماكن بعيدة ليكونوا حاضرين على الدفن ويقدّموا التعازي الحارّة. كانت الصور تصدم بصري وتخترق روحي، أكاد لا أصدق أنه شعبان، بالرغم من ماضيه القريب والبعيد، لكنني بسبب بعده وبعدنا عنه لم أكن أعرف هذه التفاصيل عنه وعن حياة أسرته.

لا أعرف كيف مرّ الوقت وأي عطب أحدثه في روحي، إلى أن جاء المساء وتوقف سيل المعزّين لذلك اليوم، وجاء شعبان إلى ركن النساء حيث بقينا وحدنا، كان مرهقًا، قال لي: البقية بحياتك خيتي، الله يرحمه ارتاح من عيشته اللي ما كانت سهلة. كدت

أضحك وأبكي، الآن تقول إن عيشته لم تكن سهلة؟ وماذا رأيت من عيشته؟

وصلت إلى البيت، كانت لحظة الحقيقة القاهرة، الموت لا يقهر الميتين، بل يقهرنا نحن الباقين على تخوم الحياة ومشارف الموت، في ذلك البرزخ الذي نعبر أعمارنا فيه، لقد قهرني موت أبي، وقهرني موت سعيد، وقبلها موت عواطف وموت أمّي، ويقهرني كل لحظة الموت المقيم بيننا منذ تسع سنين. كم سأعيش لأرى وأشهد؟ كم سأعيش لأقارع وحدتي ووحشتي والجدران تردّد صدى صوته الواهن؟ كم سأنهض من غفوتي وأهرع إليه فتتلقّفني جنيّات الليل وترميني على أعتاب الخوف وتلعب بروحي؟ دخلت البيت فشعرت بأنني أدخل ثلاجة الموتى. نهض عمري كلّه في وجهي وأنا البردانة التي لا تلاقي لها مكانًا بينهم، لا الموتى يحتفون بي ولا الأحياء يفردون لي مكانًا بينهم، وكأن الحياة ضاقت على من فيها وبمن فيها.

مرهقة أنا، أحلم بأن أرقد رقدة أبدية أنفض عنّي ذاكرتي وذكرياتي، أحتاج زمنًا مختلفًا وعمرًا مختلفًا بلا بداية ولا نهاية، بلا توقيت، بلا فرح أو حزن أو حبّ أو كره، أحتاج عالمًا بلا مشاعر ولا عواطف، بلا جسد يتبدّل ويشيخ، أحتاج سريرًا أرتمي عليه وأتبدّد مثل أشعة الشمس بعد رحلتها الطويلة. مرهقة أنا، متعبة روحي، منهك جسدي، وحيدة نفسي، موحش عالمي، مفجوعة حياتي. حتى أحلامي التي كنت أتشبث بها وأوقظها من غفوتها كلما استوحشت ليلي لا أريدها، فقط أريد أن أنزلق إلى ذلك السرداب

المصمت حيث لا صوت ولا ضوء ولا حرارة ولا شعور، لكن أصوات الطائرات في المطار القريب كانت تنتهك روحي وتدميها، تتحدّاني وأنا في أضعف حالاتي، لم أعرف الراحة منذ أن صار قاعدة روسيّة، لكنني الليلة أحتاج إلى سكينة إسعافية، بينما الطائرات لا يهمّها في شيء صراخ روحي، حركتها اليوم أكثر من بقيّة الأيام، أم إنها روحي المتعبة المجوّفة تردّد أصداء هديرها؟ صوت محرّكاتها يطحن رأسي، يجرجر خلفه أصداء انفجارات تأتيني من البعيد، من ذاكرة تحرقني، يستدعي كل مشاهد الموت التي راكمتها طيلة هذه السنين، فتنهض حيّة دامية يتشبّع فضاء بيتي بروائحها. محاصرة برائحة الموت ولا أستطيع النوم، محاصرة بوحدتي ووحشتي، محاصرة بذاكرتي، محاصرة بالعدم.

لا أعرف إن كنت قد نمت، أو أنني متُّ ونهضت من جديد على حياة أخرى، منذ الصباح كان مُنيّر يقرع بابي، كان عليه أن يعتاد على باب مغلق من اليوم فصاعدًا، دخل واتّجه إلى المطبخ مباشرة، جهّز قهوة لي وله وجلسنا صامتَيْن، كان لا بدّ من ابتلاع غصّتنا لنستطيع ابتلاع القهوة، قال لي: أيمتى بدك تروحي عالعزاء؟ صحّاني سؤاله على تردّدي أمس في القرار، فأنا لا أطيق إعادة تجربة اليوم الفائت، كلّ دقيقة في ذلك الجوّ الغريب عني تُسمّم روحي أكثر. ليس مكاني وليس المكان المناسب للترويح عن نفسي وتخفيف حزني. أولئك الأشخاص الذين يتبدّلون على المكان لا تربطني بهم أي علاقة، وهم أصلًا لم يأتوا لأجلي، بالعكس، كان من أتوا من الضيعة قلائل جدًا، وهم لم يأتوا من أجلي ولا من أجل حزنهم على أبي، لقد أتوا لأجَل شعبان، كان من بينهم رئيس

البلدية ومن يعملون معه، والمختار، وأديب وبعض المشايخ الآخرين، وأشخاص لا أعرفهم أتوا بلباس مموّه كلباس المقاتلين، لم أتعرّف على وجوه أناس عاديين من الضيعة. لم أحر جوابًا، فكرّر مْنيّر سؤاله، ما قلتِ لي، إيمتى بدك تروحي؟ والله يا مْنيّر ما بعرف، حاسّة أن ما بقدر روح اليوم، أنا تعبانة، بعدين كلّ اللّي عم يجوا ما بعرفهم، ويمكن ما حدا رح ينتبه إلى أني ما موجودة. بعد صمت قال لي مْنيّر: أنا مبارح سمعت من الناس أنهم ما رح يروحوا يعزّوا بالفيلّا تبع خيّك، قال أنو أبو إبراهيم ضيعته هون وبيته هون وعاش طول عمره هون، وكان لازم يندفن هون كمان. بعدين بدّي خبّرك بأمر، بتعرفي يا زيزفون أن الناس هون كلهم في جروح بقلوبهم، شاعرين أن ولادهم راحوا رخيصين، أنت شايفة كل البيوت تقريبًا صارت مفجوعة، وزيادة الكل صاروا فقراء أكتر من الأوّل، لا يا ستّي، مو بس فقرا وجوعانين كمان. ما في بالضيعة غير هالكم واحد اللي عم يسرقوا وينهبوا وينصبوا عالناس هم اللي عايشين، أما البقيّة الله يساعد، أصلًا اللي عنده شقفة أرض ما بقي له شباب يشتغلوا فيها، والله الشهر الماضي وقت الزيتون كانوا يدوّروا عالعامل بضو الفتيلة ما يلاقوه، مو بس هيك، صار العامل إذا انوجد بيطلب ست آلاف ليرة باليوم أجرته، مين معه مصاري يدفع؟

لم نكد ننهي فنجان القهوة حتى راح الباب يُقرع، فتحته وإذا بمجموعة من أهل الضيعة جاؤوا للتعزية، لقد فاجأوني، فلم يكن بيتي مدرجًا في هذا اليوم للتعزية بحسب الأوراق التي أعدّها شعبان وطلب توزيعها، دخلوا البيت وتوزّعوا على كراسي القش

التي رُصّت طراريحها الإسفنجية مع الزمن، وعلى الصوفا التي كان والدي يجلس عليها، كانوا أناسًا بسطاء طيبين، وجوههم حزينة، نساء ورجالًا، راحوا يترحّمون على أبي، ويدعون لي بالصبر. قالوا الله يقوّيك ويبعت لك على قدر حسناتك متل ما سترتِ هالختيار بآخرته. وراح العدد يتزايد حتى امتلأ البيت وفتحت باب الشرفة ليجلس من ليس له مكان على سورها. راح مْنيّر يغلي القهوة بهمّة عالية ويأتي بها إلى المعزّين، كان سعيدًا بوجودهم، وكنت مذهولة أنا أيضًا. توقّفت السيارة في الخارج، نزل منها السائق واتّجه إلى الباب الذي كان مفتوحًا، قال لي المعلّم بانتظارك، لقد أرسلني كي آخذك قبل أن يبدأ الناس بالوصول إلى التعزية.

دبّ صمت بين الموجودين، شعرت أنهم امتنعوا حتى عن بلع ريقهم بانتظار ما سأقول، نظرت إلى باب الغرفة المفتوح على باب الدار، ورأيت تلك الوجوه المتلهّفة المنتظرة كيف سيكون الموقف، قلت له أبلغ... وتوقّفت الكلمة الثانية في حلقي، أبلغ من؟ المعلّم؟ لا أستطيع التفوّه بها. أبلغ شعبان؟ ما الفائدة من مناداته باسمه أمام عنصر للخدمة لديه؟ قلت له: أبلغه أن البيت مليء بالمعزّين ولا أستطيع الانسحاب وتركهم. قل له إن أهل الضيعة يأتون إليّ هنا بتلقائيّتهم ولا أستطيع إغلاق بابي بوجوههم.

رجعت إلى مكاني بينهم، رجعت إلى حيث روحي انتعشت قليلًا برغم حزنها، بين أناس صادقين مخذولين ومفجوعين. قالوا لي إنهم لا يحبّون أن يذهبوا إلى الفيلّا، فهناك ليس مطرحهم، وهناك سوف يلتقون بالناس المسؤولين عن فجائعهم وخساراتهم

وفقرهم وجوعهم، لقد تعبوا من الكذب والضلال والخديعة، أولئك الذين يأتون إلى الفيلّا أولادهم لم يموتوا كأولادنا، وأطفالهم لا يجوعون كأطفالنا ونساؤهم لا يترمّلن مبكرًا مثل نسائنا، لأولئك لهم البلاد كلها ونحن لنا الموت لندافع عن بلادهم التي حرمونا حصتنا منها. لا تواخذينا خيتي زيزفون، قلبنا محروق، وشعرانين بالهزيمة، نحن انهزمنا قدّام عقولنا بالدرجة الأولى، كيف انضحك علينا كل هالسنين؟ شوفي لوين وصلنا، خيّك شعبان واحد من اللي ضحكوا علينا ونحن ما قادرين ندخل بيته، بس والله أنت بعيوننا وفوق راسنا، عهدنا أمام الله أنه بعمرنا ما بنتركك، واللي بنقدر نقدّملك ياه ما رح نقصّر.

كدت أبكي، بل بكيت وخنقتني الغصّة، بكيت على الحقائق التي حرقتها الحرب ودفنتها تحت الركام، لكنها تظهر اليوم جليّة في وجوه هؤلاء الطيّبين البسطاء الذين لم يبقَ لديهم غير بقايا حسّ إنساني وقيم يحاولون إحياءها بالرغم من فداحة ما خسروه. كانوا يتحدثون بالتناوب عن واقعهم وما وصلت إليه حياتهم عندما مرّت طائرة صمّ صوتها الآذان، دبّ صمت مطبق حتى تلاشى صوتها، ثم قال أحدهم: احتلوا بلادنا وما مستعدّين يشيلوا بأزماتنا اللي صارت عم تقتلنا أكتر من الحرب، صدقنا أنّ الروس جايين يحمونا ويحموا بلادنا، والله كانوا جنودهم يسرحوا ويمرحوا بهالأراضي، بحضّي من أول ما إجوا كنت شوفهم بساحة الضيعة، شباب صغار دايرين على رجليهم بلا خوف وبلا شي، يفوتوا عالدكاكين ويشتروا. كنّا نلاقيهم عجيبة بالأوّل، لكن هلق صحينا، ليش ما ساعدونا؟ البلاد تدمّرت ونحن فقدنا ولادنا وفقدنا حياتنا

وصرنا جوعانين. كانوا يردّون خلفه والله معك حق، والله قلبنا أسود من اللي صار ببلادنا، شوفوا كيف تقسّمت وصارت محتلّة من جهاتها الأربع. ليش قليل ما عم تعمل تركيا؟ ولّا أميركا؟ ولّا إيران؟ يا خيّي شو الفايدة من الحكي، والله لا بقى بإيدي ولا بإيدك، البلد راحت والله يجيرنا من الأعظم. أعظم من هيك يا خيّي؟ والله ما بعرف، بس طالما أسّة ما متنا معناه في أعظم.

كنت أظنّ أن الحرب والقتل والدمار خنقت أرواحهم وروح قريتهم، لكن ما يحصل أمام عينيّ يقدّم الدليل على أنهم ما زالوا أحياء، أو ربما صحوا من غيبوبتهم بعدما كانوا غارقين في الوهم والضلال، لقد قال واحد منهم: ولك يا عمّي شو كان طالع بإيدنا ولّا بإيد غيرنا؟ نحن هالفقرا ما إلنا حدا وما كان في قّدام ولادنا غير الجنديّة، أو يبقوا فارّين ومتخبّايين طول العمر، يمكن لو كنا عم ننقصف متل باقي المطارح كانوا ولادنا هجّوا، بس نحن محاصرين من كل الجهات، وتوهّمنا بالأوّل أن الحرب بدها تقضي علينا والإرهابيين جايين يغتصبوا نسوانا وبناتنا ويدبحونا، وهم ما قصروا لمّا فاتوا على بعض المطارح متل عرامو، بس طلع أنو كل العالم طمعان ببلادنا، وكلهم إلهم ناس جوا البلد حتى راحت بلادنا.

في ذلك الجوّ من التفاعل وأنا أنصت إلى كل كلمة أو قول، رنّ موبايلي، كان أخي برهوم. استأذنت، عن أذنكم يا جماعة، دقيقتين وبرجع. وهرعت إلى المطبخ، كنت بحاجة إلى أحد من بقايا أسرتي، بحاجة إلى أن أؤكّد لنفسي بأنني فعلًا كنت أعيش أو عشت، وأنّ

عمري لم يكن وهمًا أو هباء، من دون أي مبرّر أو محاولة مني لجدال نفسي حول هذا الأمر فسحت المجال لمشاعر من هذا القبيل. ألو، برهوم؟ أهلين يا خيّي. وصمتنا نحن الاثنين، بكى برهوم وبكيت أنا، وعندما استطاع الكلام أخبرني أنه لم يحصّل حجزًا أقرب من أربعة أيام وسوف يأتي عن طريق بيروت، قلتُ له لا تأتِ، شو الفايدة من جيّتك؟ اللي راح راح يا برهوم، والعزا خلص، وين رح تجي؟ توقف عالقبر؟ شو رح يعطيك القبر؟ خلّيك بحالك وبحياتك عندك مع عيلتك وولادك، بعدين الحياة هون ما بتسرّ، وأنت أكيد عم تسمع وتشوف. قال لي إنه يعرف كل هذه الأمور لكن مجيئه ضروري لأجل روحه التي صدمها موت والدي وعادت تتحرّش به بعدما كان قد خدّرها طيلة تلك السنوات. وأغلقنا الخط من دون أن نعرف أن الخطوط بيننا ستنقطع قريبًا.

16

مرّت الأيام، أكثر من أسبوعين كنت خلالهما ما زلت أستقبل بعض الأفراد من الضيعة، وقليلًا من معارفي في اللاذقية، وكنت أفكّر خلالها بنور الذي لم يصلني منه خبر ولم أسأل الأستاذ عنه بسبب انشغالي بوفاة أبي والتأقلم مع وضعي الجديد، خابرت الأستاذ، كان متلهّفًا لسماع صوتي وفاجأه موت والدي، عبّر عن حزنه وأسفه لأنه لم يسمع بالخبر، سألته عن نور وما هي أخباره؟ قال لي إنه صار في تركيا، لم أسأله كيف وصل إلى هناك في هذه الظروف التي أصبح وصول السوري فيها إلى أي مكان شبه معجزة، لكنه وصل وهذا طمأنني قليلًا. اتصالي مع الأستاذ ربما كان الحدث الوحيد المختلف عمّا أكرّره في يومياتي، حتى دفتري لم أفتحه منذ ذلك اليوم، شعرت أن ذاكرتي غارت في سراديب عميقة مظلمة، لم أعد أستطيع استدعاء أي مشهد أو صورة، حتى سعيد كنت أهرب من استحضاره في بالي. احتلّني جمود صرت معه أُشبهُ كلَّ شيء حولي، أشبهُ جدران البيت وأرضَه وترابَ الحديقة وأحجار بقايا الرعش والطريق وعمود الكهرباء، فقدت الأشياء جدواها وصارت بلا تاريخ ولا معنى، حتى حياتي كلها تسرّبت إلى النسيان.

منيّر يتردّد عليّ يوميًّا، يحاول أن يحدث ثقوبًا في القالب الذي بدا أنه يتكلّس حولي، يحكي لي عن أخبار الضيعة وعن أحوال الناس، يسألني عن التنّور وماذا صار بمشروعي حوله، يحاول أن يجعل شيئًا في أعماقي يتّقد، مُنيّر لا يخطّط ولا يفكّر مسبقًا،

يتفاعل مع كل شيء بإحساسه، ربما لذلك شعر بما أنا فيه، لكن الأيّام كانت تكرّ خلف بعضها من دون أن تُحدث أي فارق لديّ، أجلس ساعات طويلة أمام التلفزيون، لا أنتبه متى تنقطع الكهرباء ومتى تعود، أغفو على الصوفا وصوته يطرق سمعي من دون أن يخترقني، رحت أدخل في دوامة انتظار أعمى، لا أعرف ماذا أنتظر؟ هل أنتظر موتي؟ لا أشعر بأي إحساس تجاه الموت. هل أنتظر حدثًا مفرحًا؟ لا أفكر بأي شيء وأرجو من بعده الفرح. انتظار الليل في النهار وانتظار الصباح في الليل، وأطوي الأيام أو تطويني، لا فرق. انتهى العام، وبدأ عام جديد، قال لي مْنيّر سمعتِ قديش طلع رصاص بالجوّ مبارح بالليل حوالي الساعة اتنعش؟ والله طلع رصاص يمكن عالجبهة أيام الحرب ما صار قواس هالقد، ما بعرف بشو العالم محتفلين؟ بعيشتهم الهنيّة؟ بس بقلّك شغلة؟ هدول الناس اللي معهم مصاري قلال كتير، وهمّ اللي معهم سلاح وصرعونا بالرصاص مبارح. أنا سهرت لوحدي عملت أبريق شاي وقعدت أصفن بهالدنيا، بس لا تضحكي عليّ ما وصلت لنتيجة، بقيت هيك حتى نمت.

لكن ما حصل بعد ذلك حطّم الكلس الذي تراكم على روحي وانهار معه كل شيء. قلت في نفسي لماذا لا أبدأ بالتنور؟ وأشتغل بجواز السفر في الوقت نفسه، لا أعرف إن كنت أستطيع السفر، لكن صار بإمكاني أن أستخلص جواز سفر، لم يعد لدي ما يعيقني في السفر، حتى لو سافرت بأحلامي، ربما يصبح الحلم حقيقة، من يعرف؟ لأبدأ بالتنور وأنظر إلى طالعي، هل سيأتي سعدي يا ترى؟

اتصّل شعبان بعد طول غياب، قال لي سوف يأتي ليوم واحد يرتّب فيه بعض الأمور، وإنه حكى مع برهوم وقال له لا داعي لمجيئه. لم أفهم ماذا يريد شعبان من مجيئه، هو لم يكن يأتي إلى هذا البيت إلّا نادرًا. لكنه أتى، في يوم شتوي حالك الظلمة وقفت سيارته أمام البيت وطرق بابي بعدها، سلّم عليّ فاردًا ذراعيه واحتضنني، كان حضنه باردًا وتفوح من لباسه رائحة غريبة، رائحة قماش غريب. وجهه مرهق والشيب احتلّ رأسه، قبّلني على رأسي، ودخل صامتًا وقف على باب غرفة أبي وتمتم، الله يرحمك يا بيّي. طلب أن أعدّ فنجانَي قهوة لأنه يريد أن يكلمني في أمر، توجّست من الوضع المريب كلّه، شعبان كان يأتي في زيارات خاطفة متباعدة من دون موعد مسبق أو خبر ليرى أباه، وكان يقدّم أعذاره باستمرار بأن مسؤوليّاته وواجباته الوظيفيّة لا تمنحه وقتًا لنفسه ويطلب من أبيه أن يغفر له تقصيره. وكان أبي يكتفي بهذه الزيارات الخاطفة ويصمت بعدها عن غيابه، فما الذي جاء به اليوم؟

قال لي، بعد مقدمة مقتضبة حول ضرورة تأمين مستقبل أولاده، بكرا بطلع تقاعد يا خيتي وقت بيكونوا الولاد بحاجتي وما خلّصوا دراسة ولا وقفوا على رجليهم، أنا كتير عم فكّر بهالأمر ولازم أمّن مستقبلهم، إنه يريد أن ينهض ببناء هنا، في الأرض، مكان البيت القديم وبيتي. لقد اتفق مع برهوم على كل شيء، هكذا أخبرني وأردف بكل صفاقة بتعرفي أنا حريص على حق خيّي وما باكل حقّ حدا. بقيت صامتة لأفهم المزيد وإلامَ يرمي، وكنت أنظر في عينيه فأرى في عمقهما مغارات مخيفة. قال لي طبعًا لن أتركك، سوف أعطيك مبلغًا لتؤمّني به سكنًا آخرَ لك، ر صدت لك ثلاثة ملايين

تتدبّرين أمرك بها. ثلاثة ملايين؟

لقد غمرني بكرمه ونبله، لم تعد تكفي معيشة أسرة صغيرة لمدة عام، ثلاثة ملايين لا تشتري قبرًا في بعض الأماكن المزدحمة، يريد مني أن أتخلّى عن ماضيّ وحياتي وحاضري ومستقبلي لأجل أن يؤمّن مستقبل أولاده كما يدّعي. على من تكذب يا شعبان؟ أولادك بحاجة؟ تخشى عليهم من الفقر ومن مستقبل مجهول؟ أنا لا أعرف كم تساوي ملكيّتك فلست مطّلعة على كل أملاكك، لكن يكفي أن أعرف أن لديك عدة بيوت في الشام، ولديك في اللاذقية، ولديك الفيلّا التي تشبه القصور، لا أعرف إن كان لديك شركات أو أعمال تجارية لكنني لا أستبعد ذلك، وبعد هذا تطرح عليّ رميي في الشارع بطريقة ماكرة؟ لي حصّة في هذا التراب يا شعبان، بل لي حصّة في حياتك بعد أن رهنت عمري لأجلك وأجل أخيك وأبيك، لي ذكريات وآمال وأحلام وآلام، هذا البيت الصغير الذي رهنت عمري الوظيفي للبنوك وقتّرتُ على نفسي من أجل إنشائه كي يستر آخرتي، هو كل ما يصلني بالحياة، والبيت العتيق، بيت العائلة المهجور، هذا بيتنا، بيت أبي وأمّي، البيت الذي عشت فيه أكثر ما عشتَ أنت، البيت الذي يحتفظ برائحة عرق أمي وشقائها، يحتفظ بأنّات وجعها المكتومة التي كانت تداريها عنك وعنّا، أي حقّ وأي قانون وأي شريعة تمنحك كل شيء أنت وبرهوم؟ لماذا؟ لأنكما ذكور البيت؟ ليس خطأك وحدك، إنه خطأ والدي الذي كنتُ أقرب إليه من أي شيء، كانت حياته مرتبطة بي، كان كأس الماء حلمًا بالنسبة إليه من دوني. لكن أبي أصرّ حتى أنفاسه الأخيرة على توريثك كل شيء.

غادرني شعبان بعد أن رمى فتيله فوق هشيمي. قال لي فكّري بالأمر ولا تتأخّري عليّ بالرد، الموضوع بالنسبة إلي ما بيحتمل تأخير، ناطر تحكي معي بعد ما تكوني رتبت أمورك. جاء كلسان من النار التهم قلبي ومضى، حتى لم يحتمل أكثر من زمن شرب فنجان قهوة في البيت، لم يكترث لذكرى واحدة مع أبيه وكأن بينه وبين المكان قطيعة، والروح التي سكنت فيه لم تكن روح والده، أي عقوق وأي فجور تحمل في أعماقك يا شعبان؟

راح وخلّفَ وراءه زوبعة لا تفكّني عنها، تلتفّ بي ليلًا مع النهار، صرت أنام على الهمّ وأستيقظ عليه وأنا أبحث عن نفق، فتنغلق الدنيا في وجهي ولا أرى نهاية لنفقي، أغرق في الظلام وسواد قلبي، حتى النيران التي أشعلها شعبان صارت نسيسًا يخنقني دخانه من دون أن يضيء أعماقي. ما الحلّ؟ شعبان عنيد ولن يكفّ عن ملاحقتي حتى يصل إلى نتيجة، أتحدّى؟ ماذا أملك لأتحدّى به؟ ترعبني فكرة أن أصبح، ليس بلا بيتي، بل بلا بيت بالمطلق. صارت مشاهد القوافل التائهة في البراري من السوريين الهائمين على وجوههم بعد أن كوت أرواحهم الحرب، ودمّرت بيوتهم وصاروا بلا مأوى، تلاحقني في الليل وتحرمني النوم، رعب فظيع تملّكني. هل سأصير بلا بيت؟ هل سأهيم على وجهي في الشوارع وأنام في الحدائق وأنبش في حاويات الزبالة، كالعديد من النساء والرجال والأطفال الذين رأيتهم بأم عيني؟ لعنتي عليك يا شعبان إلى الأبد.

صار حلم السفر والهجرة إلى أي بقعة في الأرض يقضّ مضجعي، قد يكون الجموح هو الوجه الآخر للجنون، أليس مجرّد التفكير

بالسفر في عمري، وأنا الوحيدة التي لن يؤنسها غير ظلّها في أي طريق، هو الجنون بحدّ ذاته؟ لكن حتى هذا الجموح والجنون كانا كثيرين عليّ، أنا ابنة الخيبات والخسارات والفقدان، حتى الحلم أغلق القدر أبوابه في وجهي، أوّل طعنة في قلب جنوني كان انغلاق طرق الأحلام وتقطّع السبل في وجه نور عندما فتحت تركيا حدودها ليتدفق المهاجرون كالموج الصاخب إلى اليونان، لكن اليوم ليس كالسنوات الماضية، اليونان وقفت في وجه الموجة بصرامة، وحوصر المهاجرون في مساحة من الجحيم تُحوّل حياتَهم إلى صحاري قاحلة، وأحلامَهم إلى سراب، وعطشَهم إلى نيران تشوي أعماقهم.

صرت أنتظر انقضاء وقت التقنين لأهرع إلى التلفزيون وأتقصّى أحوال نور والبؤساء الذين يتشارك معهم القهرَ واغتيال مستقبلهم، أتنقّل بين المحطات مثل أبله لا يعترف بالحقائق مهما بدت جليّة وراسخة أمام عينيه، أبحث عن محطة تكذب وتقول إن أبواب الفرج ستفتح في وجوههم، لكن الفرج لا يأتي، ولا يأتي معه أي فرج في حياتي هنا، إلى أن انبثق غول في وجه العالم من حيث لا يحتسب.

طغى خبره على كلّ الأخبار، لم يعد اعتقال المهاجرين في قفصهم الجبّار خبرًا أساسيًّا يستهلّ المذيعون نشرات أخبارهم به، بل حتى لم يعد يُذكر إلّا كل بضعة أيام أمام البركان الذي يثور متنقّلًا من بقعة إلى أخرى في العالم، غول اسمه كورونا، هكذا يسمّونه ويقولون إنه بارع في حصد الأرواح والتسلّل إلى الأبدان من حيث

لا تحتسب، وإنه عادل في توزيع موته. بعد تاريخ من العنف والوحشيّة التي مهرت سلوك البشر منذ آلاف السنين ينهض مارد لا تراه العين حتى يكاد يكون وهمًا أو فكرة شريرة، ويعطي العالم درسًا في العدالة ويحطّم كل يقين ويلقي الإنسان في عزلته وحيدًا مثل جرذ مذعور. أمّا أنا فقد كنت أتحوّل إلى جرذ مذعور قبل ذلك ولم يفعل هذا الوباء الذي شغل العالم أكثر من أنه صحّاني على حقيقتي، إذ ماذا بقي لي بعد إعدام حلمي؟ انغلق العالم على نفسه ورُفعت أسوار عاتية جبارة بين الشعوب والأمم، ليس فقط بينها، بل بين الأفراد في البيت الواحد ودخلت البشريّة في حالة ارتياب جماعي، صار الآخر عدوّ أي شخص أمام جبروت الموت المتسلّل إلى حياته من حيث لا يدري، ليس الآخر عدوّي، بل صارت يدي عدّوي من كثرة ما قالوا على الشاشات عن الطرق الخفيّة للعدوى، وعن أن اليد الساهية التي لا تكف عن تلمسّ وجه صاحبها تخفي في بصمات أصابعها ذلك الجبار.

اعتصمت في بيتي الذي لم يعد بيتي، صار بوتقة القلق والخوف والترقّب، أخاف من الخارج وأخاف من جدرانه أيضًا، صرت سجينة سجنين، كلاهما أشدّ فتكًا بروحي ولا ممرّ لديّ غير باب يخرجني من أحدهما ويرميني في الآخر، لولا مُنيّر لكان الموت جوعًا هو الطريقة الوحيدة المتوفرة لموتي، لكنّه لم يكن يتركني، كل يوم يأتيني ومعه ما يسدّ رمقي، ويحكي لي عن الخارج الذي صرت أصاب بالرعب منه، ينقل إليّ صور الحياة التي تتشبّه بالحياة وهي موت بطيء، يقول لي الناس جوعانة يا زيزفون، والله لولا البريّة والدود اللي بالأرض كانوا ديوكي .بيموتوا من الجوع كمان، وما بس

هيك منعوا الناس من الروحة والجيّة، فصلوا الدنيا عن بعضها، والله ما بعرف لوين رايحين. كنت أصغي إليه بينما قلبي ينكمش حتى أشعر بأنني سأصبح بلا قلب، ولا أعرف إن كنت متُّ أم لم أزل على قيد الحياة. أصمت، ومْنيّر يحكي ويحكي، ثم يصمت وكأنه اكتشف أنه يحكي مع ظلّي.

تأخّر شعبان حتى اتصل بي، لكنّه اتصل أخيرًا ورماني أمام محنة القرار، النار التي أشعلها في صدري أعادتني إلى الحياة مرة أخرى، صحّتني من البلادة السوداء التي كنت محبوسة في عتمتها، أصرّ على أن ينتزع ردّي، قلت له: لن أغادر بيتي، سأموت فيه، سأنهي حياتي بين جدرانه، هذه حياتي وعمري ولن أتركك تنهيهما مثلما تريد، أنا لست بحاجتك ولست حريصة عليك وعلى أخوّتنا، اتركني بحالي وعندما أموت عمّر أبنيتك فوق قبري، أمّا وأنا على قيد الحياة فلن أسلّمك قدري ولن أغادر بيتي، ثم قطعت الاتصال.

صارت الحياة هي عقوبتي الكبرى، ضاق بي العيش ولم تعد الذكريات تشفيني، صرت كلّ يوم أنبش وأنبش في عمق ظلامي وأقلّب في حياتي لألتقط لحظة أبني عليها وهمًا جديدًا لكن لا جدوى. تحاصرني أسئلة صمّاء وكأن حالتي ينقصها تحدٍّ من هذا الحجم حتى تكتمل فجيعتها. لماذا يحصل ما يحصل؟ ما هي العبرة إن كان للكون قوانينه التي لا تكترث بنا؟ هل عليّ أن أرضى بمصيري مثلما على كل فقراء بلادي والبلاد التي تشبهنا أن يرضوا؟ هل هو ابتلاء من الله وامتحان لصبرنا ومناعتنا كما يقول المشايخ من كل الأديان والطوائف؟ لماذا الابتلاء يقع علينا فقط؟ أنا لا

أحبّ ولا أرغب في امتحان من هذا النوع، كافحت وناضلت طيلة عمري، منذ اللحظة التي أحرقت فيها المزار، كي أصنع مصيري مثلما أريد، لم أصنعه لكنني عشت والعزيمة تكبر معي والحلم يكبر والتحدّي يكبر، هل صنعت مصيري؟ ها هو شعبان بكلّ صفاقة يريد أن يرسم الخواتيم كما يشاء، فأين إرادتي من هذا كلّه؟ وأين أنا من معادلة شعبان ومعادلة الحرب ومعادلة الانهيار المحيط بي؟

مرّ زمان لم أنظر إلى نفسي في المرآة، أسابيع؟ شهور؟ لا أستطيع أن أقدّر، لكنني عندما قرّرت الخروج من جحيمي إلى البرّية من دون أن ألوي على شيء أو أخطّط لأمر لمحت نفسي في المرآة المثبتة على باب غرفتي من الداخل. هالني وجهي، لست أنا، كبرت حتى كدت ألمح وجه أبي في المرآة، وكانت عظامي أعلى صدري ناتئة ينكمش فوقها جلد عنقي ويبدو مثل صرّة محزّمة إلى الداخل، شعري غامق في جزئه السفلي من بقايا الصباغ الذي كنت أستعمله منذ أن لمحت بوادر الأبيض فيه، وآخر أبيضّ حتى صار مثل ثلج يجلّل رأسي.

فتحت الباب ورحت أمشي من دون وجهة، كان الوقت قبل الغروب بقليل، أحاذر السير بين الناس، توغّلت في البريّة، في بقايا الأحراش وبين البساتين، الدروب هي التي تأخذني وليست قدماي، خطواتي تائهة وعمري يشرشر خلفي مثل خرقة بلّلها المطر، أمشي والشمس خلفي لا أشتهي النظر إليها، للمرّة الأولى في حياتي أخاف الغروب، أخاف أن أشهد الشمس وهي تذوي برغم كل الجمال الذي أضفيتُه في الماضي على غروبها، لم تعد أصوات البريّة كما

كانت في الماضي، دخلتْها عناصر جديدة وغابت عنها أخرى، صرت أنصت للإيقاع، أنتظر أن أسمع نهيق حمار من بعيد، نباح كلب، وقوقة دجاجة، صدى أصوات تنادي على بعضها بعضًا من تلّة إلى أخرى، أن أرى دخان تنّور في البعيد، أشمّ رائحة الحطب والخبز، أن أشمّ رائحة الطبيخ يعبق وكأن الجو كلّه له، لم أسمع غير أصوات التلفزيونات تختلط في صخب مجنون، أخبار وكلام وموسيقى وغناء وصفير، يقطعه بين حين وحين صوت محرّك سيارة أو صوت موتور على الطريق، وأنا أمشي وأمشي من دون وجهة إلى أن انهمر الليل وانقطعت الكهرباء في موعد آخر للتقنين، وابتدأت الإنارة في البيوت تخفت بتحويلها إلى البطاريات البديلة. لا أدري كم غبت عن البيت وكم ابتعدت عنه، وهالني أن طريق العودة صار مربكًا وموحشًا في هذا الليل البهيم. رحت أمشي على خطوات قلبي، مثلما لو كنت مغمضة عينيّ، لكنّ هناك ذاكرة مختبئة في نقطة عميقة تمسك ببوصلتي وتوجّه خطواتي باتجاه الغرب، باتجاه البيت، وكانت الظلال تبدو مثل وحوش جبارة تجثم أمامي، أشعر بها تقترب مني كلّما تقدّمت. قلبي يدقّ بسرعة لا أعرف إن كان من الخوف أم الوحشة أم إحساس قلق مجهول؟ صرت أسرع وصوت الهواء خلفي يشعرني بأن كائنات مخيفة تلحق بي، أنا ابنة القرية التي تفتّح وعيي على بيئتها أخاف منها اليوم، رحت أعدو فاكتشفت أن جسدي لم يعد يطاوعني، وأن قلبي امتلأ بالأحزان ولم يعد يسعفني، وصدري راح يلهث، إلى أن لمحت ألسنة نار تعلو في الجو، لم أشهد دخانها بسبب الليل، اقتربت أكثر لأن طريقي صار واضحًا أكثر ويأخذني باتجاه

البيت، يا إلهي! لماذا كلّ هذا؟ أين عدلك وأين أنت منّا، نحن عبيدك كما تخاطبنا؟ بيتي يحترق؟ النار الجبارة تعلو وتعلو وتزداد جبروتًا، ركضت حتى كدت أطير، لا أصدّق عينيّ، كاد أن يغمى علي، لم تسمح لي النيران بالاقتراب أكثر، وقفت في مكاني أراقب حياتي المحترقة، غضب العالم كله في صدري، قهره، حزنه، عجزه. أنهار على الأرض لا أستطيع إلى البكاء سبيلًا، لا أستطيع التحكّم بصدري، أنفاسي تخنقني والنيران تلتهم قلبي مع كل رقصة تؤديها فارّة من شبابيك البيت. رحت أجأر مثل حيوان مطعون والسهم مغروز في قلبه، أصرخ وأجأر، لم يكن هناك أحد، صمت قاتل وحشي، كأن الفراغ تواطأ مع النار وفسح لها المجال لتعربد وتُعلي إيقاعها، غير أنّ يدين امتدّتا إلى كتفيّ ورفعتاني، كان ديكه معلّقًا بحبل إلى وسطه، حتى الديك أصابه الخرس وتجمّد على خصر مْنيّر ولم يحرّك جناحيه. كانتا يديّ مْنيّر وكان يبكي، صوته المخنوق يدلّ على بكائه، حضنني ومشى بي بعيدًا: خيتي، زيزفون، قومي مشّي معي، هلق بتوصل الإطفائية وبتطفي الحريق. وحريق قلبي؟ وحريق عمري؟ وحريق حلمي وحياتي الباقية، من يطفئها؟

احترق البيت، لم يبقَ غير جدران سوداء تفتح عيونها على الفراغ، صار مثل جمجمة مُجوَّفة يملأها التراب وبيوض الديدان. واحترق دفتري، راح عُمري وذاكرتي، صرت كأنني لم أكن ولا مررت بهذه الحياة، كل ما أرجوه أن يتذكر كل من يقرأ روايتي حكاية زيزفون التي مرّت من هنا ومن هناك، زيزفون التي ناضلت أكثر من خمسين عامًا، منذ أن شغلها السؤال عن الرجعيّة، التي جاهدت من أجل أن تطمر جهيدة في تراب النسيان كي تكون ذاتها، زيزفون

الاسم الذي أحبّتْه وشعرتْ أنه جدير بتمثيلها في الحياة، وبأن يكون رفيقها في سفرها الذي لم يغادر أحلامها، وراحت تدوّن تاريخها قبل أن يُنسى. احترق التاريخ وزحفت آلةٌ جبَّارةٌ على جدرانه السوداء لتهدمه وتغرز في الأرض وتدًا من الحديد يحمل لافتةً كُتِب عليها: المقصّ- مشروع دكان أُمّ جهيدة للبناء.

برلين

2020/10/16

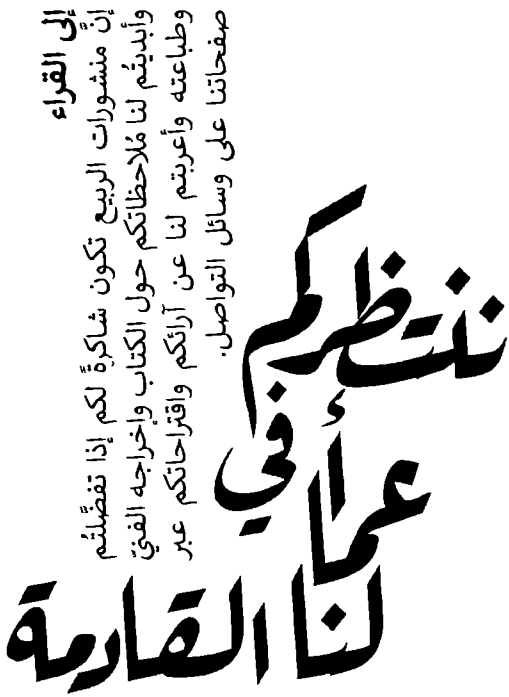

مكتبة

وللتسوق عبر موقعنا
alrabiepublications.com

"احترق البيت، لم يبقَ غير جدران سوداء تفتح عيونَها على الفراغ، صار مثلَ جمجمة مُجوَّفة يملأها التراب وبيوض الديدان. واحترق دفتري، راح عُمري وذاكرتي، صرتُ كأنني لم أكن ولا مررتُ بهذه الحياة، كل ما أرجوه أن يتذكر كل من يقرأ روايتي حكاية زيزفون التي مرّت من هنا ومن هناك، زيزفون التي ناضلت أكثر من خمسين عامًا، منذ أن شغلها السؤال عن الرجعيّة، التي جاهدت من أجل أن تطمر جهيدة في تراب النسيان كي تكون ذاتها، زيزفون الاسم الذي أحبّتْه وشعرتْ أنه جدير بتمثيلها في الحياة، وبأن يكون رفيقها في سفرها الذي لم يغادر أحلامها، وراحت تدوّن تاريخها قبل أن يُنسى. احترق التاريخ وزحفت آلةٌ جبَّارةٌ على جدرانه السوداء لتهدمه وتغرز في الأرض وتدًا من الحديد يحمل لافتةً كُتِب عليها: المقصّ- مشروع دكان أمّ جهيدة للبناء".

.....

نص مُذهل، عميق، ملحمي. بين تعبٍ وراحة، جمالٍ وقبح، وكآبةٍ ولحظات فرحٍ مسروقة، روت زيزفون وبجرأة شديدة ما حدث لسوريا وما يحدث وما سيحدث، تاريخها لم يكن تاريخها وحدها أو تاريخ أسرتها وضَيْعتها، لكن تاريخ البلاد كلها.

أمير تاج السر

SBN 978-977-6765-45-0
789776765450
iblepublications.com